محمد المختار السوسي

الالغيـــات

٢

المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

حمدا للذى انسنى بهذا اليراع . ومد لى من تحت ظلاله الوريفة متعا لولاها لانشقت المرارة فى الاضلاع . وذابت الكبد من وهج الالتياع . وانهصر الفؤاد من هذه الغربة التى تكنفتنى من كل جانب . ونازلتنى همومها بكل ناصب . وأرخت على عزاليها بكل عذاب واصب :

يا يراعى دم لى انيسا رفيقا وابق لى هكذا معينا رفيقا
وانثرن لى مما احاوله فى صفحة الطرس لؤلؤا وعقيقا
طالما فحت ان تجولت فى القر طاس عندى من قبل مسكا فتيقا
فادر لى فى اليوم كاسك واجعل لى منها الصبوح ثم الغبوقا
ها أنذا أملى عليك من القلـ ب فصف ما اريد وصفا دقيقا
ان من كنت فى اصابعه كيـ ـف يلاقى من البيان عقوقا

هذه عشرة اشهر مرت على . والجو لايزال مكفهرا . والدهر لايزال وجهه امامى عبوسا باسرا . وقد اتعجب أحيانا كيف يتاتى لى ان اطوى فؤادى على هذا المضض اللاذع . وكيف تختلس بعض بسمات من الحياة فرصا تنتهزها فتتسرب الى . فاجد بها بعض برد وسلام . ولكن لاتكون الا كلمحة طرف . أو كلحظة برق . ثم استحيل الى تلك الكتلة التى يالفها الأسى كل حين . منذ نبذنى الحدثان الى هذا المجهل . فابقى كالصخرة الصماء ركودا وان كان ما فى صدرى يثور كبركان «فيزوف» (١) متى جاش فى يوم أعصار .

يقول لى بعض الناس : احمد الله حين لم تكن الآن فى (ردانة) بين اصحابك الوطنيين الذين يقاسون بالاشغال الشاقة ـ لاشك ـ أقسى وأفدح مما تقاسى بهذه الوحدة . فانهم فى ضنك ومشقة وضيق لايمكن ان تكيف . وانت كما ترى بين بين أهلك . فاقول والدمع يرفض على محاجرى. والقلب يرتمض بين أضالعى . وكبدى تتميز فى وسط الحشا :

يقولون : ان القوم طافت بهم حمى كانك بالموت الزؤام بهم حما
فقلت لهم : لا كان عيش يخصنى بمتعته من دون أن يمتع القوما
أأرجو حياة بعدهم لا أبا لكم فلا أب لى ان كان ذاك ولا أما
فعيشى بصحبى وحدهم فمتى مضوا بضيم فنفسى تستطيب لها الضيما
فلا كان يوم فيه احيا بدونهم ولا أبصرت عيناى ذلكم اليوما
فانى أدرى ما اعتنقت على رضا وعن طيب نفس لا رياء ولا رغما

---

١) بركان مشهور فى (ايطالية)

فاني بفضل الله أقدر سابح متى خضت في الأثباج ان اقتحم يما
فهاكم يميني لا ترى وطنيتي تخيس وان القم من افكارها سما
فطنى فلا الوى وان أكثروا وان يجرع بنو التعنيف جهدهم اللوما

(وبعد) فقد كان هذا اليراع يقيد ما يقيد في هذه الاشهر الماضية . ويفيد القارئ كل ما يحوم حول في هذه البلاد القفراء من بنات الاقلام . ولما اوكى ذلك الجزء . وتم كماقدر له . كان لابد من جزء آخر يتبعه مقتفيا آثاره . متشحا بملاءة اخرى على نمط صنوه . ليفيد أيضا كما أفاد امامه . وليلم بعض ما أراه يتراكم من جديد ازائى من الرسائل والقصائد الالغية وما اليها . مما أماد بـه الاخوان الالغين وغيرهم الجبـال . وأجرء به ذيول زيادة التعرف بهم بقدر مايسمح به الحال التي يحيط بي نطاقها . فلأستقبل بهذا الجزء هذا الشهر الجديد ـ ذا القعدة ـ ولأقيد به شوارد الخواطر التي أراها تتهافت علي تهافت الفراش عـلى المصباح . فربما يجـد منها ومما وراءها أحد الاخوان الذين خلفتهم ورائي بعض مـا يتفتح له قلبه غـدا ان شاء الله يوم القاهم لقى المغبوط بحول الله . فلم أياس من انحلال العقدة عن قرب . وما ذلك على الله بعزيز . ودوام الحال من المحال .

هذا هو الحامل الوحيد على ان فتحت هذا الجزء الجديد من (الالغيات) ونصبته لما ياتي به الغد من رزق حسن بين الأفكار التي ينغمر بها وحدها غريب مثلي . وبين بنات اليراع التي هي وحدها سلوتي الوحيدة في هذه القفار . فها نحن اولاء نستمري القريحة لعلها تبض بقيم يستحق التخليد فما علينا الا مد الحبالة . ونثر الحبوب . وعلى الله النجاح وعليه الكمال .

وليعلم أنني أسجل الافكار التي تعتورني وقت هجومها كمـا هي . واجلو الحوادث في لونها الاسود الحالك كما أراها حين تمثل أمامي وجها لوجه . فتصدم جبيني بصدماتها الشديدة . ولا أحب أن أجعل عـلى عيني منظارا مستعارا يعكس الالوان . ويقلب الحقائق . ولا عـلي فيمن عسى أن يقولوا : انني رعديد يتراع غير رابط الجاش. أو انني فضاح لأسرار شخصية ليـس من اللائق الاعلان بها . لأن قارئي أخبار المعارك لايمكن أن يرى المعارك كما يراها من يخوضها . ويعرض نحره للألسنة المشرعة . وكل من يقلب الحقائق تكلفا للتجلد المصطنع ليغر القارئ، فانه أحد الكذابين . ولا أحب انا أن أكون يوما من الكذابين (ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم) .

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابـة الا من يعانيهـا

بين العشاءين ليلة الخميس ٣ ـ ١٠ ـ ١٣٥٦ هـ

ياعام 1356 هـ

تصرمت يا ستا وخمسين لا كنتا ... ولا كل مـا سموه فى عـدد ستا
تحيفتنى حزنا وضيما وغربـة ... وضنكا وتسهيدا ومزقتنى شتى
لقد كنت دهرى مسعدا ومساعدا ... تردد ان انطق سعود العلا الصوتا
فلما طلعت طلعة النحس بالـذى ... طلعت به أرهقتنى السخط والمقتا
وأطفأت نبراسى المضىء على العـلا ... وأتلفت فيه الفتل بالضغن والزيتا
وزلزلتنى حتى تزلزل راسـخ ... وطيد واتبعت المخاريق والبهتا
فغب لا أعاد الله منك مسودا ... يسود نور الشمس والبحر والنبتا
فسحقا لمـا لم استبن منـه بسمة ... تخفف ما بين الضلوع ولو وقتا
سوى زفرات لافحـات كأنهـا ... تقود الى ذاتى المدعدعة الموتا
وذكرى اذا ما ساورت فى جوانحى ... تحتّ فؤادا ما درى سلوة حتا
وتشحذ من قلب بصدرى موكل ... بلتّ شجون الحزن لم يالها لتـا
ونجوى صحاب كنت معهم موحدا ... بشمل جميع مثل ما تجمع القتا
اسير وايـاهم بنهـج مقـوم ... فلا عوج ما بين متنيه لا امتا
بنو (فـاس) و (الحمراء) و (العدوتين) يـا ... لعقد شتيت ؛ أنت يا عام من شتتا
فسحقت مـن عـام كنود تقطعت ... أواصر من بلواه شتتت بـه شتا
فها نحن يا عام الشقاوة بين من ... كفنت ؛ ومنفى ولا زاد لا بيتـا
كانا جبال زعزعت عن مكانها ... فطرنا هباء لا نحير ولو صوتا
كأن لم نكن زين المواكب ان مشت ... وزين نواد كاسيات بنا سمتا
كأن لم يكن فينا أناس اذا بدوا ... ترى كل طرف شامخ بادر اللفتا
ومن أن يقوموا للخطابة زعزعوا ... ودعنوا ذليلا رائما ذلـه حتى ...
بـلى ان فيـنـا نخبة مغربيـة ... يحقون ان قالوا أو ان لازموا الصمتا
غدوا زينة القطر السعيد بهم الى ... أن التحت عامَ النحس غربتهم انتا
فمزقتهم شلت يمينك بين من ... وادتّ بروح أو ترج به ميتا
فـلا عاودتنا منك ايـة ليلة ... ولا أربعاء منك نبصر أو سبتا
الا أعزب لحاك الله يا وجه بومـة ... فليتك لم تخلق وليتك ما كنتا

ارتجالا ٢٩ ـ ١٢ ـ ١٣٥٦ هـ

الذكرى الاولى للنفي

في ٢٨ - ١٢ - ١٣٥٦ هـ

في مثل هذا اليوم من السنة الفارطة . تلقيت تلك الصدمة العنيفة التى زلزلت قواى . وهدت كيانى . واقحمتنى قمعا حرجا ضيقا . فغادرتنى في سم الخياط . كأنما اصعد في السماء . أو تلتهمنى هاوية عميقة من أعماق الأرض .

شاه وجهك يا يوم ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٥ هـ . فقد أصليتنى نارا حامية لم تزل تتلظى بين جوانحى منذ سنة . فانت أنت من قضى علىّ بان ارتطم في هذا الذى أتهاوى فيه منذ ذلك الحين العصيب . الى أن استدار الفلك . ومرارة الغربة لاتزال تحزّ في فؤادى كما يحز شديد القوة بسكينة مسنونة في خشبة هشة . فلا كنت ايهذا اليوم . ولا كان كل من يرنو الى شمسك . وان كانت وهاجة وضاءة . فما المغتر الا من غررته بصحوك . أو تمشت عليه حيلة هذه الغضارة التى تقطر من جوك المصقول (١)

اذا رايت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث يبتسم

ايه ايها اليوم المنحوس . أدرت ثانيا لتطل على من طعنته تلك الطعنة النجلاء ؟ لتلقى عليه نظرة أخرى من نظراتك الشزرة المتخازرة . كما يصنع الطاعن الفاتك بمن فتك به . حين يقف على شلوه الممزق . يستمتع بمنظره شماتة وتروية لحقده الذى لايزال يتلهب بين ضلوعه . فربما يترامى على بطنه فيبقره ثم يلوك كبده . ويرتشف من دمه الثجاج . لعله يبلغ من نهمته مبلغها . وما ذلك الا زائده ضغنا على ضغن . وأحنة على أحنة . ومتى وجدت الليونة متسربا الى الصخر الصلد . فتجد الرقة كذلك منفذا الى القلوب المتحجرة من أضلاع الايام . وصدور الاعادى .

هانذا لا أزال حيا أيها اليوم المتجهم . ولا ازال رغم أنفك كما كنت ومن كان في مثل أنفتى وصرامتى وجلادتى . فانه مع توفيق الله لا يتأثر بمثل ما تزحف به اليه . أطنين الذباب يضير الأسود ؟

(وبعد) فاطلب الله مصرف الأقدار أن لايستدير مثل نهارك ان شاء الله ومد في الحياة . حتى اقف أمامك موقف الشاكى السلاح المنتصر على الايام وما ذلك على الله بعزيز .

وقت الظهر ٢٨ - ١٢ - ١٣٥٦ هـ

---

١) كذلك كان يوم ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٥ هـ

الذكرى الثانية ليوم النفي

٢٨ - ١٢ - ١٣٥٧ هـ

في مثل هذا الضحاء (١) العالي منذ سنتين كانت سيارة الحكومة تقطف بي في الوادي النفيس . الذي كان عندي في ذلك النهار المنحوس . الوادي الخسيس . لا الوادي النفيس . فكنت في تلك الساعة كالسماء المكفهرة القاتمة الأرجاء . المسودة الاسارير . لايتبلج مني للناظر الى نفسي الا ظلمات بعضها فوق بعض .

حقا كان ذلك اليوم العصيب أول يوم هائل رأيته في حياتي التي سلخت منها اذذاك ثمانيا وثلاثين سنة . كانت كلها مواسم مسرات . وأعياد أفراح . وأعراس حبور . فجاء ذلك اليوم الشديد بما جا به بغتة . فأملى علي أن للحياة أشواكا شائكة . لابد أن تتشبث يوما ما في ذيول من لايزالون يجتنون من الازهار الغضة ما يغغم خياشيمهم بنفحات ما مثلها نفحات . فجرعني بذلك الفراق الأليم صابا مريرا . لا أزال وقد استدار الفلك مرتين أحس منه بمرارة لاتنفك عن مذاقي . حتى لأحسبها ضربة لازب علي في الذي يتبقى في الحياة .

استفاق كثير من اخواني في (مراكش) صباح ذلك النهار المشئوم . فتمشت بينهم أنباء يالها من أنبا . لأنها وان كانت تدور حول رجل واحد فرد عادي لايسمن ولا يغني من جوع . كانت كنذير عام للجميع بأن الدهر قد بدأ يقلب لهم ظهر المجن . فلم يكن ما مس به اليوم احدهم الا كالبرق الذي لايخلب . فلا يلبث أن يستهل وراءه مطر من الكوارث ثم ينهمر . فيأتي على كل ذي روح حية . وكذلك كان . فقد تتابعت بعد ذلك النهار أنهر اخرى طافحة بالسيول الجارفة . كان لها في جميع انحاء القطر مصائب . كم أذابت من قلب . وأسالت من دمع . وارمضت من كبد . واشمتت من عيون . ممن لايريدون أن تقع ابصارهم على ذي نسمة له من الشعور والحياة ما يفضل الله به بعض الناس على بعض .

ايه وقعت الواقعة الخافضة الرافعة . فنفت وارمست . واهانت من كانوا . . أو كانوا . . أو كانوا . . وفي اي صف اقع انا بين تلك الصفوف؟ فلست بزعيم سياسي أقوم في ميادين السياسة بما يقوم به اخواني

---

١) الضحاء بفتح الضاد والمد : يأتي بعد الضحى بضمها مقصورا .

السياسيون العاملون . ولا بذى مبدأ خطير اقلق به المجتمع . ان هى الا وطنية توجهت بها الى نفع الأمة بالارشاد والتعليم وازالة الغشاوة . فكيف اذن كان نصيبي اولا من بين لداتي . هذه الشدة الفادحة التي اصلتني نارها . واقحمتني تيارها . أم كانت الجرومية ايضا والاشتغال بها في مادة قاموس الحكومة وارشاد العباد مما يدخل تحت السياسة المخيفة وبما ... ومن يدرى . . . ؟ والرعديد قد يرى غير شيء فيظنه رجلا .

زلزل (المغرب) زلزاله (١) قبل ذلك اليوم . وقام وقعد حين حوول ما حوول . فجرى في الميدان من جروا . وشرقت نجوم لماعة زحزحت من الدياجير بعض السدف من اعمال اخواننا السياسيين . على حين ان المختار سليل الزاوية وابن الفقراء . والمتربي في الخمول والمسكنة بين أصحاب الخمول والمسكنة . قابع في زاويته يتقمع (٢) لولا اجروميته لأنى عليه الخمول حتى يكون نكرة لاتعرف . وهباءة تذروها الرياح . ثم لايبالى بها اين تقع . وقد كان هو في نفسه يزعم انه لم يخلق الا للعمل الهادئ العلمى . والارشاد العام باسم الدين . يؤدى فيهما ما في مستطاعه لشعبه الجاهل . فكان عمله الدائم . ناهجا هذا المنهج . لايحول عنه يسرة ولايمنة وظاهره وباطنه شرع . لم يكن بذى وجهين . ولا بذى عملين . حتى حسب أن الناس كلهم ايقنوا منه ذلك . وان الحكومة نفسها قد تكون ممن يوقنه ايضا . ولكن صباح ذلك اليوم المشئوم ابرز للعيان ان رأى من يرى ذلك فائل . وان أذناب الحكومة وعيونها العمش الحول . مازالوا بها حتى لقحوا باصرتها بما جبلوا عليه من الحول . فابصرت المختار مختارين . مختار مسجد (الكتبية) ومسجد (ابن يوسف) وزاوية (الرميلة) ومختار السياسة الخفية السارية تحت أذيال الدهاء العظيم . خصوصا حين ينتابه شباب ظهروا في الميدان السياسي . كان حلقة من حلقات مفرغة متسلسلة من بعض الدول الاجنبية الى ان تخللت افئدة مغربية . وكان فؤاد هذا الداهية أحدها . وربما كان ادهاها واعرف من غيره فيها كيف توكل الكتف . ولا ادل على ذلك الا ما يتظاهر به من نشاط احيانا بوصل حلقات التعاوف بين من في الجنوب ومن في الشمال . والا هذا الاباء الظاهر الذى لايستخذى به أمام المحتلين . ذلك هو المختار الثاني الذى لا وجود له (ظاهرا) الا تخيلا وتزويرا وقلبا للحقائق . فاذ ذاك لم تر الحكومة بدا من أن تحتاط فتعمل ما تراه واجبا . فينقض باشقها على تلك الرخمة . فيهوى بها بسرعة فائقة حتى يلقيها وراء الاطلس . في يباب (الغ) حيث لايوجد الا الشيح والريح

---

١) يوم اللطيف . ٢) تقمع : يقولون : جلس يتقمع : يذب الذباب عنه من الفراغ . والتقمع : الحيرة .

لم يكن المختار يحسب فى نفسه الا أنه ابن الزاوية . وابن الخمول . وابن الاجرومية . وابن الارشاد العام . وابن الحياء الذى يقنعه وسط المجامع بقناع الصمت والاطراق . حتى لاينبس الا مع احمرار وجه . وبلع ريق . وان هذه المصيبة التى أصيب بها . قلما يهتبل بها أحد . وخصوصا من الشباب السياسى الذى كثيرا ما يعلن أن المختار مختار دروس . ومختار معارف لاغير . كما يصرح بذلك زعماؤهم الذين يعرفونه (١) لايرجى منه للميادين بطل يفرج الغمم . ويستولى على القمم . ولكن الا يطول العجب حين كان ذلك الشباب نفسه من بين أفراد الشعب هم الذين قاموا وراءه مدافعين . مبينين أن عمل المختار هو أيضا عمل كبير . لايقوم به الا من ضحى بشهواته . فقنع بالخبز المكرج . والزيت الاسود (٢) وكان أيضا أترابه من (الحمراء) قد يخال من لايعرف ما بينه وبينهم من الصفاء والصداقة الملتحمة . والوداد المحض . انهم أنفسهم ممن يصعرون خدودهم شماتة به على ما يعهد ممن التقم الحسد قلوبهم . ينفسون على أحدهم ما تاتي له . ولكن ذلك اليوم أبرز أنهم من الافاضل الممسوحين مما يبتلى به أمثالهم . فقاموا وراء أخيهم المنفى . ثم لم يكفهم ذلك حتى تبجحوا فيما كان أيضا لهم سببا حتى أجيزوا الى ما وراء (الاطلس) الى (ردانة) حيث يقاسون ما يقاسون شهورا سودا . فكان ذلك مما جمع أيضا أوصافنا . لأن المشاركة فى المصائب . أعظم ما يمت به أخ الى أخيه .

حوول ما حوول من أن أرجع الى محلى . وكاد ذلك يتم مرتين : أولاهما يوم قابلنى الكومندار رئيس دائرة (تارودانت) فى صفر ١٣٥٦ هـ . فوجد منى صلفا أثارته الحزازة التى لم تزل تحوك فى صدرى . والجرح بعد لايزال يقطر دما . وثانيتهما يوم اجتماع من اجتمعوا لدى الباشا الحاج التهامى الكلاوى . كالأخ ابرهيم والاستاذ الزعيم سيدى محمد بن الحسن الوزانى . والشريف مولاى الحسن التبر الفاسى . وقد كان ذلك قبل أن يبلغ الأمر مبلغه فى يوم (الحمراء) الذى أتى فيه الوادى فطم على القرى ثم جاء يوم الذكرى الاولى فدخل على شامتا . لأنه جاء بعد ستة أيام من يوم ٢٣ - ١٢ - ١٣٥٦ هـ الذى أثارنى أيضا وزعزعنى حتى لا أقدر أن أجيل فكرتى كما أجيلها اليوم . فلم يمكن لى الا أن أترامى على الكتابة

---

١) صرح بذلك الزعيم الأكبر فى مقال له صدر اذ ذاك فى جريدة «الأطلس» ومختار ذلك الوقت لايزال هو هو الآن ١٣٨٢ هـ لاتبديل لخلق الله

٢) كان فطورنا بالزاوية الرميلية فى غالب الايام اذ ذاك : خبز الشعير والزيت والشاى للاقلال .

من وضح الفجر الى غسق الليل . لعل الشغل الشاغل يرد الى رباطة الجاش الثائر مني . ثم دخلت هذه السنة تحت ستار الاشغال القلمية . وعيني الى السماء انتظر برقا لعله يومض منها . مع تفويض لله فيما يفعل أو يذر (وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد)

ها هو ذلك اليوم يعود ثانيا . وها هي ذي السنة الثانية في الغربة تنطوي طي السجل للكتاب . طلعت علىّ شمس هذا اليوم . وقد تمكنت من قلبي الجموح . وتملكت أن أجمع من نفسي الشعاع . فامكن لي أن أقف هذا الموقف التذكاري لأعرض على الشاشة البيضاء من ذاكرتي . الحوادث التي مرت في السنتين . وأشخاص أودائي واخواني وأولادي الذين ضرب بيني وبينهم من ذلك النهار بحجاب مستور سميك . حتى لا أتوصل من اخبارهم باي شيء . الاّ ما يتسرب اليّ من بعضهم لماما . كما يتسرب الوسن الى الجفون غرارا .

انني الآن أرسل بصري الى الاساتذة اخواني . فاصافح الاستاذ ابن الفضيل . والعلامة عبد الجليل ابن القزيز . والاديب عبد القادر المسفيوي. والعالم الفلكي سيدي محمد بن عبد الرازق . غير ناس ما بيني وبين سيدي محمد بن عثمان من التعارف . ثم التفت الى ناحية اخرى . فأعانق سيدي بريك . والاديب عبد الله بن ابرهيم . وصديقه الشاعر عبد القادر بن حسين . ثم أزور الأخ الشريف مولاي أحمد المنجرة . والسيد العربي بنيس . وشقيق الروح البركة السيد السعيد الفاسي . وأبا سليمان محمد ابن داود الفاسي . وصاحبه المفكر الغيور محمدا الملاخ . ثم أؤدي الواجب في التسليم على القاضي الاجل الحاج ادريس الورزازي . والقاضي المؤرخ السيد العباس بن ابرهيم . والقاضي السيد محمد بن العربي الدكالي . وشيبة الحمد المحمود عند كل احد . سيدي عثمان المسفيوي . والعلامة الاديب مولاي مبارك العلوي الذي سرني عنه أن يتولى رئاسة كلية (ابن يوسف) والقاضي مولاي علي الكتاني وولده مولاي أحمد . ثم أقف هنا لحظة أترحم فيها على ذلك العلامة المؤرخ المرحوم سيدي محمد الكانوني الاسفي المتوفى ١٥ - ٩ - ١٣٥٧ هـ . فانه كان نعم الاخ . وافضل مفيد . وأحسن رفيق . وأطيب عشير . ثم أمثل في (الزاوية) فارسم أمامي كل تلك الطبقات من أصحابي الكرام . وفي أولهم ابن العم . الاستاذ ابرهيم ابن أحمد الالغي . والشاعر البارع الاستاذ الحسن التناني . والاستاذ عبد الرحمن بن فارس التكاني . والاستاذ سالم بن يعيش الرحماني الذي هو مني بمنزلة الجلدة بين العين والأنف . وقد ابتهجت لالتحاقه هذه السنة

بـ (القرويين) ويااليت ابن عمه النيب محمد بن عمرو سار سيره . فابن عمرو ممن لاينبغي أن يكون مثله الا فيالرعيل الأول. وسيدى عبد الرحمن الناجي . وأحييك أيها الرواني وشوقي الشاعران الاديبان . وهنيئا لك يا شوقي بـ (الخلدونية) فلعلك ستنال ما كنت دائما أريده لك . كما أحيي أخاك الخطيب المهدى وابن عمكما محمد بن اسمعيل . وبارك الله له في اقترانه ولكن ربما يحمله على تطليق التعلم . وسلاما على النجيبين الدكاليين محمد بن الطالب واخيه . وعلى عبد الله المسفيوى جارنا بدرب الزاوية . وعلى محمد ومحمد ابني سترة الاسفيين ويرحم الله بلديهما الشاب الهادىء أحمد بن محمد علان . وليبارك الله في بلديهم المقدام الاديب محمد بن العربى الاسفي . وعلى الابزيويين خصوصا النجيب عبد الحى . وعبد الرحمن . وسيدى الحسين . ومولاى الحسن . وقد سمعت ان أحمد النجيب تبع عبد العزيز فارمست نجابتهما . والتحية الى سيدى الحسين التيزكيني . والى سيدى عثمان بن البشير المطاعى . وعلى محمد ابن الفقيه الدرقاوى الحاحى الدين الخير الفهم . وعلى أبناء (الحمراء) عبد القادر بناني ومحمد بن ابرهيم الدفالي . وأحمد الزيتوني . والورزازيين الصغار اذ ذاك وعلى اللبق اللطيف عبد السلام ابن القاضي . ومحمد البودرارى السوسى . ومحمد الدليمي والنجيب ولد الحاج محمد الدباغ . وعلى المكي العمراني ؛ ومن في طبقته . وعلى كل الاطفال الصغار اذ ذاك . فلعلهم الآن كبار معارف ومحمد ابن القائد الحاحي . وعرفة ابن السيد السعيد الفاسي . وعلى الاستاذ اللغوى المطلع البحاثة على ابن المعلم الذى ما تاخر الا كما تتاخر الفريضة عن ركعتي الفجر . وعلى كل من معنا اذ ذاك . وكلهم ذوو سمة . وهل تخفى الاقمار ؟ وربما نسيت بعضهم فليسامحني من لم أتذكر اسمه الآن .

انني لأثير من قلبي طبقات مما تجمد فيه من أحداث الغربة . لأستل من تحتها أسماء كل من كانت تضمهم (الزاوية) ممن أنست بهم حينا وأنسوا بي . ومرت لي معهم كما مرت لهم معي أيام معدودة من أيام الجنة التي تسود فيها سلامة القلوب . والطهارة التي تضم الصدور الى الصدور

لاريب ان الدهر الذى سامنا به من التشتت . ليس له قلب رحيم . لاننا كنا اخوة منتظمين كاضالع الصدر . وقد قنعنا من عمرنا بسعادة ان نبقى في تلك الدراسة المعسولة بلهجة قارئنا الشاعر النابغة عرفة الفاسي الذى كان له في (القرويين) ما كان مظنونا منه في (الرميلة) من الشفوف في العربية والأدب والانشاء .

ان أستاذكم المختار يا اخواني ويا افلاذ كبدى . لم تقدر السنتان المارتان أن تنسيه اياكم . ولا أن تمحو اشخاصكم النيرة من مرءاة ذاكرته . فبكم عرف حلاوة العلم . ومعكم امضى طلاوة شبابه . فليت شعرى هل أنتم كذلك ؟ أوفيكم من ألقى ظهريا هذه الذكرى . وولج مسامعه من كلام بعض أناس هناك خلا لهم الجو فباضوا وصفروا . وتقروا ما تقروا ؟

ان كلية (ابن يوسف) اليوم منظمة كما لمحته من عدد جريدة « السعادة » ولم أدرك منه الا ان صديقنا الشريف مولاى مبارك العلوى رئيس . وان العلامة مولاى أحمد العلمى من الاساتذة المنظمين . ثم لا أدرى وراء ذلك شيئا آخر. وحالة (ابن يوسف) اليوم تلائم على كل حال من يريد منكم أن يستتم من معلوماته ما أمكن . ولكن الاعتماد على النفس هو الذى يجب على من كان منكم لايزال يريد أن يكون كما كنت أريده له من أول يوم . وأود لو تنخرطون جميعا فى النظام . ثم تخوضون خوض أهل اللباقة ليتأتى لكم أن تسودوا غدا . وسأكون أنا ان شاء الله من أول الفرحين غاية الفرح بسيادتكم غدا .

(وبعد) فقد يقول أحدكم ليت شعرى ما يصنع استاذنا فى منفاه . وما الذى يصنعه لشعبه الذى عاهده عهدا لايخيسه ان لايزال ساعيا فيما يرفعه من كل ما يجول فيه البراع . أو ينطلق فيه اللسان وكان فى مقدرته

ان استاذكم لايزال كما تعهدونه نشيطا فى الميدان العلمى . لايرتاح الا الى الفائدة . ولا مبدا له الا المبدأ العلمى الخاص بحسب ما فى طاقة مثله من قصار المعارف . فكما انه أمس ارتطم فى تعليم الاجرومية وما اليها . وفى الارشاد العام . ارتطاما ينسيه كل شيء . فكذلك اليوم فى جنوب المغرب يجول فى تاريخ رجالات جنوب المغرب . ويزعم أنه يؤدى بذلك بعض الواجب . لابراز هذه الناحية المغربية كما هى . لأنها مجهولة عند العالم . مع أن فيها ما يستحق الاهتبال .

تعرفون من أستاذكم أنه حين ارتطم معكم فى الدراسة . ليس له قلم ولا دواة . وقد تمضى شهور . ولم يجر براحته قلم بسواد فى بياض . حتى ليفرط فى اجابة الرسائل الخاصة . حتى كان ذلك عيبا عظيما زلق به زلقات . وان ذلك لمزلق مد حاض . ثم انه اليوم بعد أن فارق منكم من يؤنسه اعتنق البراع معانقة الألف مع اللام . فمنذ ذلك اليوم الى هذا اليوم لم يفارق أصابعه الا تحلة للقسم . وهل الغد ياتى من ذلك بما سيقول به بعضهم : جزى الله الحكومة خيرا حين نفت المختار حتى فرغته للاشتغال بهذه الناحية بل لعل بعضهم سيقول : انه فى هذه الناحية انفع مما كان مشغولا به فى

(الرميلة) على غير نظام . هذا ما سيقال . وان كنت أعلم من نفسي أنني دائما حريص على العمل العصري المحمود . وأنا اليوم مثل أمس . باذل جهدي حسب طاقتي من غير ن افضل على هذا العمل غيره .

أتدرون ان قلم استاذكم خط صفحة أدبية تاريخية سوسية فاخرة ؟ ربما يكون لها غدا عند من يجهلون (سوس) رنة يوم يرونها . ولعل قلمه لو لم يكن يوم ٢٨ – ١٢ – ١٣٥٥ هـ لايمكن ان يبرز ذلك الى الوجـود . فكم نقمة في طيها نعمة . ولكن قلبا بين جنبي لايزال خفاقا منذ فارقتكم . ولن يهدأ حتى يراكم ثانيا . وليت شعري متى سيكون ذلك ؟ وهل يمكن لنا ان نمني النفس بأن يتأتى ذلك في هذه السنة الجديدة ؟

انني لاازال أرى الدهر معرضا عن امانينا. مجررا ذيله ضد مقترحاتنا فلا يبرق منه الآ ما يكدر الخاطر . ويدعو الى التقيد بقيود لم تخلق لهـا ارجلنا . ولا لاقت بها سوقنا والى الله المشتكى . فقد رئمنا الحرية وسعادتها والفنا من الدهر أن يسرع في رضانا . وادنه مبتغانا . ثم بدا له فتحكك بنا تحكك القنافذ بالصوف المحلوج المركوم .

من لي بتلك الحياة المعسولة التي مرت ما بين أعوام ١٣٤٨ – ١٣٥٥ هـ التي مضت كلها علما وبحوثا ومطالعات وفوائد ونشاطا واخوة ومراسلات ومساجلات . فأحيانا في (الحمراء) حيث ارتضع المعارف . واحيانا في بيت الاديب مفخرة (الرباط) على رغم كل أنف . الاستاذ محمـد بن العباس القباج . أو في بيت العلامة الفكه الكريم الاستاذ الجليل محمد التطواني . أو في دكانه بـ (شارع القناصل) حيث الآداب طلية . والفوائد على طرف الثمام . والانس متدفق . والحياة الحلوة مرشوفة الشفاه اللعس . وامـا ساعات (المكتبة العامة) مع قيمها الاخ الاستاذ عبد الله الركراكي . فهي لعمري ساعاتي التي كنت لها كل عمري مختارا لو كنت حقا مختارا كاسمي

واما اذا نزلت المكتبة الزيدانية . حيث الكرم الجم . والشرف المؤثل. والكتاب النادر . ومجالسة البونعماني تطير بنا الى اعلى عليين . فاني أتمنى لو وقف الفلك . أو نسيت هناك حتى يقضي الفلك ما كان قاضيا .

أذكر لي ويحك الأخ المرحوم مولاي الصديق العلوي . والعلامة محمد العابد . وشاعر الشباب . وأبا المزايا . وأبا الشتاء الجامعي . والاخ ابرهيم والمؤرخ الجراري . والمصطفين ابن مبارك والغربي. ومحمدا اليزيدي . وأحمد بالافريج مؤسس المدرسة الوحدة بالمغرب . وعمر بن عبد الجليل . والعلامة محمدا الغازي . وأستاذنا الكبير النفاعة سيدي المدني بن الحسني . والشيخ المصلح الجاهر بالحق سيدي محمد بن العربي العلوي . والعلامة المفيد لي

كثيرا سيدى محمدا السائح . وعبد الهادى مكوار . ومحمدا الباعمراني . والتهامي المعروفي . وعشرات فعشرات ممن لهم معي صلة ود . وصداقة متينة . فما أعظم الرزية علىّ والله بفراقهم . وفراق مراسلاتهم ومواصلتهم منذ يوم ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٥ هـ

ان بين حنايا صدرى لقلبا فيه احساس يفوق كل احساس . وشعور حي قلما يماثله شعور . فكان وفاؤه لكل من لـه بـه اتصال بوداد . وفاء عظيما قلما يماثله وفاء . وما حياة الانسان الاّ مواصلة أودائه . فان انطوت انطوت معها حياته التي تستحق أن تسمى حياة . ثم لايبقى الاّ أيام وليال كالعظام المعرقة التى تتاكل وينخرها السوس .

كنت لكل الطبقات . وكان لى من كل الطبقات . فكـان قلبى دائمـا كالنحلة التى تستفيد من كل زهرة . ولا تنسيها الثانية ما امتصته مـن الاولى . فحاولت أن أقـوم للجميـع بشكرى . ولكنهم حياهم الله وبياهم يعفوننى دائما من كل مجازاة . حتى شكر اللسان . غير أن القلب الذى لايطلع عليه الاّ مكونه . يقوم دائما بما عليه من الشكر الجزيل . علـى مـا طبع عليه من عرفان الجميل (هل جزاء الاحسان الاّ الاحسان)

قد انقطعت عنى أخبار كل من ينتمي الىّ بعد أن اقفل الباب دوني . فلا أدرى أفيهم من ارتد فى الحافرة . ونقض العهد . ورءاني غائبا فابرز ما لعله كان مطويا فى قلبه . ولكنى احمد الله على هذا الانقطاع لألقى أصحابى غدا ان شاء الله بالوجه الذى فارقتهم به يوم ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٥ هـ على أن ذلك ما هو الاّ فرض وتقدير . والاّ فلا أظن بكل اخوانى الاّ ثباتا على العهد . وقياما بحقوق الود .

وليس أخي مـن ودني بلسانـه	ولكنه من ودني وهو غائب
ومن ماله مالى اذا كنت معدمـا	ومالى له ان اعوزته النوائب

أى قلب رقيق كقلبى يتذكر هـؤلاء الاخوان الاجلاّ الاعزاء . ويرى من دونهم أبوابا من حديد . ثم لايرسل صرخة تشق عنان السماء . وتزعزع كل الارجاّ . فانى اتجلد ما أتجلد حتى أنظرنى وحدى . واتذكر من كانوا سر حياتي . وانس مجلسى . ونظر عينى . فاطفر طفرة الملدوغ . واصرخ تبا لك يا يوم ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٥ . فلولاك ما شقيت هذا الشقاء . ولابقي اخوانى هناك . وانا هنا منبوذا فى العراء .

مضت السنة الثانية عن يوم الفراق . لاعـاد ذلك اليوم الاّ بسلامة وعافية وتلاق . وفى القلب جـذوته لاتزال فـى اشتدادها . وفى النفس عطشها . لايفتأ يزداد بازدياد أيام الفراق . أفمثلى ويحك من ينتظر منه

السلو . ويرجى منه الاقلاع عن بكائه الصارخ ؟ لا والله . لا أزال هكذا الى ان يكفر الدهر عن هذا اليوم المنحوس بيوم آخر سعيد ينسى يوم ٢٨ ذي الحجة ١٣٥٥ هـ .

٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٥ هـ

الذكرى الثالثة ليوم النفي

٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٨ هـ

في مثل هذا الصباح من يوم ٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٥ هـ . والجو مثل هذا صاح . والنهار مثل هذا النهار مشرق وضاء . واليوم نظير هذا اليوم طلق. حملتني سيارة الحكومة من (الحمراء) الى طريق (الغ) التى لا ازال أثوى فيها منعزلا عن العالم ممنوعا من كل شيء . مسدودا بابى دون أى زائر . الا قليلين اتصل بهم اتصالا ما من زوار (الزاوية)

انقضى عن ذلك النهار أزيد من الف يوم . ولايزال ما بين جنبى ملتاعا بذكريات من خلفتهم ورائي . ولعلهم لايزالون كذلك يلتاعون كلما ذكروا أخا لهم مظلوما . لعبت به الاقدار . وجالت حوله نوائب الدهر . جولان العواصف بريشة متطايرة فى الجواء الفيح .

تغير العالم كله فى هذه السنوات الثلاث تغيرا محسوسا من كل ناحية سياسة واقتصادا وغلاء مفرطا . وما فى قلبى لأولئك الاخوان المراكشيين لايزال كما هو مضطرم اللهيب فى جوانحى . فكأن ما بين جنبى كلما ذكرتهم أتون مسجور بالغضا يرمى بشرر .

استيقظ فأحاول مغالطة للحقائق . ان انظر الى ما يجرى حولى ويدور بى من همزات الدهر . كأنه نعمة عليّ . ومنجاة لى مما هو أدهى وأمر . فأحمل نفسى حملا على أن ترتاح وتستسلم ليد القضاء . وان لاتتهم القدر فيما تدور به دوالبه . فيتسرب الىّ أحيانا ان أطلت التفكير فى ذلك على هذا المنوال . روح الراحة . واطمئنان السكينة . ولكن لااكاد يفلت من يدى هذا النوع من التفكير . حتى يجيش منى جائش يغرقنى فى حقيقة مرة ممضة وخزة أشد الوخز . فأتمثل ما أنا فيه من الزام انزواء فى قعر بيت فى بادية مقفرة . لاتمت الى الحياة المدنية بنسب . ولا يتصل من فيها من

أشباه الاحياء الى العالم بسبب . فلا أنيس حولى . ولا كتاب جديد استمتع به . ولا مراسلة تحدثنى عمن تركتهم ورائى . فانتفض انتفاضة المباغت بسهم أقصد جانبه فاقول : ويل من دهر يعركنى عركات شديدة ملحة غاية الالحاح . حتى لا أجد متنفسا . ولا استمع الى حديث منعش . ثم اذا ساورنى الوسن . اتمثل انى بين اخوانى . كانما فرج الدهر للكربة . وتقدم اليّ بتوبة . فاعانق أبنائى واخوانى وأصحابى معانقة من كان يعرف ما لذلك العناق من لذة متناهية فى الاستلذاذ بما كان حرمه من قبل . ولا يقدر قدر الماء العذب السلسل السلسبيل الاّ من كان جهده عطش شديد فى مهمه قفر أفيح اياما . تحت هاجرة الصيف . وبين هبات السموم .

فى هذه الليلة الماضية . ولا أحدث عن غيرها من الليالى التى كادت تتسلسل طوال هذه السنوات . رايتنى فى (الرميلة) وقد استدار بى أصحابى كاننى رجعت اليهم . فيتهافتون عليّ . وانا اتلقاهم بقلب يرفرف حبورا وابتهاجا . فأشاهد من اخوانى جماعة كثيرة أعاينهم ببصرى واواجههم بوجهى . حتى اننى أسال عن فلان لماذا تاخر . فمضت لنا ليلة مزهرة

أمانى من سعدى حسان كانما سقتنا بها سعدى على ظما بردا
منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى والاّ فقد عشنا بها زمنا رغدا

الذكرى الرابعة ليوم النفي

٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٩ هـ

دار الزمان دورات متعددة . منذ ذلك اليوم التاريخى فى حياتى : يوم ٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٥ هـ فقد تقلب فى العالم كل شيء . سقطت عروش . واحتلت عواصم . وذابت أمم . وفارت براكين . وزلزلت كل أطراف العالم أفيمكن ان تبقى نفسى أنا ـ بعد أربع سنوات ـ لم يتخلل جوانبها أدنى تغير ؟

نعم انقلبت كل أطراف العالم . وزعزعت دعائمه . لكنني وان لم اتلق هذه الذكرى الرابعة بتلك الدمعات الحارة . وتلك النفس المرمضة . وتلك التأوهات المحرقة . التي كنت اتلقى بها ما تقدم من تلك الذكريات لا ازال - والحق يقال - رغم ما يتراءى من أنني كدت 'الف سكنى (الغ) احس بقلب يطير شعاعا كلما تذكرت أن في مثل هذا اليوم . حيل بيني وبين اخوان كانوا - وحدهم - زينة حياتي . وانوار طلعتي . ومعاوني في ميادين العمل الذي حبست عليه نفسي حبسا . وان في مثل هذا اليوم انفصمت العروة الوثقى التي كانت بيني وبين عملي الذي كنت اقدمه لربي واؤدي به ما عليّ من الواجب نحو شعبي . واي حبور بل اي ابتهاج يمكن أن يجده من كان يالف العمل . ثم حيل بينه وبين ذلك العمل . فبقي افرغ من حجام ساباط ؟

لا أكذب ، وما من شيمتي أن أكذب . فانني لا ازال على العزيمة التي كنت عليها يوم ٢٨ ذي الحجة من سنة ١٣٥٥ هـ ، فان ازداد مني شيء او نقص مني شيء ، فانما ازدادت مني صلابة في العزيمة لعمل كل ما يئول على أمتي بخير . ونقص مني ما كان ينقص من الكهول الذين حنكتهم التجارب من هويني ربما تعتري الشبيبة الرخوة . فصرت اليوم وأنا كهل ذا عزم فولاذي لا يقاوم . وما حركة اليراع الدائمة الى الآن في هذه الخلوة ، الا مثال حي للعمل الذي نويت ان املأ به حياتي ، على حسب ما استطعت . وعلى القدر الذي أمكن لي .

أنبعث الآن مني بسبب هـذه الذكرى الاليمة ما ينبعث من الزند المقدوح . فلا تلبث الشرارة ان وجدت مسرحا لها أن تستحيل شعلة وهاجة لا تبقي ولا تذر . فقد تذكرت اخواني - وان كنت لم انسهم قط - وكدت أصيح الآن وانا وحدي : واشوقاه الى (الحمراء) واحر قلباه مما أحس به من شوق لافح الى رؤيتهم ولو مرة أخرى في العمر ، فان كل واحد يعيش لأمل . والامل الذي أعيش له ، هو أن يجتمع بيننا ذلك الشمل من جديد . وتؤدى المعانقة والمصافحة والتساؤل عن كنه جميع الاحوال حقها بيننا . فمتى ذلك ياربياه ؟ فقد ذاب الفؤاد كمدا ، واشتعل الصدر لظى . فانني كثيرا ما أملأ فمي بذكر أسماء كل واحد من أصحابي ، فارسل وحدي صيحة صاخة بذكرهم تلذذا واغتباطا . واطفاء لبعض جمرات الغضى تتأجج في الاضلاع :

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس بالليل خاليا

لى الله من غريب كان عرف ما هى الحياة . وما هى لذة الاجتماع . وكيف تكون المتعة بالاخوان صفاء وداد . ونقاوة سرائر . ومباحثة فى العلم . والتحاما أمام عوادى الدهر . حتى اذا تمكنت منى تلك الروح واستولت على زمامى . قلب لى ذلك الدهر نفسه مجنه بغتة . فاذا أنا فرد كئيب وحد لامؤنس ولا مصافى . ولا مواد ولا مباحث . فاية داهية يصاب بها ابن آدم فى هذه الحياة أشد مما انا فيه . وهل كان جدنا آدم عليه السلام وقع الا فى مثل هذا . يوم نفذ فيه القضاء فاخرج من الجنة الى الارض ثم لايجد فيها حتى ما يخيل له ما كان يعرفه فى حياته الاولى . ولا يعرف قدر النعمة الا من سلبها .

أوليس بعجب ان يكون هناك اخوان كانوا لى وكنت لهم مضرب الامثال فى اخلاص الوداد . وامتزاج القلوب . واتحاد الوجهة . ثم لما ضرب الدهر ضربته فجاة . حرمت من أى اتصال بهم الى الآن . حتى انني لم يكن عندى الخبر الحقيقى الجلى عن زعمائنا الكبار . ما فعل الله بهم . وعن الاخوان المراكشيين بعدما نكبوا به . فى (ردانة) ولو وجدوا أو وجدت طريقا للمراسلة . لما وقفت البُرد ساعة بيننا . وما أقوله عن هؤلاء أقوله عن تلاميذى النجباء الذين لعب بهم الدهر بعدى لعبه بى . وأعظم ما فعله بنا ان سد الباب وأجافه اجافة بيننا . فكأن بعضنا فى خط الاستواء . والبعض الآخر فى أحد قطبى هذه الكرة الارضية .

كان السعد فتح لى فى أول الامر مراسلة مع ابن العم ابرهيم بن أحمد . ثم لم ينشب ان ازور عن الفتح . فهاتان سنتان لم أتلق منه خطابا كما انه وصل الاسلاك بينى وبين الشاعر البونعمانى. فكانت روح مراسلاته تقوينى . بل تكهربنى وترسل فى نشاطا الى التاليف . غير انه أيضا أعرض مع المعرضين منذ سنة . فلم يبق وراء (الاطلس) ممن أرى منه كلمة أو كلمتين الا بعض المخلصين المثابرين على مراسلتى بقرطاسهم وأكياسهم . وتلك منة لهم علىّ لن أنساها لهم ما جرت الدماء فى عروقى .

حقا لولا الزوار الذين يردون علىّ فى الزاوية . فأجالس منهم من أريد . واستفيد منهم ما يمكن ان يستفاد من أمثالهم . لبقيت ازاء العالم فى جهل مركب . وفى ديجور شديد الظلمة . ولكن الحمد لله الذى لاتزال رحمته تطيف بعبده حتى فى أشد أطوار نكبته الداهية .

قامت الحرب . وقد ذكرت فى مقالة كتبتها ـ ستاتى كيف تاثيرها فى قلبى . فيسر الله جريدة « السعادة » تصلنا بانتظام . فكنت أطل بواسطتها على العالم . فكنت أفرح بها أشد الفرح . فاقول فيما بينى وبين نفسى :

ان الدهر أبو العجائب . فقد كنا يوم كنا . لانلتفت الى هـذه الجريـدة الاستعمارية . بل ولا نعدها بين الصحف . ولا نرى لها اية مكانة . لأنها لسان حال الاحتلال الذى نكيده ويكيدنا . ثم طال بنا العمر حتى كانت عندنا « السعادة » صحيفة راقية نتخذها كمرآة للعالم . ننتظرها بفراغ صبر . فنهش لها يوم تحل بأيدينا . وكذلك الفاقة ترد الدانق دينارا . والخبز المكرج منا وسلوى . ولكن كما يقول المثل : (كل الحذاء يحتـذى الحافى الوقع) (١) .

يتموج العالم الآن . وتتدفق انهار الجرائد والمجلات بكل ممتع . غير اننا بكل اسف نحرم من كل ذلك . فترانا ان «انسنا مـن « السعادة » بصيصا نبنى عليه ما نبنى مما لعلنا نصدق فى الاستنتاج منه . او نكون فيه من الضالين . وهل يمنى أحرار هـذا العصر أبنـاء القرن العشرين بأفظع من هذا لاسيما عند النفوس الأبية التى تالف الخوض فى مستلذات القلب والسمع والبصر ؟ فلا اخبار اخواننا الاخصاء نجد . ولا انباً مـن يعيشون فوق هذه المسكونة كما نعيش نستروح . فكأننا صوفيـة حقا هربوا من العالم الى خلوات فى منتبذات عن العالم . ليصفو لهم الوقت ويتم لهم الاشتغال بتصفية النفوس . مع اننا من هؤلاء بمكان المشرق من المغرب . فلم نرزق هممهـم ولا زهدهم . ولا استئناسهم بالخلوات فـى المنتبـذات .

اننا من هذا اليوم سنفتح باب العام الخامس . فليت شعرى كيف يطل علينا أيضا بدوره وكيف يظلنا طوال شهـوره ؟ وكيف يختتم عنـا منصرمه ؟ أنكون فيه كما كنا فى هذه السنوات الأربع ذوى سكون مخيم فى الظاهر . واندلاع لهيب متلظ فى الباطن . وانا بينهما بين المد والجزر وبين الحزن والبشر . وبين الشكر ان نظرت الى نعم الله تتهاطل علىّ تترى من كل جهة . وبين التلوى على حسك السعدان ان غلبت علىّ ذكرى اخوانى وأولادى فى الحواضر . فاطفر ما أطفر . ثم اغلب على حالى فأتكلف الصبر حتى يسود علىّ فاقول :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه   يكـون وراءه فرج قـريب

أرسل من منفاى هذا الى كل الذين أصيبوا بمثل مصيبتى تحية حارة معطرة تملأ الجو طيبا . وتصل ما بين القلوب المتعارفـة . فتـدق خفقاتها دقات الاخاء الصافى الدائم الذى لايعتوره كدر . ولا يحوم حوله رنـق .

---

١) الوقع من وقع كفرح : اذا اشتكى لحم قدمه من غلظ الأرض والحجارة ومعنى المثل : ان المجهود يقنع بأدنى بلغة .

فسلاما على الاخوان بـ (الحمراء) و (الرباط) و (سلا) و «مكناس» و (فاس) و (البيضاء) و (الجديدة) و « أسفى » و «أبزو» و «دكالة» وكل أنحاء المغرب . فان يعوزنى اليوم بريد يبلغ سلامى الى جميعهم فلن أعدم غدا أحدهم يقرأ هذا فيقول : حقا ان هذا الاخ الالفى لاينسى اخوانه وان كان ما كان . ولايحمله النأى على أن يستبدل بهم «اخرين . اذ (طالما غير النأى المحبين) كما يقول ابن زيدون .

قد يكون من بعض أناس ممن كنت أخالهم من ينسون خلتى . ومن يقول بينه وبين نفسه . انما كنا نداريه ببشاشة المحيا . وذلاقة اللسان . ومبادلة الزيارة . حين كان الدهر لا يزال فى جانبه . واما اليوم وقد تنكر له . وتنكبته السعادة . فاننا منه براء . قد يكون من أولئك من يقول مثل هذا . اما بلسان المقال أو لسان الحال . وقد يكاد وسواس نفسى يضع لى من هؤلاء أمام عينى الآن أفرادا معدودين قليلين . غير أنى اصدف بكل أنفة عن هذه الوسوسة وأقول بملء فى :

يفى الذى يشاء من اخوتى ومن يشاء فليخس فى الاخا
أما أنا فشيمتى دائما أن لا أخيس شدة أو رخا

ظهر ٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٨ هـ

حادث جديد

١٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٦ هـ

كنا نسمع من قريب ان المراقب (باريوس) الذى وجدته امامى فى مركز دائرتنا (تافراوت) سيستبدل بآخر . فصح أن الخبر مرتكز على الحقيقة . فحملت لذلك هما خوف ان يأتى من لا أجد فيه هذه الاخلاق التى وجدتها فى هذا الانسان . وان لم يتجاوز الحال ما يقال فى المثل العربى: (ليس فى القنافذ أملس) فانه ما مسنى قط بأذنى كلمة جارحة . بل يحافظ دائما على المشاعر والعواطف منى بكل ما فى وسعه . فسواء كان ذلك منه دهاء أو كان خلقا جبليا . أو ذلك لعدم سبب يوعز اليه به نحوى فيتنمر . وكيفما كان ؛ فانى حمدته . لانه لو شاء غير ذلك لما عدم سببا . وأذكر انه سألنى مرة عن الخليفة البياز بـ (مراكش) فلم أقع فيه بين يديه .

ولاسمته بنقص . لأننى كنت تمشيت على هذه الطريقة منذ الخطوة الاولى فى النفى . فكنت أقول اننى ما سمعت بأذنى من احد كلمة ولا فعل بى مافعل الا الحكومة . حتى أمرت أن أركب السيارة صبيحة ٢٨-١٢-١٣٥٥ هـ ولى فى ذلك الاتجاه مقاصد حمدت مغبتها فيما بعد . سألنى مسيو (باريوس) عن البياز . فاجبته على تلك الطريقة . فالتفت الى الأخ فقال له : ان سيدى المختار - وبهذا كان يدعونى - كلما سألته عن انسان يأبى الا أن يوجز فى الجواب . وان لايذكره الا بخير . يقول ذلك مع تبسم . ولكن مع ظهور بعض تأثر من جوابى . فقلت له : انى لا أقول الا ما أتحقق . وان دينى ومروءتى يمنعانى من الوقوع فى الناس برجم الظنون .

زار الأخ محمد مركز (تافراوت) هذا اليوم . فرجع ممتقع اللون . فقال لى : ان المراقب الجديد قد جاء . وقد قضى الأمر . وهو مسيو (فلورى) ويعرفه الناس بالقبطان الرقيق . وقد كان مستخدما منذ سنوات فى مركز (ايغرم) وهناك تعرف بأفراد من أسرتنا فى الأيام التى تهيؤ فيها الحملة للاحتلال النهائى فى هذا الجبل . فيذكر بصلابة وشدة . ثم انه استخدم فى بعض الوظائف بـ (مراكش) وها هو ذا قد جاء . وقد بدا لنا منه تنمر ووعيد . وقطوب جبين . وقد سألنى عنك بامعان وفحص وهو يهز رأسه . ويقلب عينيه . ويضم جميع كفه . مما يدل على أن فى رأسه ما فيه .

أخبرنى بذلك . فأحسست بأن هذا الرجل حين جاء من (مراكش) انه بلاشك سيأتى بالفكر الذى تزعمه الاستعلامات هناك . وسيزيد ما ربما يحوك فى نفسه شخصيا مما لاتنعدم اسبابه فى الاوساط التى يعيشها فى (الحمراء) فقلت اذن ندخل فى حالة جديدة مع هذا الانسان الجديد . فوقع لى مع مسيو (باريوس) الذى ربما كنت اتوجس منه شيئا . ما قاله بعضهم فى سلم :

عتبت على سلم فلما فقدته وجربت أقواما بكيت على سلم

فقلت فى نفسى : أبهذا تقابلنى سنة ١٣٥٧ هـ الجديدة . بعد ما قابلتنى سنة ١٣٥٦ هـ بما قابلتنى به ؟ ففوضت الأمر الى الله . فاقبلت على الامعان فى الكتابة لعلنى أتناسى بسببها ما يخامرنى من وسوسة هذا الذى أنا فى انتظاره - والعادة عندى أننى أجد فى الاكباب على الكتابة راحة نفسية . كأنما ينتقل ما فى صدرى الى المكتوب . والشغل كيفما كان الهية عن التفكير والوسوسة - وقد قال الأخ : قال لى المراقب الجديد سيأتى حتى أرى فلانا . فزفرت هذه الزفرة التى تكتب على علاتها :

كل عـام هم يطل جديد ‏ ‏ أممـض فمنهـك فمديـد
ربي انى اسلمت وجهى لما تكـ ‏ ‏ ـتبه يـا مهيمن يـا مريـد
رب رحماك انني لست الا ‏ ‏ عبدك المستجير ممن يكيـد
فذنوبي شتى ولكن رحمـا ‏ ‏ تك ايضا شتى عليها تزيـد
بك يا رب استجير ومن غيـ ‏ ‏ ـرك يا ربنا يرجى العبيد ؟
ضريت بي الأرزاء من بعد ان سا ‏ ‏ لمتني اعصرا فليست ترود
فهي هاذى ينشبن في الأظافيـ ‏ ‏ ـر كما يرتمي على الشاء سيد(١)
كل يـوم ينحو الى منـ الأر ‏ ‏ زاء رزء من الزمان جديد
لم اكد استريح من صنوه حتـ ‏ ‏ ـى ينادى منـه الى فديد (٢)
ثـم ينقض كالأجادل او كالـ ‏ ‏ ـأسد ان تحنق الغضاب الأسود
قلمى الق لى بربك ما استطعـ ‏ ‏ ـت من الأنس انني مهدود
انني قانع بكل الذى تـو ‏ ‏ تيه قرضا لو انه جلمود
حال دون القريض هذا الجريض الـ ‏ ‏ ـمهلك المقلق الممض المبيد (٣)
فلترد ما يكون منه اذا ما ‏ ‏ فاتنا ان يكون ما قد نريد
(فاعلاتن مستفعلـن فاعلاتن) ‏ ‏ كيف تجـدى من استفز الوعيد
اه اني غلبت مما ارى حتـ ‏ ‏ ـى هذى مقولى بما لا يفيـد

يوم عبوس قمطرير

٢٣ ـ ١٢ ـ ١٣٥٦ هـ

يا لله ولهذه الرزايا التى تتساقط على من لهم ذرة من الشعور . وتتهاوى على هاماتهم تترى . تهاوى نجوم الرجم في الجو . أفانا وحدى من يظلمه دهره . ويكر عليه دائما برزئه الحالق الذى لايقادر من اطلال التبصر من متـر دم . من غير جرم أعرفني اجرمته . أم ينقض هذا على رأس كل من له نفحة من الشعور . ولفتة الى حياة الضمير التى ينشدها كل من عرفوا لماذا خلقت هذه الحياة . وخلق لهم من بين عظام الصدور ما يسمى بالقلوب أهذا جزاء كل وطنى يغار على وطنه ودينه وشعبه وان لم يكن الا جنديا صغيرا بين الوطنيين . مثل ما أعد نفسى دائما .

١) السيد : الذيب .
٢) الفـديد : الصوت العالى .
٣) (حال الجريض دون القريض) مثـل عربى مشهور . والجريض : الريـق الذى يغص به الانسان .

فى مثل هذا الشهر من السنة الماضية انقضت على رأسى بالنفى صاعقة عظيمة قلبتنى رأسا على عقب . وردت أعمالى كلها هباء منثورا . وغادرت جميع أمنياتى فى ملاحس ابقر أولادها . وها هى ذى صاعقة أخرى تنقض علىَّ ثانيا فى الشهر نفسه . كأنما كان هذا الشهر لى شهر نحس فى أطوار حياتى كلها . على أن وطأة تلك الصاعقة المتقدمة قد خفت علىَّ بمشاركة اخوان لى فيها . والمصيبة اذا عمت هانت . وأما صاعقة هذه السنة فانى مرغم على أن أتلقى صدمتها وحدى . وان أتجرع علقمها منفردا كئيبا

انى فى طوال هذه السنة التى قضيتها فى (الغ) حيث لا أنيس ولا جليس . أتعلل بما اجمعه من مواد تاريخية . من مساءلة من تمكن لى مساءلتهم من بعض أفراد انتقيهم من بين هذه الجموع المائجة التى قال دعبل فى مثلها . ويا ما أصدقه :

ما أكثر الناس لابل مـا أقلهم — والله يعلم انى لم أقل فندا
انى لأفتـح عينى حين افتحهـا — على كثير ولكن لا أرى أحدا

فما لهذا الزمن القاسى يحاول اليوم أن يحول بينى وبين هذا الذى أتعلل به على ماهو عليه . أفلأيسره الا أن أكون فارغا ميت الشعور . مرموس الامانى فاقدا للمادة التى بها أحيا . وبها تجرى الدماء فى شراييني . كأنما هو وكيل لبعض الحاسدين وما يحسدون منى الا هذه الروح الحية التى منحنيها الله من فضله . فأتحرك بها واحرك بسببها من معى . على حين ان أولئك الحسدة محرومون منها فصاروا من الموتى . وان كانوا يمشون على الثرى .

آه من صدمات هذا الدهر . وألف (آ ا ه) من هذه النزوات التى ينزوها هذا القلب الحى الشاعر الطافح . الذى أحس به ينتزى بين جنبى فيكون أعظم هيجانا . وأجيش أمواجا . وأصلب وأقسى ارادة . وأقـوى عزيمة . يوم يمسه رزء من الارزاء . فكأن الارزاء مبعث قواه . فلا يكاد يحس بها حتى يتفجر كالينبوع المنبثق . بعد أن ينفذ فيما كان سداد منبعه حتى انه بقدر الارزاء تعظم حياته . وتتعاظم آماله . فابقى أنا أيها المختار المسكين بين نزوات أرزاء . ونزوات هذا الضمير الطموح الطلعة . كما تبقى الحبة بين حجرى مطحنة يديرها قوى العضلات . أو قوة آلة كهربائيـة .

أوعز من فـى (تافراوت) انهم سيبكرون الى (الـغ) وأوعز باجتماع أعيان القبيلة . ليتعرف بهم الرئيس الجديد . فأرسل الىَّ الاخ فقال : إن الاولى بك أن تحضر مستقبلا مع المستقبلين . لأننـى مـا كنت أحضر حتى يرسل الىَّ من يريدنى . ويريد الاخ بحضورى تخفيف ما يحس به يغلى

علىّ في صدر الرئيس . فخرجت فوقفت حَجْرة (١) في منعزل عن الناس فنزل الاتون ازائي . فمر المراقب الجديد من غير أن يعيرني لحظة . مع انه يعرفني . لأنه كان جاء منذ يومين بأولاده في سيارة . فاضل الطريق الى (تافراوت) فتمشى حتى وقف ازاء دارنا بلا شعور منه . فوجدني واقفا ازاء مدفن الشيخ الوالد . فاريته الطريق . فرجع من غير أن ينزل . ولابد ان يعلم ممن يراه بلبسة حضرية . والمنظار على عينيه . وكلامه يلقى بعض انفة الى كل الصفات التي يالفها من سكان هذه النواحي . ان المتلبس بها غريب عن هذه البلاد . ومن هو الغريب في هذه البادية القاحلة المكفهرة . ممن عليه اثارة من حضارة . غير المختار المسكين الذى تكاثفت ضده رزايا الدهر حتى استحالت الى كرات كالقنابر (٢) فصارت تتوالى عليه واحدة اثر واحدة . وبذلك عرفت أن المراقب الجديد يعرفني عينا . وانه ما مر ازائي وهو يوليني جنبه وظهره عن عمد . الا كبراعة الاستهلال لما ساقرؤه بعد من القيصدة التي سيلقيها علىّ . مع ان رفيقه المسيو(باربوس) والفسيان(فلان) مدا الىّ ايديهما وصافحاني . ثم اتبعا المراقب الجديد . متوجهين الى حيث موقف الناس المصطفين سماطين على جانبي الطريق . فلم أدر أأتبعهم حتى لأبقى وحدى . فيكون ذلك أكثر تأثيرا لهذا الانسان الذى تراءى لي منه ما تراءى . ام اقف منتبذا حيث كنت . وقد كان الاخ امرني ان اقف بعيدا . لئلا انزج في غمار الناس . فمرت لحظة كنت فيها مرتبكا . ثم فعلت فعل من لايبالي . فسرت خطوات حتى قاربت الناس . كانني أتفرج فقط . وأنا أتصنع التجلد الذى يذكره ابو ذؤيب في قوله :

وتجلدى للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع

فبعد لحظة وقد اجال المراقب الجديد وأصحابه عيونهم في الواقفين المصطفين رجعوا الى البيت الذى كان معدا لنزولهم . فأويت انا الى السقيفة الممتدة حول ضريح الوالد . وهناك الآنية الترابية والطعامية . وفي يدى كتاب فتحته متلهيا بورقاته . وانا اقول له : لئن مد الله في العمر . لأشيدن ولأرفعن عقيرتي بأن التعارف بالكتب ومصادقتها افضل ما يعتمد عليه

---

١) وقف حجرة بفتح الحاء وسكون الجيم : منعزلا عن الواقفين .

٢) تصحيح لكلمة القنابل المشهورة . وقد قال الامير شكيب أرسلان في حواشي (مباذل أناتوس فرانس) : أخال الكلمة مصحفة عن القنابر . ثم اني وجدت في كلام الزياني . وصاحب الاستقصاء والشرقاوي في تاريخ (مصر) استعمال الكلمة كما قال شكيب (وقد صار بعض الكتاب يتنبهون أخيرا . فيكتبونها بالراء) وأما القنابل باللام فجماعة من الخيل .

القارئون في أثناء الرزايا . وفي المبتعدات عن العالم المألوف . فان لم يكن منها الا أنها لاترى منها اشمئزازا في امض ساعة كنت فيها متململا بمـــا يدهمك . كما كنت أنا في هذه الساعة . لكفى وشفى . فان الناس كلهم وهم عشرات يتموجون حوالى . ولكنهم جميعـا لايمتون الىّ ولا أمت اليهم . وهم في واد لما كان يلابسهم من العظمـة التى يشعرون بهـا لمن يرونهم أمامهم الآن من طواغيت الاستعمار . على أننى يلابسنى ما يلابس من القته الاقدار في أيدى من يقاومهم ويقاومونه . فهـو يستخذى للاقـدار ظاهرا . ولكنه في باطنه يحس بانه كالاسد الذى قدر عليه أن يجعل في قفص يدور حوله من كان الاسد . لو كان حرا طليقا لايعير لجهتـه حتى نظرة الشزر . فشتان مابينى أنا الآن . وبين هؤلاء الناس المتموجين . ولو تكشفت السرائر لكنا ما بين مشرق ومغرب . هذا كله ولا أجد ازائى من اعرفه ويعرفنى غير كتابى . ابقى الله لى كتابى هذا الذى أضمه الى صدرى ضمة فيها كل مـا يكنه له قلبى وعاطفتى .

بعد سويعة جاء الاخ عبد الحميد ـ وهو القيم للاخ الأكبر على شؤونه . ولايدرك كثيرا مما يدور حولى ـ فنادى الخدم ليقدموا الطعام . فنادانى ان قم يا سيدى الأخ . فان الطعام سيقدم . وقد كانت العادة قبل اليوم انه متى حضر أحد الأجانب خصوصا مراقب (نافراوت) ان استدعى للمشاركة في الطعام دائما وبذلك حصل لى الاستيناس مع مسيو (باريوس) الذى سيغادرنا مأسوفا عليه . فتمشى الاخ محمد على تلك العادة . فامر أخاه عبد الحميـد بمناداتى . فذهبت وانا ابدى أننى فارغ البال . لا يلابسنى شئ من جديد فدخلت البيت . فوجدت المراقب الجديد شبه مستلق على ظهره . فبقى على حاله . فمددت اليه يدى . فأومأ بيده مسرعا حتى مس بها راحتى مـا هو الخطف عينه . فجلست فاذا المراقب القديم (باريوس) قام فاسر الى أخـى محمد شيئا . فقال لى الأخ هيا بنا حتى تستدعى بعد ساعة . فعلمت أنـه أسر اليه أن انعزل حتى استدعى. فخرجت مبتسما . وأنا أعرف أن المقصود هو اهانتى . فقلت في نفسى قول المتنبى : (انا الغريق فما خوفى من البلل) ثم أويت ثانيا الى تلك السقيفة . التى جلست فيها قبل الساعة . ويعلم الله كم تاثرت . وقد احسست بأنفة هائلة تغشى عينى بما تغشيها به . والحق أقول . ان قلت انها أول اهانة عظيمة نالتنى بعد نفيى . بل هى أول اهانة أصلانيها أجنبى في حياتى . والذى زادها مضضا وشدة ألم . أننى أرغم على تجرعها وحدى منفيا غريبا . حيث لا أجد ازائى صديقا اشتكى اليه ما يخامرنى من أمثال تلك الأهـوال . فكنت أشعر باتون تندلع منه نيران

الغيظ والحنق والانفة . شعورا أكاد معه لا استوى جالسا . فصار الناس يطعمون . وقد حضر من رؤساء (الغ) الشيخ ابرهيم الوفقاوى . والشيخ على الايغشانى . وانا هنالك فيما أنا فيه . ويا ما أعظم ما يتقلب عليه قلبى من جمر الغضا أو حسك السعدان . فجرى على لسانى ان قلت . وقد جاش صدري وفارت قدري . فانتهت الى هذه القولة التى ارتجلتها فى الساعة :

كل شيء يطاق الا الاهانة ... أى حر يرضى بمن قد أهانه
طعنة فى الفؤاد تقضى على الحـ ... ـر لديه خير من اى اهانة
أجماد أنا ؟ والا فما لى ... لم أثر حانقا يجيل عنانه
أتقضى عمرى كذا وأنا تحـ ... ـت ثقيل يلقى على جرانه
أتضيق الارض الفسيحة بى ما ... بين (فرغانة) الى ارض (غانة)
فالانوف العزوف ان ضيم خوا ... ض الوغى ناضيا اليها سنانه
أو مول جبينه لسموم الـ ... ـفيح نايا عمن يريه المهانة
فالردى فى الموماء أولى من الهو ... ن ومن غمزة تزيل الصيانة
أى يوم هذا فهل عاد أيضا ... ذلك اليوم يوم ضيم (ردانة) ١
غير أنى طود رسا فلينل منـ ... ـه ؛ ان اسطاع ؛ من يهد كيانه

فبقيت هكذا والقوافى طالعا نازلا . فهيأ الله من ربة الشعر أن بردت من كبدى الحرى بعض ما يتلظى فى جوانبها . وتلك عادة الشعر معى . فمتى جلت فيه وانا فى كرب . فلابد أن أتنسم من لدنه روحا وريحانا . ثم طاف بى شعور آخر . الا تحمد الله حين جعلك فى هذا المركز . والحفك بهذا الشعور . وكتب لك فى الأزل أن تكون ممن وصفوا بما وصفوا به من الغيرة على دينك وشعبك ووطنك . أجيل بصرى فى كل الذين يتموجون حولى . فاراهم اشباحا جهلاء اغمارا . لو سيم أحدهم بما سامنى به الدهر لاستلقى على الاقدام مقبلا . ولظل وبات فى الاسترحامات والتخشعات . وتمريغ الجبين بين يدى مؤنبيه ومهينيه . مهطعا خانعا . فارجع الى فاجدنى مستمسكا لايمكن أن أتنازل الى ذلك . وان كان ما كان . فكان ذلك لى مصدرا آخر لراحة أخرى زادتنى برودة فى فؤادى الذى كان يلتهب منذ ساعة . هكذا تراجعت شيئا فشيئا . فيمكن لى أن املك زمام نفسى . وان لا أنزل بنفسى الى حيث انزلتها الرزايا والكوارث . وان لا اضع قدرى الا حيث يضعنى فيه من يعتبروننى رجلا غير عادى . ذا مقدرة وشعور . وذكاء وفطنة - وان لم اكن حقيقة الا رجلا عاديا - ولكن قدر الانسان الحقيقى لايقتبسه الناس الا من المناوئين . فكم جبان شاع عنه بلسان مناوئيه انه

١) اعنى يوم نفيى الى (ردانة) .

شجاع . فكان شجاعا عند الناس . وكم ضعيف المقدرة انتشر عنه بأحاديث مكايديه انه عظيم المقدرة داهية . فكان عند الناس عظيم المقدرة والداهية . فها انذا أعرف من نفسي ما أعرف . ويعرف مني أصحابي ومن يخالطونني ما يعرفون . ولكن الاستعلامات الاستعمارية . أبت الا أن أكون رجلا خطيرا عظيم المقدرة شجاعا . فلاكن اذن خطيرا . عظيم المقدرة شجاعا . وكم رجل رأيناه كان يشترى هذه الاوصاف بملايين لوكانت تباع فيسوق المجوهرات افازدها انا وقد جاءتني عفوا . فلأتمل بها ولو قليلا متى كنت بين يدى مثل هذا المراقب الجديد الذى يستمد ما يعرفه عنى من الاستعلامات . فاقف بين يديه وانا رجل خطير داهية . ظاهرى غير باطنى . فيجدنى ملء عينيه ، وملء صدره . ولا أدل على ذلك فى عرف السياسيين من أمثال هذه الاهانات لأن أنظار السياسيين يعتاد منها ان تكون كخشبة فوق حائط . فبمقدار ما يعلو منها جانب يسفل جانب . فيكون اعظم انسان فى صدورهم . هو ذاك الذى يعتمدون ان يتعاظموا عليه ظاهرا . ويستصغرونه عمدا بالاهانات أولا ترى الجواسيس المستحقرين فى أنفسهم ينالون من تعظيمهم ظاهرا . والاشادة بذكرهم . ما دام يتعلق بهم عندهم غرض . كما هو معلوم عند كل أحد . فعلى هذه الوتيرة صرت أتحدث مع نفسى . حتى ابتهجت ابتهاجا كبيرا . وقد سرها أن لاتكون فى عداد هؤلاء الجهلة الاغمار . المتبصبصين المرضى عنهم من المراقب الجديد . ما دامت نفسى تنال وحدها ذلك الشرف .

طعم الناس فارسل الىّ . فدخلت وسلمت متبسما . فقال لى المراقب الجديد باختزال الكلام : كيف انت . وماذا تصنع ؟ فقلت له : انني بخير . على انه كيف يكون بخير من نفى من داره . وكانت عادتى أن لا أفلت فرصة الا اعلنت فيها دائما ذلك . وربما أتصنع القلق الزائد . فقال : هانذا قد جئت الآن . أرسلتنى الحكومة الى مركز (تافراوت) وما جئت الا لأتمشى فى الطريق المستقيم . . ! وكل من اعتسف عنه ولو قليلا فاننى فاننى... وترك تتمة الكلام فى صدره . وأشار بجمع كفه . فقلت له : ان الاحوال تسير سيرها الطبيعى فى البلاد . فقال : اننى لا أعد عليك ما فعلت فيما مضى . وانما نحن أبناء المستقبل . وانك عارف ان الحكومة لو لم تعرف منك ما تعرف لما اخرجتك من (مراكش) فقلت له : اننى على كلمة واحدة هى بعينها ما أردده منذ ذلك النهار . ان الحكومة قد غلطت فيما فعلت بى . فلم يجبنى المراقب عن تلك الجملة . فدار مثل هذا الكلام فى ساعة قليلة . فانفض المجلس . فخرجت وانا اشعر بخفة كاهلى . وأقول لنفسى : أتصدقين الآن ما كنت أقوله لك قبل فى تلك السقيفة :

هكذا انقضى ذلك اليوم العبوس القمطرير . وهو لعمرى من أيام عمرى القليلة . ولبعض الرزايا على ضئولة ظاهرها مضض عظيم . ووقع شديد فى الفؤاد . وما ذلك الا من الاهانة التى تستفز المشاعر . وتتفجر بها العواطف . وينماع فيها الصبر انمياع الملح فى الماء . وحين أويت الى مضجعى تلك الليلة . سمعنى محمد بن الحبيب اتململ . فنادانى : هل نعست يا عم ؟ فقلت ارتجالا :

يقول هل نعست يا عمى — أين النعاس من أخى هم
يحسبنى ابنى خاليا مثله — ابيت فى ليلى بلا غم
ويح الشجى من الخلى الذى — يقطع كل الليل بالنوم (١)
لم يدر ما يلقاه من شجوه — حين المسامرة للنجم
فينتحيه ظالما قاسيا — بما يواليه من اللوم
بصدر عمك بنى لظى — بشرر منتشر ترمى
فقلبه فى غليان بما — أذكاه رزء حل فى اليوم
رزء جديد دب لى ويله — فكاد ينسى الرزء ذا قدم
واكبدا مما أحس به — من كمد يرتج كاليم
لكننى تجلدا لم أزل — استره فى الحفل بالكظم
خوف الشماتة اذا ما رأى — آثاره فتى من القوم
والحر من يبدى تجلده — وان يحز فيه للعظم

يوم ادهى وامر

١٢ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

صارت الايام تتوالى . وحوادث الايام الممضة تتوارد تترى . وكوارث الدهر الخئون تغير خيلها بداد (٢) غارات متتابعة . فلا أكاد أفرغ من صدمة دفعة من هجماتها حتى تحتوشنى أخرى . كأنما وكلت بى احداث

---

١) الشجى يكون من شجى كتعب فهو شج : غص بالشىء . ومن شجاه يشجوه فهما شجى بالتشديد بمعنى مشجو : أى محزون .

٢) أغارت الخيل بداد ؛ بفتح الباء وكسر الدال بحركة واحدة كنزال : جاءت متفرقة .

هذا العصر كلها . فضريت بجانبي ضراوة طلس الذئاب على النقد الهمل (١)

أيها اليراع الكريم . الوفي الوحيد . أتدرى ان صدمة اليوم ماتوجهت الي الا من أجلك ؟ فقد تجسس علي الدهر حتى وجدك المنفذ الوحيد الذي انفذ منه الى بعض مسراتي المعسولة . فاخذ على عاتقه أن يسعى جهده لعله يستطيع أن يحول بيني وبينك . وهو جد عالم انه متى وصل الى أن يحول بيننا . فقد توصل الى أن يحول بين جسدي وروحي وما بعد انفصال الجسد عن الروح الا القبر الذي لا ذكر وراءه .

كنت مولعا منذ وطئت (الغ) بالمساءلة لمن اتصل بهم في المجالس القليلة التي اتصل فيها ببعض أفراد من الناس . انتقيهم جهدي من الدهماء التي هي قذى الاعين . ووقر الآذان . والصخر الثقيل على الافئدة . فكنت اقيد عنهم ما يتعلق بتواريخ علمائنا وادبائنا . وانا مدرك أن ذلك في هذا الوسط يثير العجب لأنه وسط جاهل . ليس فيه شعور ولا ادراك . ووصلني فعلا من بعض من أسائلهم كلمات جارحة فكنت ألقي كل ذلك دبر أذني . فاقبلت بشغف وامعان ولهف . تقييدا ونسخا لكل ما سنح . اسابق الدهر لأني تعلمت من تجارب الحياة انه قلما توجه عامل الى ناحية بعمل نافع نفعا عاما . الا كان الدهر موكلا باقامة العقبات أمامه . فلذلك كنت أرى كل يوم لم أصطدم فيه والموانع . كيوم ظفرت به . وأنا شاعر كل الشعور بالاعين والارصاد التي تتبعني . واعلم أن كل من اتهم مثلي بما تقول علي . فان كل ما يعمله سيلبس أيضا مثل تلك التهمة . أدركت كل ذلك من أول يوم شغلي بذلك . ولكنني كالطرار (٢) يغتنم الغفلة ولو قلت . فيستل ما يمكن . فاذا فاز بذلك فلا عليه فيما يحدث . هذه نيتي منذ توجهت لما توجهت اليه من احياء تاريخ تلك البلاد . لعلي أقوم في غربتي بعمل أؤدي به بعض الواجب علي فكم درهم بذلت في ذلك . وكم رسالة كتبت الى اناس . فجاء كل ذلك بفوائد مدهشة . والمواد التاريخية التي أحوم حولها تزخر بها تلك البلاد . وكلها على طرف الثمام . فجنيت كل ما أمكن مغتبطا وأنا مع ذلك في انتظار . اما رجوعي الى (الحمراء) حيث انقطع عن هذه البلاد التي استمد منها . واما منع من الحكومة . أو مثل ذلك من الموانع والقواطع وما أكثر الموانع والقواطع أمام العاملين .

---

١) النقد بفتحتين : صغار الغنم

٢) الطرار : الذي يسرق الدراهم من الجيوب .

قبل ذى الحجة الاخير زارنى الاديب سيدى محمد بن سعيد الاعضيانى مع ءاخر من بلاده ولم يكن لى بهما أكبر اتصال قبل اليوم . الا ان الاول كنت رايته مرة قبل اليوم . وأما الآخر فلم أعرفه . فادخلتهما . فتناولا ما تيسر . وأنا استغل ذلك لمقاصدى . فقيدت عن الاديب ما يتعلق بأهله . ثم حثثته ان يوافينى بما تحت يده من ءاثار علماء (سملالة) لأن والده سعيدا عالم له اتصال بهم . فلابد ان يكون تحت يده رسائل وفتاو وءاثار قلمية . ووفيات . وقد كان هذا الاديب أفادنى قبل اليوم بواسطة كناشة له بوفيات . هذا ما كان . فذهب الرجلان . وكذلك زارنى الاديب الكبير سيدى الحسن التوسالى . فقيدت عنه من علماء (سملالة) الشيء الكثير . جزاه الله خيرا . كما كان أيضا عندى من (مجاط) سيدى بريك بن عمر المجاطى . وقد كان من كبار أصحاب والدى . وبينى وبينه من قديم محبة صادقة . خالصة أكيدة ؛ فكان فى مفتتح ١٣٥٦ هـ زارنى بمجرد ما سمع بانى فى البلد . ولكنه اثر رجوعه منع من معاودة المجيء الى (الغ) بحجة مجيئه اليه بلا جواز رسمى . لانه شبه رجل رسمى . اذ يزاول النوازل فى بلده . ثم لسبب ما أزير المطبق (١) . . وفى ءاخر السنة طلب اذنا لزيارة شيخه بدارنا . فأتى . واتفق انه لم يجد الأخ الأكبر . فوجدنى انا . فرءانى الناس معه داخلين خارجين . ثم ذهب ؛ وقد انتهزت تلك الفرصة فاستفدت مما عنده . كان كل هذا قبل هذه الحوادث المتقدمة الاخيرة .

وفى ١١ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ . أراد الاخ أن يذهب الى مركز (تافراوت) وقد كان الكمندان الذى فى (تارودانت) قال لى أول يوم : لا باس من زيارتك لمركز (تافراوت) متى أردت . فكنت بعض الاحيان أذهب مع الاخ ان شئت لأتجول فقط . وفى هذا اليوم قلت للأخ يظهر لى أننى ساركب معك غدا الى (تافراوت) فقال ينبغى أن نستاذن هذا المراقب الجديد فى ذلك . فان الجو كما ترى متبدل عما تعهد . حتى الكومندان الذى كان اذن لك قد ذهب . وهناك ءاخر فى محله . فلم نسمع منه شيئا . وكيفما كان الحال فالاستيذان من جديد أحسن . لئلا نتعرض للتانيب . فكنت فى بيتى جالسا اذا برسول مستعجل ينادينى بكل اسراع . يقول : ان المراقب فى انتظارك الآن . فخرجت مسرعا . فولجت عليه . فقال ما تصنع ؟ فقلت : لا شيء الا مزاولة كتبى . فقال : وماذا أيضا ؟ فقلت : أكتب ماتيسر مما احتاج اليه من الكتب فقال : مثل ماذا ؟ فقلت : أكثر ذلك فى التاريخ . فكمل الاخ على كلامى قائلا:

---

١) المطبق بضم الميم وكسر الياء : السجن .

انما يشتغل بمات فلان فى كذا . وقرا فلان عن فلان . ومثل ذلك . ثم تجاوز المراقب ذلك فقال : أوياتى اليك المجاطيون والسملاليون ؟ فقلت : ان دارنا (زاوية) وقد التقى بمن يجىء زائرا اياها . ثم جاش وحملق بعينيه . وجمع جمع كفه . فقال : انك ان لم تلزم الهدوء والسكون هنا . لترمينك الحكومة الى صحراء (تيندوف) . فقلت وانا مستجمع لنفسى : ماذا صنعت من جديد ؟ فها أنذا . فليبين لى ظاهرا واضحا . فقال : اننى أبلغك هذا الكلام . فقلت له : اننى القيت ظلما فى هذا البلد الذى أنا غريب عنه . وما تربيت فيه . وقد حصل لى ضرر فى جسمى . وانا مظلوم . وبينما انا منتظر أن ارى حل الأزمة التى انتشبت بى فيها التهمة الأولى. اذا بتهمة ثانية. ثم قلت : فبالله عليك يا حضرة المراقب أيمكن لأى عاقل أن يتداول مع أهل هذه البلاد فى سياسة . لو كان مهتما بانتقاد سياسة الحكومة . وهم كما تراهم لايفقهون فقال : أولم تقل ان التهمة الأولى انما لفقت عليك بـ (مراكش) أفتامن أن يلفق عليك مثلها هنا . مع أنك تعترف بان أهل هذه البلاد لا يفقهون . وترى المراكشيين لفقوا عليك فيما تقول . وهم بنظرك اليهم عقلاء ثم قال : اننى اريد أن أخاطبك بجد . فاسمع منى : اننى أصدقك فى أنك لاتشتغل بغير ما تقول . وانه لايمكن أن تداخل أهل هذه البلاد فى شىء . ولكن متى كنت تخالطهم فقد يتقولون عليك . فيرفع ذلك الى من فوقنا . فياتينا فيك أمر لانستطيع الآن تنفيذه . فقلت له : أوليس هناك ذو بصيرة له تأمل فى الزائف والرائج مما يسمع . حتى تحاك التهم عنده هكذا بسرعة ؟ ثم تداخل الاخ فى الحديث . وقد رءانى مسترسلا فى المحاجة . وقد صرت أتكلم بحدة . فاستوى الى فقال : يا فلان : ان المراقب يتكلم معك كلاما معقولا واضحا . فقد أعلن لك أنه يصدقك فيما تقول حين ذكرت له أنك لاتشتغل بما لاتحبه الحكومة . ولكنه ينصحك من عنده . وينبغى أن تقبل نصائحه كنصيحة طبيب عارف بالداء والدواء . ثم تيقن أن مقصود الحكومة أن لايجرى ذكرك على الألسنة . فقد يضرك من يثنى عليك . كما يضرك من يتقول عليك . فكثيرون ممن يخالطونك يثنون على ما يرونه منك . وذلك ما لاتريده الحكومة ما دمت أنت موصوفا أمامها بما وصفت به . والآن اسمع ما يقول المراقب واقبل منه قبول المستمع المتبع . ثم تلاه جاويش المركز . واسمه احمد التيبيوتى . فبقى المختار ذلك الوطنى الغيور الجسور فى امثال هذه المواقف يلقنه هؤلاء الذين نابوا عن المراقب . فرأيت أن الاولى أن أختم كلامى مع المراقب ؛ فقلت له : على اى حال اننى غير راض بهذه البلدة المنحوسة . واننى أرفع شكواى . وأنا لست من أهل هذا البلد . وما أهله منى الآن غرباء فى

كل ناحية . فقال المراقب : أحب منك أن تصبر وان تنتظر . فان هدات الحالة فلابد أن تنظر الحكومة في أمرك . وأنا لاتحمل كلامي الا على الخير . ولا تحسبن أنني جئت الى هذه البلاد للتضييق عليك . أو لمواخذتك على أفكارك . فقلت هكذا نسمع عنك . وانك رجل يقصد الطريق ولا يتلوى - لأنه معروف بين الناس بذلك - ثم اختتم المجلس . فدخلنا في كلام اخر عادي . ونحن نشرب الأتاي . وأخيرا قام ليسافر الى (تافراوت) وقال : احب منك ان تفهم ما أقول لك . فاجبته بالايجاب . ثم تاخر الجاويش ايضا بنصائحه التي تفضل بها فركبوا وذهبوا .

جلست مع الاخ وهو ممتقع اللون متاثر . فقال : انني بمجرد ماوصلت المركز ؛ ظل المراقب يسالني عنك . واخيرا قال : لاتذهب حتى اذهب معك . ثم تردد فقال : اذهب فانا مبكر عليك . ولكن لاتذكر لأخيك شيئا حتى اراه . قال : ولكنني نفيا لكل ريب. اخترت ان أبيت هناك حتى أبكر ببكوره فبت هناك . وفي الصباح جئت فنزلت بالخميس انتظره الى ان جاء . ثم قال هذه وشاية من بعض الناس لايذائنا جميعا . ولا أحسب الواشي الا فلانا . ثم قال : ومن رأيته من (مجاط) غير سيدي بريك بن عمر . وسيسأل عند الرجوع من هنا هل رءاك فلان فيقول نعم . وسيدي بريك متهم بافكار مناوئة للحكومة . فيحملون ذلك على ما يحملونه عليه . ويرفع مركز (ايفران) ذلك الى (أكادير) ثم قال : من كان زارك من (سملالة) فقلت لأدرى الا ما كان من طلبة منهم وهم فلان وفلان وفلان . فقال : من هناك راس الحبل . فانه بلاشك أرسل اليك . ثم كذب وتقوّل عليك . اوما قال الا خيرا وأثنى كثيرا وهؤلاء لايريدون أن يثني على مثلك بالخير وبالعلم الكثير . ثم قال : انه يجب الآن ان نحترس أكثر مما كنا نحترس من قبل . فاتفقنا معا على أن أنعزل عن كل أحد ايا كان . الا من نعلم أنه لايذكر الملاقاة أصلا . فكان ذلك عندي اذذاك عظيما جدا جدا جدا . ولكن ما صبرت عليه الا اياما حتى استانست به . فوجدتني في راحة تامة الى الغاية

ففي اليوم رجعت لبيتي مفكرا فيما أعمل . انني أدرك أن الامعان في العمل هو الذي ينسيني هذه الحالة الجديدة . فعزمت على الاشتغال بجمع كتابي: التاريخ الالغي الذي سميته (المعسول) وعلى جمع كتاب (سوس العالمة) و (المترعات) وغيرها . فاقبلت أرتب فيها المواد التي فزت بها أثناء السنة الماضية بكثرة البحث . وعدم التكاسل . فقلت ارأيت لو كنت أترك عمل اليوم للغد . كيف يمكن أن تتوفر لي هذه المواد . فهكذا كانت سنة ١٣٥٧ هـ مفتتحة بتاليف هذه الكتب العظيمة التي سيكون لها شان ان شاء الله وكملت

فقد كنت افتتحت الجميع في حين واحد . ثم أضع في كل كتاب ما يوافقه . كما ان سنة ١٣٥٦ هـ كانت كلها في جمع المواد التاريخية والادبية . ولايدرى الا الله كيف تكون سنة ١٣٥٨ هـ فما بعدها (١)

هكذا تلقيت هذه الصدمة الجديدة التي نشأ عنها أن انعزلت عن الناس كلهم ايا كانوا . حتى الاقارب الذين كانوا كالعقارب . ولا ادرى ما يتداول بين الناس حول هذا الحادث الجديد . لأنني لا أسأل أحدا . ولا يقدر أحد أن يخبرني بشيء .

كذلك حاول الدهر ان يحول بيني وبينك يا يراعي المؤنس الوحيد . ولكن ما بيننا من الامتزاج والموالفة والمصاحبة . يابى الا أن نزداد بذلك اتصالا على اتصال . فقد قال لي الأخ فيما قال : يجب عليك الآن أن تكسر يراعك . وان لايبدو منه حرف واحد لأى انسان . فلم اشعر . والله . وهو يقول ذلك . أن اغرورقت عيناى . ورأى ذلك مني . ولا ادرى عن ماذا يحمل ما رءاه من عيني . ولكن الواقع انني وان تلقيت كل صدمة بصبر وتحمل . لا أقدر أن اسمع قولة ترمي الى كسر هذا الأليف الوفي الرفيق الذي منه وحده استمد أنسي . مذ حال الدهر بيني وبين من هم في (الحمراء) وما وراءها . أفلا يحق لى أن أجيش بقولي :

يا يراعي لا كنت ساعة القيـ	ـك وانحي عليك بالتكسير
كيف ألقى أم كيف أكسر يا للنـ	ـاس من كان ترجمان ضميري
وجليسي في وحدتي وأنيسي	واليفي في غربتي وسميري
وعشيري الوحيد لاحملتني	ارجل ان أخس عهود العشير
ثكلتني امي اذن ورمت بي	قاذفات المنون نحو القبور

ثم اقول :

يقولون دع عنك اليراع فانه	سيلقيك في هلكاء لابد مؤذية
فقلت لهم أنى حياتي بدونه	فكيف حياتي بعد توديع روحيه

غمز قناة

جاءت رسالة الى الأخ . فجالسني . فاخبر اننا معا ذاهبان الى (تافراوت) في الغد . فقد أوعز من هناك بان نذهب . قال : ولا احسب

---

(١) هذا هو (المعسول) طبع بحمد الله في ٢٠ جزءا . و (سوس العالمة في جزء . و (المترعات) لا تزال مخطوطة .

ذلك الآ للافاة كمندار جديد خلف من انتقل عن (تارودانت) وقد أرسل الى الرؤساء ليحضروا غدا ليتعرفوا به .

بكرنا الى (تافراوت) وانا في وجوم وعبوس . ووجه قمطرير . ووزن ما عسى أن يقال لى من جديد . بعد أن لم يبق فى القوس منزع . فانهم ما زالوا بها حتى التقت سيتاها (١) وما بعد القبر من ضيق . ولا بعد ما وضعونى فيه من محرج يلجئوننى ويرهقوننى اليه ايضا . ولكن تجلت لى القافية الجلقية (٢) فتذكرت اى حجارة من أمثل بين يديهم لاتجد الرقة اليها من سبيل . وقد غلطوا أولا . ولابد أنهم متبعون غلطاتهم الى مداها . وبعيد أن يتبصروا في أمرى . وان يدركوا انهم انما يخبطون فيه خبط عشواء . فاننى وطنى كما يروننى . ولكن أعمالى كلها محصورة فى نشر العلم والدين . وبث الدعاية الصالحة فى مجالس للاسلام الصحيح الذى ينتج الوطنية الحق . ولكن بأى مسمع يصيخون حتى يعوا الحقائق . والرسميات كالحلقات من السلسلة بعضها داخل في بعض . ومتى تنتهى حلقات الرسميات التى لها أول . وقلما يكون لها ءاخر .

اجتمعنا فى مركز (تافراوت) فكان الجالسون فى (منتظر) نحو عشرة من الرؤساء فصاروا يتململون ويتداولون أحاديث أبرد من الثلج . وهم يحسبون انهم فى عقولهم .ومجالات أفكارهم . ومسارح أنظارهم كجماعة المشائين فى (أثينا) سمو فكر . ودقة نظر . فتذكرت ما قاله الأخ محمد يوما : انني لا استحقر نفسي . وأتمنى لو تسيخ بى الأرض . الآ يوم أجالس جهال هذه البلاد . خصوصا رؤساءهم . حين أسمع أفكارا يغلبنى بها الغثيان حتى أكاد ألقى ما فى جوفي . وقد صدق فيما قال . ولقد فرج - والله - على ما رأيته منهم . فلئن فاتنى منظر سينمائى استرد به بعض روح لنفسي . فان تلك الافكار التى تداولوها . قائمة عندى مقام ذلك المنظر فصرت أتذكر المويلحى الظريف . فاقول : يا ليتنى حررت حديثا لـ (موحا بن باها) يتضمن أفكار هؤلاء . فى مقابلة (حديث عيسى بن هشام) وانا واثق أنه سيكون لطرافته رواج عظيم . وخصوصا ان جلت بالحديث عن ندوات المتفقرة والمتفقهة والمثرين المتعاقلين . وأمثالهم ممن يتطاولون الى مناغاة الثريا فى حين انهم اقماء (٣) من كثير عزة . واذل من بيضة البلد

---

١) سية القوس : طرفها . وهى بكسر السين وفتح الياء مخففة .

٢) قال شوقى من قصيدة :

وللمستعمرين وان الانوا قلوب كالحجارة لاترق

٣) القماءة : قصر القامة .

دخلنا المركز عند شروق الشمس . فبقينا الى ان متع النهار بكثير . فدخل المراقب مع الكمندار الى المكتب . وبعد ساعة صارا يستدعيان بعض من معنا . حتى تلقى كل واحد بالكمندار . وتعرف به . وبقى الأخ عندهما ما شاء الله . فاستدعيت فلقينى الكومندار ببشاشة الاستقبال الرسمية المعهودة . فاعجبنى حقا فى طول الجلسة لما رأيته منه . وليس كخلفه الذى يتطاير شررا بنظراته الخاطفة . فسألنى عن حالى السؤال المعتاد . فاجبته بـ (لاباس) الجواب المعتاد . ثم قال هل ألفت فى هذه البلاد ؟ فقلت : لا والله لست بآلف ولن آلف . وكيف آلف فى بلد بينى وبينه ما بينى وبين تمانمى ؟ فقال : ما هو الافضل عندك أهذه البلاد أم (مراكش) ؟ فقلت : لا أبتغى بمدينة نشأت فيها . وسلخت فيها شبيبتى . ودخلت فيها طور الكهولة بديلا . وهو فى كل ذلك يضحك . ثم قال : ان لسانك طويل فيجب عليك أن لاترى احدا . فقلت اننى لا أعرف من نفسى الا الاقتصاد فى كل شىء . حتى فى الكلام . وأنا ارفع للحكومة شكواى على ما الاقيه فى هذه البلاد من العنت . وفى أثناء حديثه معى سألنى هل عندى أولاد . فبادر الاخ فقال : نعم عنده ابن واحد . ثم أدى ذلك الى السؤال عن الزوجة من أين هى . ثم استطرد الكلام الى (تازاروالت) الذين هم أهلها . فتذكر الكومندار سيدى على بن محمد الالغى التازاروالتى . فصار يسأل عنه الأخ فقضيا فى ذلك ما شاء الله . فتذكرت ما كان بعض الادباء يعيبه على امرىء القيس حين يستطرد شيئا فى أثناء شعره . فيمضى فى وصف ذلك الشىء فيغرق فيه ما شاء الله . وينسى ما كان فيه أولا . ولا يتذكره الا بعد حين . هذا ما كنت أجول فيه حين كانا يجولان حول سيدى على بن محمد . وأخيرا قال الكومندار وهو يودعنى : اننى أعرف لم ثارت نفسك هاهنا . وذلك لبقائك بلا شغل . وسأنظر لك شغلا . . . ! فسكتت ولم أجبه بكلمة فخرجنا . وحين جلست مع الأخ فى بيت الانتظار . قال ان تلك السكتة التى سكتتها حين قال الكومندار ما قال . فيها من عدم اللياقة ما فيها . فقلت له : ماذا أقول ؟ اننى لا أحب أى شغل سوى ما خلقت له من الاشتغال بالعلم . فقال : يا فلان يجب عليك أن تماشى الزمان . وان لاتبقى هكذا صليبا دائما . ما دمت تريد أن تحيا مع الناس . فتركته يقول ما شاء لأننى كنت مغتاظا فى باطنى بعض اغتياظ . منذ كنا واقفين امام الكومندار لأنه كلما تكلم هذا بجملة . صار هو يعيدها علىّ . كأننى بليد أو قصير الرأى . أو صبى صغير . وكان يفعل معى ذلك أحيانا فتأثر باطنى جدا . وان كنت أومن أنه لايقصد هو من ذلك الا أن يفهمنى المقصود كما هو لأننى

أحيانا لا أدرك كل الادراك ما يقوله هؤلاء بالعربوبية لا بالعربية . وقد جرأ الأخ بفعله هذا ذلك الجاويش التيبيوتي حتى يمثل معى نفس الدور أيضا . وما كان يصنع بي مثل ذلك في السنة الماضية حين كنت أتحدث مع مسيو باريوس . وهل كنت في تلك السنة حصيفا مدركا رشيدا . حديد الذهن . ثم صرت فى هـذه السنة بليـدا قصير النظر ملتاث (١) الرأى . أم تبدل حالهم حين تبدل معى حال الدهر .

خرجنا من المركز وأنا ـ والله يعلم ـ فى حيرة من أمرى . لا أدرى ما أقدم ولا ما أوخر . . والدهر لايزداد الا عبوسا . والخناق لايزداد الا شدة . أبعد ان كنت اطمع ان استرجع حياتى . واسترد حريتى . . أضع رجلى فى قيد قلما تفلت من قيـد به من هوان مستمر . وتصفيد صافع . ويختلج فى ذهنى ان ما سمعته انما هو غمز لقناتى . وان كان ذلك ليس الا وهما . هكذا بقيت من (تافراوت) الى (الغ) فى ابرام ونقض . وعقد وحل . حتى لاقف أخيرا مستسلما للحيرة . فاتطلب فكرة أشغل بها نفسى عما يساورنى . فيعوزنى ما أتطلب . لان وطنيتى لا أتنازل عنها ولو قدمت لى وظيفة الملك . لأن وطنيتى من دينى .

جلست مع الاخ فى الدار . فعاودنى الحديث . فقال : ان العبد مادام عبدا لابد أن ينقاد لـمـا سنح كيفما هو . وهذه الوظائف التى تتهرب منها وهى تناديك . وتمد اليك يدها وتخطبك . ليت شعرى ما ستعد لقوتك . ومئونة أسرتك . ان أبيتها وترفعت عنها .

يا فلان ان الاستمرار مع الخيال لابد له من أخير . وما هذه الفكرة التى أراك عليها من عدم قبول ما يعرض عليك . الا خيال . ان لم يكن عنـدك أنت محققا . فانـه عندى محقق .

يا فلان ان كانت المروءة هى التى تملى عليك ان تبقى فـى حياتك طليقا حرا . فكلنا ـ والله يشهد ـ ممن يودون ان يعيشوا طول حياتهم احرارا طلقاء . ولكن لن نجد مناصا مما ترى . وهذا الوقت الذى قدر لنا أن نعيش فيه . وقت لايحترم أحدا . فلماذا لاتسلس للوظيفة كالقضاء هنا فى (تافراوت) فلئن تيسر ذلك فستسدى لهذه الناحية جميلا . اذ تخرجها من دائرة العرف الى دائرة الشرع . فلما أخذ علىَّ الاخ كل الطرق . أطرقت متأففا . لا أدرى ما أصنع . فاقترح علىَّ أن يتولى هو محاولة فتح الباب . ولكن بعد أن حاول ذلك من عند نفسه وجده موصدا . فذهب ما أسلست فيه له مراوغة ـ حتى كأننى أظهرت قبوله ـ هباء منثورا . ففرحت غاية

---

١) التاث عليه الرأى : اختلط

الفرح . والا فهل في شعرة تحب التوظف والمعاونة مع من لا أسايرهم بضميرى . فالحمد لله الذى سد الباب برحمته . ولو كان الأخ ممن أصدمهم بالجواب المسكت . لما أسلست له في المراجعة اللطيفة . لأنه ـ فيما يرى ـ لايريد بى الا الخير . وهو عندى بمنزلة الوالد . وكأنه يريد أن يوجد لى بابا للرزق فيكفى مئونتى .

ما وراء الاكمة

مضت أسابيع . ويعلم الله كيف مضت على . وقد صادفت عندى فاقة أصفرت الراحة . وادقعتنى . حتى مضى شهر لم أتلمظ فيه لحما . ولا وجدت للذيذ العيش ذواقا . وقد أتبلغ أنا وأهلى أحيانا بحريرة وبعض عصيدة . وقد كتمنا حالنا عن كل أحد ونحن في دويرة منفردة . وبالاجمال لا أجد من المستلذات الا لذة القلب وحدها التى هى ما يتلهى به الاديب ان أرخت عليه الحوادث عزاليها . وقد انحجرت عن كل أحد . ولا أزور ولا ازار . ولا يتسرب الى نبا ايا كان . فقلت في نفسى أهذه حال صوفية لو كنت حقيقة من صوفية الاعمال . فلولا اليراع الذى أتراءى من وراء ما يواليه على من كتاب(المعسول) واخوانه . لقضى على الأسى والوحدة والغربة والفاقة وكان في احداها ما يقلق الصدر . فكيف بها وقد أتت كلها في صف واحد

في يوم حل المراقب في دارنـا . فأرسل ورائى . فوجدت عنده الرئيس ابرهيم الوفقاوى والخاويش والاخ وهم يتناولون الاتاى . فلاقانى أحسن ملاقاة . فجلست يسائلنى عن حالى . فأجبته أن لا باس :

سألوا فقالوا كيف حالك يا فتى ... بيّن لنا فأجبتهم : لا باسا
ما تلك الا كلمة معتادة ... للمرء حين يسائل الجلاسا
فبها يجيب وان تلظى لوعة ... مثلى وجرعه الزمان الباسا

ثم قال بعدما فتح محفظة . والوفقاوى وغيره يسمعون : ان سيادة الكومندار قد أجابك عما كان قدمه لك بأنه ما كان يقصد شيئا فيما ذكره لك . ثم قال : وسيجىء الكومندار الى (الغ) بعد أيام . فقل له ما شئت . فتنفست الصعداء . وفرحت غاية الفرح حين لم يتم ما يرمى اليه الأخ . فقلت حينئذ انما كانت هذه غمزة . فكأن المعنى بذلك : انك حين تترفع عنا فكذلك نترفع نحن . كأننى أنا المقترح . أو أنا الطالب أولا . ولكن مع تلك الحزازة أحسست بثقل قد انزاح عن كاهلى . فقلت : ان الخير فيما اختاره الله . وقد استأت جدا جدا حين ذكر الرئيس ذلك أمام الجالسين

بتلك الصفة . فيحسبون أانني أتطلب ذلك من أول يوم . فيشيع ذلك عني فخرجت من عنده بعدما ودعناه . فقال لي الأخ : عجبا مما سمعنا . وليت شعري ما ذا كان يقصد الكومندار في ذلك النهار سوى ما فهمناه . فسكت عنه . لأنني تقوى في ذهني . والله أعلم أنها انما هي غمزة . وجس نبض. وليتني بقيت على سكتتي التي بدت مني في الوقت الذي خاطبني فيه الكومندار بذلك . ولكن ماذا أصنع للأخ الذي اقترح ما اقترح عن حسن نية منه . ولا يقصد لي الا خيرا . ثم مرت أيام فجاء الكومندار مع المراقب معا . فأرسلا الي بعدما أكلا وشربا . فوجدتهما واقفين ازاء السيارة . فقال الكومندار بعد السلام : انما أريد أن أراك واسألك عن حالك . فقلت : لا بأس . وازاءنا أناس واقفون . ثم ما سلم ودارت كلمات قليلة حول التساؤل العام . حتى مد يده للوداع . فركب . فكان المسألة على تلك الكيفية . وهو على أوفاز . مقصودة – والله أعلم – لئلا أثير شكواي أمامه من جديد على غربتي .

بعدت عنا السيارة التي أقلتهما . فرجعت مع الأخ . فقال هذا والله هو العجب . حين لم يبد لما قاله الكومندار فجر . ولا جرى له ذكر . فقلت له في نفسي : يحق لك أن تتعجب ما دمت لاتعرف أن المقصود من ذلك انما هو الاستطلاع فقط . ثم قال : لابد على كل الحال من الصبر . وما بعد الصبر دائما الا الخير . فقلت للأخ في نفسي : هذا جوابك أنت لا جوابي أنا . لأنني ما أسلست في باطني قط لمثل هذه المحاولات .

ثم بعد أيام رجع الأخ من مركز (تافراوت) فقال : ان المراقب اقترح عليك أن تكتب له حياة الوالد . ثم قال الأخ : وكأنهم يعنون ان هذه هي الخدمة التي ستناط بك . فقلت له أو قلت في نفسي : ويح من كان لعبة في يد الزمان حتى يكون من خدام الاستعمار الذي يتلاعب به أكثر من هذا ونطلب الله أن لاتزداد المصائب . فانه ليس في قوس الصبر منزع . أقول ذلك للأخ – أو لنفسي – ليعلم أن البعد من هؤلاء هو الذي فيه الفوز العظيم لكل وطني غيور . لايرضى الا بالحرية التامة .

قبعت من شهر ربيع الاول الى جمادى الثانية . وانا بين كاسات (المعسول) وقد انتفت عني الفاقة منذ ٢٥ – ٢ – ١٣٥٧ هـ . والفضل في ذلك بادىء ذي بدء للكريم سيدي العابد السوسي ثم البيضاوي . ثم للأحباب من المراكشيين ومن الفقراء . جزاهم الله خيرا . فبجرت الجيوب . فانستني أعمالي الكتابية . وما غرقت فيه من التأليف وترتيب التراجم . هذه الغربة التعسة . وحياة (الغ) المنكودة .

وفي اخر شوال كتبت يوما ورقات في بعض ما يتعلق بالوالد . فطالع منها الأخ فلاحظ فيها ملاحظات . كالعبارات الادبية التي ينبغي أن اتجنبها هناك . لأن المترجمين الرسميين شبه جهال غالبا . فاضطررت الى كتابة ذلك ثانيا . مع ثقل ذلك علي . فادى ذلك الى اختصار مجحف فلم يتعد المكتوب ست صفحات في ١٢ فصلا . فقدمه الاخ الى المراقب . وفي ذلك الاسبوع نفسه جاء الفسيان معين المراقب ـ وهو حديث عهد بهذا المركز ـ فجالسته . فقدم لي شكرا على ما كتبته على لسان المراقب . ثم دهمنا موسم الوالد . فحضر المراقب على العادة المطردة في حضور الرؤساء في كل المجتمعات من المواسم في أي محل كانت . فشكرني شكرا حارا على ذلك . ثم قال : غير انني لم أطالعه لاحتياجه الى الترجمة .

وفي أوائل رمضان حضر المراقب أيضا . فكنت معه أنا والأخ . فقال : ان ما كتبته عن والدك لايزال الى الآن في (الرباط) عند مترجم حسن . فعندما أقرؤه ساستفتيك فيه عما أريد . فكأنه استقل ما كتبته في ذلك . ثم قدمت له شكواي كما هي . فقال : لابد يا فلان من الصبر . فان من في أيديهم الامور ليس لنا معهم الا رفع الامر اليهم . وليس لنا وراء ذلك ان نزعجهم بالالحاح . ثم قال : لابد من نفوذ ما تريد ولكن مع الصبر . ثم لا أدري ما يقصد بذلك . مع أن مقصودي انا هو ان يفرج عني فالتقط الحب حيث أريد . فحريتي مع كسرة مكرجة (١) أفضل عندي من الحياة المملوءة بالاستعباد . ثم قلت بعد انهيار ما يراد بي :

كاد يتم الدست حتى أرى	فرزنة الشاه على رغمي
ءاه فهل يقع ما خفته	يا رب عونك على الهم
فها أنذا كاظم ما الذى	اجده من لاعج الغم
يا رب يا عارف ما في الحشا	أعن عبيدك على الكظم
فانه أهوى لسم فنـ	ـج جسمه من ناقع السم

نبـــأ جديد

٢٥ ـ ١١ ـ ١٣٥٧ هـ

كان المراقب فلوري رئيس مركز (تافراوت) في (الغ) قبل هذا التاريخ بأيام . فصادفته وحده يمشي ازاء دارنا . فقابلني بمسألة لطيفة . فقال : انني كنت بـ (مراكش) فقلت له : اذن كنت في بلدي . ثم قال

١) كرج الخبز تكريجا : فسد

وقد هز رأسه : هكذا فعل القضاء . ويجب التسليم للمقدر . . . فقلت له انني الآن مرمى هنا محظور على ان اخرج وانا ليس لى مال . فمن أين ترى الحكومة ان أعيش واستمد ما اقضى به ضرورياتى ؟ فاسهبت فى ذلك حيث لايحضر معنا ثالث . فقال : حقا تقول . وسأرفع طلبك الى الكومندار فوقى. فقلت له : انك قلت لى ان العقدة ستحل . وها هى ذى السنة الثالثة على وشك التمام . وانا لا أزال أعلن أننى مظلوم . وان كنت لم اجد الى الآن مصيخا . فقال : مهلا فساسعى جهدى . ثم وقف علينا انسان . فانقضى الحديث .

ثم فى هذا اليوم ٢٥ ـ ١١ ـ ١٣٥٧ هـ . ذكر لى الاخ أن المراقب قال له : اننى سابذل جهدى فى أمر فلان . وان لم يكن الا أن ينتقل الى (تارودانت) فهى على كل حال مدينة . فقلت للاخ : كان يجب عليك أن تبين له أننى خاوى الوفاض ، ولا يتأتى لى الاستمرار على هذه الحالة التى أنا فيها بعد اليوم ، لان الصبر بلغ مبلغه . فقال قد اسهبت فى كل ذلك وبينت . فقلت له : انه وان أبيح له أن يكون حرا هنا لا يمكن له ان يعيش فى هذه البلاد . لانه ليس من اهلها ، ولا طاقة له شخصيا ان يكد كد سكانها . ثم قال : انه سيجئ يوم الجمعة الآتى ، وسيفاتحك فى ذلك. فلما جاء استدعيت . فقال : يافلان سأسعى جهدى فى كيت وكيت . فقلت له اننى أريد أن أبلغك ما فى نفسى : اننى أتطلب أن تسرحنى الحكومة فاذهب حيث شئت ، فاجرى وراء رزقى ، واسكن حيث أريد . وان لم تشأ الحكومة ، ولا أمكن لك الا تنال منها السكنى فى (تارودانت) كما قال أخى ، فاننى فيها ايضا ساكون غريبا أكثر مما هنا . وليس عندى درهم واحد أعتمد عليه . فاريد أن أعرف ما تريده الحكومة فى ذلك منى . فقال المراقب : اننى أقول لك انك اذا كنت هناك تتصل بالقاضى سيدى موسى ، فقلت له : أريد أن أعرف فاننى لا أتوظف هنا لك . فماذا تنويه الحكومة ان لم تسمح بتسريحى حرا كما أقترح . فبادر الاخ فقال : يافلان يجب عليك أن تستسلم وان لاتشترط شيئا . فما أمرت به فاصنعه . فقلت : اننى لا أصنع الا ما يلائمنى واستطيع النهوض به . ويوافق شرفى فبادر المراقب فقال : ان كنت لاتزال هكذا فالبقاء هنا هو الافضل . يقول ذلك بامتعاض .

وما أولى أمثال هؤلاء الناس ان يتولوا تربية الفقراء الصوفيين الذين يدخلون من اول يوم على اسقاط الشرط . والاستسلام الأعمى . انقيادا لكلمتهم التى يجعلونها هى الاساس (من قال لشيخه لم ؟ لايفلح أبدا)

فدار بيننا كلام كثير انجلى عن أن الرئيس يطلب أن انتقل الى (تارودانت) واقترح الأخ أن أفوض ذلك اليه واترك كل شيء في يده . من غير اسأل كيف أكون هناك ولا كيف أعيش . فغلبني الاخ وعنجهية الرئيس . فكتبت له ذلك . مفوضا الى الله أن يختار لي ما فيه راحتي . وأما أمر الخبز والمسكن وكيف تكون الحرية أيضا هناك . وكيف يقضي به الغد . كل ذلك وقف دونه من وقفا أمامي حين جئت مستفتيا . وما علي الا أن أسلس للاقدار . فقد مللت الحياة المنفردة في (الغ) فعسى بتبدل المسكن . يتبدل حال من حال. على أن الرئيس قال : انما علي أن أطلب . فاذا لم أفز بجواب طلبي فلا تلمني . فجازيته . وانا اعلم أنه لم يقدم ـ والله أعلم ـ حتى استشار من فوقه . واوعزوا اليه . وانما يراد ان يكون الكل كطلب مني . ومما لايزال ماثلا بين عيني الرئيس . ما كان جرى في السنة الماضية الذي أدى حول التوظف الذي تأففت منه . وكأنه طمع أن أسلس في هذه السنة . وقد حسبني قياسا على من يعرفهم . ممن يحلمون بالوظائف . وياليته علم أن الظل والخبز والماء مع الحرية أفضل عندي من كل فخفخة خاوية تحت ذيولها قيود لا انفكاك منها .

كان الأخ يقول : اننا اذا توصلنا الى أن توافق الحكومة على تحويل هذه الجبال الى الحكم الشرعي بدل العرفي . فستكون بتوليتك فيها قاضيا قد قمت بعمل مشرف . وقد كنت انا أجزم بانها لاتجيب الى ذلك . وانما كنت أسلس القياد للاخ على مضض حتى يعرف أن ما يطلبه محال . وها هو ذا يلمس ذلك لمسا .

وفي مفتتح ذي الحجـة أرسل الي . فذهبت مع الأخ الى (تافراوت) بعدما كان بيني وبينها تسعة اشهر بل عشرة فوجدت الرئيس قد كتب مسالتي من اولها كما رواها له الاخ . وانني براء من كل ما نسب الي . وان الحسدة هم الذين حاكوا حولي ما حاكوا من محاولة المهدوية . فاذا بالاخ يصرح باسم أحدهم للرئيس من غير ارادتي . ثم قال له ان الباشا الحاج التهامي هو الذي ذكر لفلان ذلك . فلم أجد بدا من ان أصرح بذلك وضميري يؤنبني . لأن الباشا أسر الي ذلك . ولاينبغي أن يصله من جهتي ترفعا عن نذالة افشاء ما يفضي به انسان لآخر . ولكن ما العمل ؟ وقد سبق أن قلته للأخ فافضى به رسميا كما ترى . والأمر لله :

اذا ضاق صدر المرء عن حمل سره   فصدر الذي يستودع السر أضيق

والأخ في كل ذلك لايقصد الا الخير . وانمـا يعمل بالطريقة التي يعهدها وقد وجدته غلط في بعض ما حكاه للمراقب فأدليت بالحقيقة ثم خرجنا .

هذا ما استجد . وهذا ما تدب به الينا السنة المقبلة . نطلب الله أن يجعلها سنة سعيدة وان يختار لنا ما لانختاره لأنفسنا . فهو الذى يعرف كيف يختار لمن يريد . فقد اعتدت أن تاتينى الانتقالات الكبار على رؤوس السنوات . فقد ولدت أول ١٣١٨ هـ . وافتتحت العلوم فى مفتتح ١٣٢٩ هـ فى (ايغشان) وفى أول ١٣٣١ هـ كنت فى (بونعمان) وفى أول ١٣٣٢ هـ كنت فى (ايفران) وفى أول ١٣٣٧ هـ كنت فى (الساعدات) وفى أول ١٣٣٨ هـ كنت فى (مراكش) وفى أول ١٣٤٣ هـ انتقلت الى (فاس) وفى اول ١٣٤٧ هـ انتقلت الى (الرباط) وفى أول ١٣٤٨ هـ عدت الى (الحمراء) وفى أول ١٣٥٦ هـ نفيت منها الى (الـغ) حيث لا أزال الآن . فهل يحصل انتقال اخر فى هذه . لا أدرى الآن ولا المنجم يدرى . ولدى من عنده مفاتيح الغيب علم اليقين عن ذلك . فياربنا . ياربنا . ياربنا . ياربنا . ياربنا . اكشف عنا العذاب انا مؤمنون . وهيىء لنا سعادة الدارين بفضلك .

تحول عجيب

٣٠ ـ ٧ ـ ١٣٥٨ هـ

سافر المراقب الى (فرنسة) ذاكرا أنه التحق بمدوسة عسكرية . يستتم فيها دروسا جديدة . وبقى «الفسيان» الذى لا أعرف الآن اسمه . وهو ابن جنرال كبير . وقد رأيته مرتين . فرأيته بشوشا حديث عهد بخلطة الاهالى . يحب التاريخ ويسأل عنه . وقد ذكر لى الأخ أن المراقب ذكر له عند توديعه أمام سفره : ان ما ارسلته حول فلان ـ يعنينى ـ رجع الى جوابه . وساذاكر فى ذلك الرئيس الأعلى فى (تارودانت) التى فيها المراقبة العليا على (تافراوت) هكذا قال ولم يبين شيئا . ثم بعد ذلك بما شاء الله . اخبر «الفسيان» الأخ بانه أوعز اليه من (تارودانت) أن يطمئننى وان ألزم الصبر الى حين . ثم بعد ذلك بشهور رجع المراقب من (فرنسا) فى أواخر جمادى الثانية فى الوقت الذى تكهرب فيه الجو العالمى . وتقعقع فيه السلاح . وامتلأت التخوم بالجيوش . وكان الحادث الجلل على الأبواب . فقدم المراقب الى (الغ) فقابلنى مقابلة حسنة . فجلست معه ما شاء الله جلسة حبية فقط . فقال لى : اننى لا أزال مجتهدا فى قضيتك . فالتزم الصبر . فقلت له : لا أزال كما تعهدنى صابرا . ولكن على مضض . فان هذا البلد لم أكن له ولم يكن لى . فقال : كل ما اريده منك هو أن تبرهن على ما كنت تقوله دائما عن سكونك . فقلت له : لا أزال فى موقفى . ولن

اتخلى عما اقول . ولا أحيد عما أعلنته فى نفسى . ثم ذهب . فذكر لى الأخ انه ذكر له أن حالة العالم حرجة الى الغاية . ولايدرى متى تنطلق الرصاصة الاولى . وكيف ؟ ثم قال له ان الرئيس فى (اكادير) قد صرح لى بأن فلانا - يعنينى - ينبغى أن يعتقل فى محل . لما تقتضيه الظروف من الاحتياط من أمثاله . يقول الأخ ذلك وهو يبتسم لمعرفته من أنا . قال المراقب : غير انتى طمأنته . وقلت له : انه فى كفالة اخيه . وكفى ذلك . هذا اخر ما كان من تلك الناحية .

لا أدرى احوول سجنى حقا . أو انما كان ذلك رمية سياسية يراد بها ما يراد . مما لايخفى على لبيب . وايا كان فان ذلك لم يحرك منى ساكنا ولا وجدت له فى قلبى حرجا . وانما يساورنى الخوف من أن يلقى القبض على ناس من اخواننا كانوا حقا سياسيين نافعين للأمة .

وقعت الواقعة فثارت الحرب . فتنفست الصعداء وقلت : هكذا شاء القدر . وقد كنت منذ ١٣٥٠ هـ مهتما دائما بحالتى فى وقت نشوب حرب عالمية جديدة . خوف أن تسلسنى فى الحواضر . فجاءت تلك المنية هكذا . وفى كل ما فعل ربك بك لطف كبير . لو كنت تشعر دائما بلطفه الذى يشمل كل مخلوقاته (ورحمتى وسعت كل شىء)

هيا الله لى من فضله ما اعتمد عليه فى الوقت الحاضر من النفقة . فامكنت لى الطمأنينة . وخصوصا بعدما تحقق عندى أن جو (الحمراء) تغير كثيرا عما كنت أعهده . فسلمت للاقدار تفعل بى ما تشاء عن رضا . فبعد أن كانت نفسى تتشوف الى مغادرة (الغ) الى اى محل كان . صارت اليوم ترضى بالبقاء فيه . ريثما تنجلى هذه الكارثة العالمية . ثم بعد ذلك يختار الله لى ما يشاء بفضله .

كثيرا ما اقف فى هذه الايام . فارسل نظرى الى الماضى منذ غادرت (الحمراء) والى الحاضر . فالمس من وجهتى تقلبا ظهرا لبطن . فاقول : عجبا لضعف الانسان . فانه يسخط على الشىء . ثم لايطول به الزمان حتى يرضى كل الرضا بعين ذلك الشىء الذى كان يسخط من اجله . وهو سر الايمان بالقدر . والرضا بكل ما كان . وياليت المرء يتلقى دائما كل ما وقع له عثرة بالرضا والتسليم (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا) (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) . وفى حكاية افساد سفينة الايتام لئلا يغتصبها الجبارون عظة .

حقا تحولت كثيرا عما كنت عليه . فأصبحت لا أتمنى الا حياة هادئة فى (الغ) الى أن تنجلى الكارثة العالمية الكبرى . ثم يختار الله لى . ولو وجدت الآن الحرية فانى لا أبغى بـ (الغ) بديلا . وان لم يكن الا قيد الوظيفة فى أوقات لائقة فلا حول ولا قوة الا بالله . ولكن لن أضع يدى فى الوظيفة مع هذه الحكومة الجائرة الا اذا غلبت على نفسى . لان ذلك عندى هو الموت الزؤام . وها أنذا الغى أيها الالغيون أيرضيكم الآن ذلك منى ؟

أصرح بمل، فى اننى لم أخلق للوظيفة أية كانت . وان كان لابد فوظيفة هادئة قليلة المسئولية . والعجيب أننى أبعد الناس عن وظيفة القضاء لأنى جاهل للفقه الى حد أننى لا أرضى لنفسى أن أكون فيه كلابس ثوبى زور . وان كنت أعرف أننى لو انتشبت فيه لأصبحت بعد قليل متمرنا لما أعلمه من نفسى من أنها لاترضى الاسفاف فى كل ما تزاوله (١)

ختاما أرفع يدى الى الله أن يختار لى ما فيه خير لى دنيا واخرى . فقد سئمت الاهتمام وكثرة الالحاح على نفسى فى اقتراح أمانيها . فلأسترح من الهم. فما كان مقدرا فسيكون . وما لم يقدر فلن يكون . فقد جفت الاقلام وطويت الصحف :

أرحك من كل هم فالهم ثقل شديد
فما يكون أرده ان لم يكن ما تريد
فراحة القلب أولى من كل ما تستفيد

يرى كثير من الناس مثل ما أراه لنفسى . فيشجعوننى على محاولة الخروج من هذا الخمول . كأنهم يظنون أن الاختيار لى فى خمولى . نعم اننى احس دائما من نفسى محبة الراحة والاستكانة وعدم المقامرة . ولكن اذا فتح ميدان لعمل استن فيه فسرعان ما اجرى فيه اطلاقا . وبودى ان لو دام ميدان الاعمال مفتوحا أمامى . اذن لأقبلت وادبرت . ولكن ما العمل والعبد عاجز مقصوص الجناحين الا بتأييد من الله .

---

١) الآن وأنا فى سنة ١٣٧٧ هـ وزير التاج ازاء ملك البلاد . أحمد الله الذى أختار لى الوزارة اليوم مطلوبا لا طالبا . وهى وظيفة لا مسئولية فيها الا قليلا. كما سأحمده أيضا على أننى ماتحولت والله يشهد والعالمون المطلعون وأننى أحرص أن لا أتبدل بالوظيفة . ولا أن اغتر بها . بل اننى أحيى، نفسى وأخلاقى وأهلى أن أكون الآن كما كنت بالامس . وان أكون غدا بعد الوظيفة كما كنت فيها . وكيف يكبر بالمناصب من عرف حقارته وجهله .

لولا الحرب لكان السراح فيما زعم

زلزلت الارض زلزالها . وأخرجت الارض أثقالها . وحقت الحاقة وما أدراك ما الحاقة . فدوّت في الجو الصاخات . ودارت أرحاء المعامع بين (سنكفريد) و (ماجينو) بعد أن طحنت (بولونيا) وجعجع عليها طاغية (الجرمان) وزحمت الطير في جوانها بطيارات محلقة . قاذفات للموت الزؤام وللمخرب الناسف . ونافثات اللهيب المحرق . وللهلاك الذى لايبقي ولايذر كما زعزعت حيتان بحر الشمال بالرعادات الفاتكة بالبوارج والبواخر . فتبدل الزمان غير الزمان . واستأسد كل حيوان دفاعا عن حياته العزيزة . وويح من يغلب وينقضُّ عليه الغالبون بكل ما أوتوه من مخالب حادة وأنياب ناشبة . وكلاكل عاركة .

هذا كله يدوى به العالم . وقد اهمت كل واحد نفسه . فانه يوم كالذى يفر فيه المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه . وقد حوول بكل ما في الامكان تهدئة فكر (المغرب) حتى لايحس بالضغط الذى على العالم . فوجد في دفاع أرباب الاغراض وعشاق الظهور . والمستهامين بالوظائف الى ما يحلمون به منذ أزمان . خير بلسم مبرد لغلة الشعب . فيعجب الناظر من بعيد من ذلك التهافت الذى ظهر من بعض طبقات الشعب الممتازة . الى التظاهر بما لعلها تكن منه غير ما تظهر . أو كانت ذاوية الفكر . ميتة الشعور . فتنقاد بأدنى بُرَة الى ما يراد منها . والعجيب أن من بين أفراد هذه الطبقة من نتحقق انه انما يكيل مضطرا جزافا . مغتنما المشاركة في السكون أو التسكين أو كليهما ملقيا ظهريا كل ما عسى أن يلقى على ظهره من مسئولية أمام التاريخ .

اعرف أناسا كانوا يطرقون كل باب . وينحنون أمام كل رئيس . ويكونون أذنابا لكل بارز . وما قصدهم الا أن يجدوا فرصة ليستلقوا بها الى الظهور كيفما كان . وفى اليوم رأيناهم قد أتيحت لهم الفرصة . فتمطوا ما تمطوا ناسين أو متناسين الشعور العام الذى ينظر اليهم شزرا . ويكيل لهم في الغيبة من التثريب ما ينخنس به في مسالخه من له أدنى شعور .

لندع العالم تمشى به الاقدار كما تشاء . ولنغادر (المغرب) واهله كلهم يضعون انفسهم حيث يضعهم الوقت الحرج . فلسنا محقين ان اردنا ان نزن أعمالهم ونحن من بيئتهم في بعد ـ لعل له عذرا وأنت تلوم ـ ونحن الآن

انما ينبغي أن نسطر هنا للغد ما يغامرنا نحن بالخصوص فى هذا الحين . بعدما مضى لنا ما مضى فى منفانا هذا . فلنبين كيف نجد أنفسنا الآن .

كنت منذ ابتدأ جو العالم يكفهر باستيلاء النازى على الكفة التى تناقض الكفة التى نحن فيها . أتوقع دائما حربا شعواء ملحاحا تأكل الاخضر واليابس . وقد نشأت منى هذه الفكرة التى استولت علىَّ بما كنت طالعته عن الحرب العالمية المتقدمة . حيث أرى كيف يفتك الانسان بأخيه الانسان بلا شفقة ولا رحمة . وكيف يحاول أن ياتى الخصم على عدوه بكل ما ياتى على حياته وبلاده وتاريخه . فكما يرسل عليه شواظا حتى يشاهده يحترق امام عينيه . كذلك يحاول ان يقلب الحقائق حتى يملأ بدعايته التاريخ الذى يجب أن يبقى للاجيال المقبلة . فيفعل كل شيء ليوطد ما يمليه كحقائق لاريب فيها . حتى لاينبغي أن يتوقف فيها ارباب البحث النزيه غدا . ثم عرفت وراء هذا ما يضمره النازى للكفة التى نحن فيها . وما يعده من معدات عجيبة طنت بها جرائد العالم . وما لابد أن يلحق (المغرب) من عقابيل تلك الحرب الضروس . فان كان (المغرب) نجا بعض النجاة من «اثار الحرب الماضية حتى ليجهل كيف وقعها فى (أوربة) عند غالب المغاربة . فان هذه البراكين المتوقع انفجارها ربما يكون منها لقطرنا العزيز مايكون. وقد صار هذا شبه المحقق منذ الحرب الاسبانية . فشاهدنا كيف أيدى النازى تطوق (المغرب) من (الريف) ومن (ايفنى) فبهذه كنت أتوقع أن الذى يصيب (المغرب) يكون وقعه على حواضره أشد منه على البوادى . وحين كنت اعرف دائما من نفسى محبة الهدوء والسكون والاتزوا ء - طبع كان منى جبلة جبلت عليها - كنت أترجى لو أجد بادية «أوى اليها يوم يكتسى العالم بالحرب ظلمات بعضها فوق بعض . فمن اخرج يده لم يكد يراها . وقد التقت حلقتا البطان . وأخذ الزحام بالاكظام . فتنكب لا يقطرك الزحام .

دارت بى الأقدار ما دارت . ثم غادرتنى فى هذا المنفى المسمى بـ (الغ) نحو ثلاث سنوات . فكنت أتنزى أحيانا لما أجده من مضض الوحدة ومن ألم فرقة الأحباب . ومن الشوق اللافح الى العلم واهله . ثم لم أزل أقع وارتفع . واجزر وأمد . أتسلى أحيانا . وأثور احيانا . حتى دوى دوى الحرب . فتشخص امامى كل ما كنت أعرفه عن الحرب الماضية . فكنت فى منبثق شتنبر ١٩٣٩ م . أتلوى على فراش مقض . لما أتوقع من زحف من (ايفنى) الذى يجاور (سوسا) ولايزال زائرين اذذاك الفوهرير والدوتشى وفرانكو . وقد بيتوا بينهم ما بيتوا . ولا ريب أن (المغرب) سيكون أتونهم

فهناك سجين (كابون) العزيز علينا واخوانه الزعماء . هم الذين يجب أن يهتم بهم لأنهم رجالات المقاومة . لارجل الجرومية . وقفا نبك . مثل المختار.

أشكرك يا رب شكرا منبعثا من أعماق قلبي . فقد ايدتني بروحك في هذا المنفى . وكنت تدر عليَّ فيه ما لم أكن أعهد منه قبل الا أن يبض بقطرات . فقد دخلت (الغ) بخمسة فرنكات فقط . ناولنيها انسان في الطريق بعدما خرج من يدي ستة فرنكات خرجت بها من (مراكش) . ثم هذه السنة الثالثة تكاد تنصرم . وقد مر بيدي زهاء عشرين فرنك . وبقي في يدي الخير الكثير . مع قلة العيال . وقلة العيال أحد اليسارين . وهذا كله من فضلك يا رب على عبدك المختار المظلوم . فلولا فضلك لكان في منفاه مقدورا عليه الرزق . يموت بالفاقة مرات في كل لحظة . وهو الذي خلقته عزوفا أنوفا لايرضى الا ان تكون يده دائما هي العليا في كل محيط يكون فيه . نعم كانت فاقة أولا . ثم سرعان مازالت . والحمد لله .

يقول الالغيون عجبا لفلان . من أين يجد ما ينفقه دائما . هل يستخدم الجن ؟ وهل وقع على كنز من كنوز قارون ؟ ولو عرفوا ان عنايتك يا رب تغني عن استخدام الجنة . وعن كنوز قارون وغيره . لأدركوا من اين يستمد اخوهم الذي يظل ويبيت متقلبا في النعيم . متمليا بشهوات الاعين والاذواق فحمدا لك يا ربي وثناء عليك . حمد عبد مذنب عرف ذنوبه الجمة . ثم أدرك كيف أسبلت دونها سترا كثيفا بفضلك . وثناء عجيبا ممتدا . فقد كنت تختار له دائما ما لا تختاره الامهات والآباء لأبنائهم البررة .

بفضلك يا أرحم الراحمين تب عني واغفر لي وزحزح عني في الحياتين ما لا ترضاه لعبادك . فانك أهل التقوى واهل المغفرة . ثم امدد عليَّ ما عودتني الى أن يغمض العين مغمضها :

كما أحسن الله فيما مضى   كذلك يحسن فيما بقى

٢٣ ـ ١١ ـ ١٣٥٨ هـ

زفـــرات

الزفـرة الاولى

رمضـان (مراكـش)

١ ـ ٩ ـ ١٣٥٧ هـ

عادتنا فى الرمضانات ان نبكر بدرس البخارى بعد صلاة الصبح فى جامع (باب دكالة) والقارىء فيه هو عرفة الفاسى الرنان الصوت ، ثم تتبعه بدرس الاصول . ثم توالى دروس أخرى . وفيما بين الظهرين نقرأ البخارى أيضا فى مسجد (الكتبية) ثم الفرائض والحساب بعد العصر فى زاوية (الرميلة) وقد كنت افتتحت القصيدة لاسجل فيها كل هذه الاعمال ولكننى شغلت عن اتمامها بعد ما كتبت فيها ما بين يدى القارىء مما يتعلق بدروس الصباح خاصة :

رمضان ايضا جاءنـى متجهمـا … متاملا فى حـالتى متوسما
ثنى الزيارة كى يطل على فتى … لعبت بـه أيـدى النوى فتهدما
لكنـه أيضا ضئيل الجسم لـم … تكدالعيون تراه فى وسط السما ١
يبدو ويخفى فىالسحاب جبينه … فكأن غـدا متململا متامـلا
أتراه أيضا مسـه مـا مسنـى … منذالتنائى عن(گيليز)و(رمرما) ٢
أنكرت منه مثل ما قد انكرت … لحاتـه منى ضنى وتجهما
قـد كان يعهـدنى واعهده عـلى … بشر نلقى الراح من راح النعى
يقضى واقضى خـير عصر طيب … اذ نحن والاحباب فىوسط الحمى
اذ نحن فى(مراكش)وسط (الرمـ … ـلة) كالملوك تسيطرا وتحكما
أيام كان الدهر يخدمنا ويقـ … ـنعه اذا مـا نرتضى ان يخدما
ياتى الينـا بالمنى متزلفـا … ويكون غاية قصده ان ننعما
نستقبل الصوم اللذيـذ بغبطـة … فاضت بهـا كل الثغـور تبسما
فيكون افضل نـازل نقريـه من … ابحاث مجلسنا المكلل انعما
ناهيك من شهر يقضى كله … بـين العلـوم تباحثا وتفهما

---

١) الضمير راجع الى رمضان بمعنى هلاله فى السماء . وذلك هو الاستخدام

٢) (گيليز) و (رمرم) جبلان صغيران ازاء « مراكش »

من بعد أن تعطى النوافل حظها ... والفرض نعقد محفلا متنظما ١
والجو لم ينصل خضاب جبينه ... والطير ما زالين بعد المجثما ٢
والحفل منتظم بكل مهذب ... ماضى الذكاء كما تهز المخذما ٣
لايكتفى بسوى الكروع بمنهل ... ان غيره يكفيه ان قد حوما
والفكر أنشط ما يكون فان بدا ... من غامض أهوى اليه مصمما
فيدور درس فى الحديث معسل ... فكأن سقيت به الزلال على ظما
يشدو به (الفاسي) نغمة صيت ... كل المنى من صيت ان ينغما ٤
يتلو بلهجته الحديث مسلسلا ... عذب المقاطع ليته لن يختما
يعلو ويسفل صوته بترنم ... حلو وان لم ينو ان يترنما
فيكون ذاك الدرس من رناته ... أحلى الدروس طلاوة وتنعما
والروض لولا العندليب لما غدا ... من جال بين غصونه متنعما
ان كان قطب الدرس يرسل صوته ... أثناء تقريراته مستعجما ٥
فابن السعيد بشدوه يلقى على ... جنبات ذاك الصوت ثوبا معلما
نبقى كذاك الى الضحى وبودنا ... ان لا نزال كذاك حتى نظلما
فنكر أيضا كرة أخرى الى ... درس الاصول ودرسه لن يبرما
فنجول أيضا جولة المقدام ان ... يهب البليد من العويص تقدما
متتبعين دقائق الفن التى ... من ذاقها ذاق الرحيق مفدما
والحاضرون جميعهم ما منهم ... الا جرىء بالذكا استلاما
تأبى له عضلاته ان أقبلت ... من موجة ان يستنيم ويحجما
خوض السبوح الغائص الاعماق لي ... س يرده موج العباب وان طما
يبدى فهوما مرقصات لم تكن ... لتشك معها انه قد الهما
يذر التعصب جانبا فى بحثه ... ما ان يرى غير الدليل محكما
أنى يرى علم الاصول ولبه ... من كان من أجل التعصب فى عمى
ان كان من جاروه فى حلباته ... قد انجدوا وسط المشاكل اتهما
فريد ان يرقى السماء بسلم ... ومتى ترقى من ينحى السلما
فكذاك نمضى خير ساعات كما ... أبصرت فى الطاقات زهرا نظما

---

١) المقصود بعد تراويح السحر وصلاة الصبح

٢) تصل خضاب الشعر : اذا زال

٣) المخذم بكسر الميم : السيف

٤) المقصود قارىء الدرس : الاستاذ عرفة بن السعيد الفاسي . وكان حسن الصوت رخيمه .

٥) المقصود أستاذ الدرس .

ما وصل خود يستباح رضابها — رشفا وورد الخد منها ملثما
بالله من ساعات درس اهله — فيه سواسية ذكا وتفهما
حتى اذا صدر النهار مضى واو — شكت الغزالة ان ترى كبد السما
قمنا وروح الوزكيتية فوقنا — مثل الحمام على الحدائق حوما ١
تولى لنا شكر الرياض لعارض — وشي خمائلها حياه ونمنما
حين استعاد اليوم مسجد هابنا — ما الطاهرى بدرسه قد اسجما ٢

الزفرة الثانية

عيد الاضحى

١٠ ـ ١٢ ـ ١٣٥٨ هـ

عيد ولكن كيف عيد غريب — ما عنده داع ولا من مجيب
اجفانه فى غرق . والحشا — فى حرق . وقلبه فى وجيب
فكل من فى (الخ) ذو بهجة — غيرى واى مبهج للغريب
تهللت أعينهم فرحا — واعيني منهمرات الغروب
ودعت أعيادى وبهجتها — وكل ما أخو عنا يستطيب
من يوم ودعت أخلاء قد — امتزجت منهم ومنى القلوب
انى أرى نور الحياة وقد — طوى شموس الاخلاء الغروب
آلية لست بمحنتها — يكتبها عنى عليم الغيوب
ان أغلق الفؤاد عن كل ما — يبعث فيه فرحة أو يطيب
حتى يثوب لى الزمان بما — أشهى واقترح يوم يثوب
يوم يزيل دون وصلهم — هذى الكوارث وهذى الكروب
اذن يتاح لفؤادى الهنا — ولمحياى وداع القطوب
أولا : فأولى ان يديم البكا — من النوى لقى نظيرى غريب

هذا هذيان موزون ليس من الشعر فى شيء . كتبته كما تأتى . فياللعجب . ابتعد منا كل شيء شيء . فقد نضبت القريحة . وجف الشعور الحى . والى الله المشتكى .

---

١) مسعودة الوزكيتية أم أحمد المنصور الذهبى السعدى بانية المسجد. ولذلك يسمى (مسجد الحرة)

٢) المحدث الكبير عبد الله بن طاهر السجلماسى . أول من درس فى ذلك المسجد .

أتذكر الآن حال ابن زيدون في يوم عيد مثل هذا . كيف اتيح له ان يخلد ذكراه لولادة بنت المستكفي بتلك الخائية التي مطلعها :

خليلي لا فطر يسر ولا اضحى فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

فقد مضت قرون فقرون . ولا تزال القصيدة طرية في الادب العربي . وأما ما صدر عني اليوم . فانني يذوي في يومه . وأشهد أنني أحس به حين ألقيه فارقمه كأنما ألقى جلمدا . فأجمع بعضه الى بعض كما يفعله بعض المرورين بالحصا والبعر ان جلس ازاء طريق . يتلهى بذلك عما به . أو لعل هذا الجمود المستولى علىّ . هو الذى عدا الى القريحة فبلغت بها البرودة المائة تحت الصفر .

حقا ان هذا هو السبب . فشتان ما بين بيئة ابن زيدون في (اشبيلية) في حضرة ابن عباد . وفي ضفة الوادي البديع . وفي وسط ذلك المحفل الأدبي الرائع . وبين ما أنا فيه بـ (الغ) من حياة عابسة قاتمة منزوية . كأنما يتلمس أعمى بيده نواحي جدران سرداب عميق داج في ليلة غدافية الاهاب . فانّى يبصر ولو لمحة من نور بصيص . وانّى يتسرب اليه منه لو كان ؟ فقد نزعنا من المحيط الذى كنا به ما كنا الى محيط آخر . أحيط بأسوار وأسوار من جمود وجهل وخمول . فكيف يمكن أن تنبعث الفكرة أو تبض القريحة ؟

لا أدعي - وحاشاك - انني في مستوى ابن زيدون . فأكون اذن أخرق احمق . غير أنني أدعي أن مصابي أعظم من مصابه . فكان المتبادر أن انفجر بأي ماء احتويت . وان لم أكن في صفاً معين ابن زيدون ولا في كثرته .

الزفرة الثالثة

(عيد ولكن ...)

١٠ - ١٢ - ١٣٥٩ هـ

عيد ولكن أين ما اعتاد عندى اذا ما حلت الاعياد ؟
أين (الرميلة) أين بهجتها ؟ وأين بنو (الرميلة) من هم الأكباد ؟
حتى ذكاء اليوم في اشراقها يعلو كسوف فوقها وسواد
فكأنما الأفق الصقيل بمنظرى حسناء جلل حسنها احداد
الأهل في تعييدهم وأخو النوى فيما تذوب بناره الاطواد
ما ان تجول عيونه من حوله حتى يزاد لحزنه الايقاد

يقعى بقعر بويته متحفزا
بالليت وهو بصوته نهاد (١)
مثل الاسير مقدما والسيف فى
هز وقد استوفز الجلاد
ايه بنى (الحمراء) يا من ودهم
لحياتى الاطناب والأوتاد
بكم قنعت مسارح الامال ما
عندى وراء ودادكم مرتاد
أوردتمونى نطفة يا طالما
سيمت فخابت دونها الوراد
من مثلكم من مثلكم أهل الوفا
ان عدت الامثال والانداد
أأنا ـ وتب العاذلون ـ أرى لكم
شبها ؟ وكيف وكلكم أمجاد ؟

* * *

بلد طيب وأهل لطاف
أين أهل نظيركم وبلاد
نهف حافز يهز فؤادى
كلما اهتز بالدواعى الفؤاد
هاهو العيد عنّ فى اليوم فاهتـ
ـز للقيا الاخوان لولا البعاد
هيج بالذكريات عن تلكم الاعـ
ـياد فاهتاجه الذى يعتاد
ـاه انى شغلت عن وزن نظمى
فتخطى فيما أقول السداد
غلبت ذكريات صحبى فضلت
فى قريضى الاسباب والاوتاد

الزفرة الرابعة

يقولون شكرا ... ! ولكن

١٧ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

جلس الىّ بعضهم يسليني . يقول : أحمد الله حين لم تبق فى (مراكش) والا لكنت مع المسجونين الآن فى (ردانة) أو ممن أصيبوا بالوباء المنتشر هناك . فزفرت هذه الزفرة :

يقولون شكرا اذ نفيت من (الحمرا)
ولم تك ممن ذاق فى مطبق ضرا
وشكرا عظيما بعد ذلك ثانيا
اذ الرزء بالطاعون لم يصلك الجمرا
فكل بنى (الحمراء) ما بين هارب
ولما يصب ؛ أو من يزجونه قبرا
فلو كنت فيها اليوم ما أنت فاعل ؟
بربك قل ماذا ؟ ألاتشتهى صحرا ؟
ألا تتمنى ان تجاور هكذا
أقارب لم يالوك جهدهم برا
ألما يئن ان تعرف الله فى الذى
يخار لمن يرضى له الرفق واليسرا
ألما يئن ان تترك الشكو جانبا
وتنفض عنك السهد والحزن والزفرا

---

١) الليت بالكسر : العنق . ونهد الى الشىء نهض اليه قاصدا .

ألا تحمد الرحمان حمدا متابعا ... ألا تشكر المولیك عافية شكرا
فقلت لهم أني لربي شاكر ... على كل حال في المسرة والضرا
وما شمت للرحمان مذ عهد نشأتي ... سواء جميل الفعل باليسر والسرا
ولست بذي جهل فانكر فعله ... متى كانت السراء أو كانت الاخرى
ولكن يا للناس قلبي منازعي ... فيابي سوى ذكرى صحابي في (الحمرا)
أغالطه بالرشد والنصح عل أن ... سيصبر لكن كيف يحتمل الصبرا
وءاتي بما تدلونه من حجاجكم ... اليه ؛ فيا سرعان ما يلتظي جمرا
فيطفر ما بين الحنايا كأنما ... يحاول بالطفرات أن يخرق الصدرا
حنانيكم يا ناصحي فانني ... لأعلم منكم ذلك النصح والبرا
واعلم حق العلم أنكم بنو ... جدودي ومن هم بارتياحي لهم أحرى
نصحتم وواسيتم وحاولتم بما ... تطيقونه ان تكشفوا عني العسرا
و لكنني - والله يعلم - لم أطق ... مداواة ما في القلب والكبد الحرى
فان بني (الحمراء) قد اوسعوا يدي ... أيادي لو أنكرتها اختشى الكفرا
فعدت لهم رقا بما ملئوا به ... يدي معا مما غدوت به حرا
نزلت بهم قدما جهولا فلم اكد ... أفارقهم حتى أتت صفة أخرى
وما كنت في حين افتخار وانما ... ينال ضياء الفجر من صاقب الفجرا
أأنسي أناسا قد وردت جوارهم ... معارف أعلتني على منكب الشعرى
فلا كان من ينسى الجميل وان هوت ... به محن زجته من عسفها جحرا
على أنني ما شمت مذ فارقتهم ... عيوني ؛ وجوها مثل أوجههم غرا
فمازلت مذ أنزلت رغما بأرضكم ... كئيبا حزينا لم اشم قط ما سرا
أحس كأني وسط جحر مضيق ... وكيف تظن الليث ان أودع الجحرا ؟
أظل بحزن لا أرى بجوانبي ... سوى ما يطيل الشجو في الصدر والزفرا
واسهد من فوق الفراش كأنما ... تفلتت في بير ولما أصل قعرا
هموم وأشجان ووسواس غربة ... فلله ما تصلى يد النوب الحمرا
يمينا وانى من تبر يمينه ... وان يفرش السعدان أو يصدم الصخرا
لأبتعدن الدهر عن كل نفحة ... الى أن يشم الانف ذيالك الزهرا
فلا كان يوم تطبيني بشوكها ... سباسب (الغ) الموحشات الربا القفرا (١)
ولا كنت ان انسيت عيشا تمتعت ... بـ (مراكش) عيني بجنبيه مخضرا
فهل كنت الأطي أضيق (مطبق) ... وفي أعظم (الطاعون) في هذه الغبرا
فلا مؤنس لا ؛ لا ؛ ولا خبر ولا ... تباشير بشر لو تطلبت لي بشرا

---

١) أطباه بتشديد الطاء : استماله . والسباسب : القفار .

فقد عادت (الغ) لى كقبر أسام فى
مناكيدهـا العسف المكرر والقهرا
فمن كان فى هذى الرزايا يظن أن
تفلت مما كان يذكر فى (الحمرا)
لقد ذقت (سجنا) ضيقا وسط الفكم
وافظع (طاعون) وأعظمه مُـرا
وذقتم معى ما ذقت لكنكم بلا
شعور ؛ فأنّى ذلكم عندكم يدرى
سكوتا سكوتا لا أريد نصيحة
وان كنت أدرى ان فى ضمنها خيرا
فانى لسكنى أرضكم غير مرتض
والله ربى وحده أرفع الأمرا

الزفرة الخامسة

يـاليت شعرى ....

١٧ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

ياليت شعرى وايام الورى دول
والمرء لولا مناه ذاب بالكدر
اقدمى بعد فى (الحمراء) ماشية
وجائل بينَ هاتيك الربا بصرى
فتنعش الروح منى بعدما ذبلت
بما أقاسيه بين النأى والسهر
اذن أعوذ الى محياى مغتبطا
فاجتنى من جديد يانع الثمر

الزفرة السادسة

وارحمتا لغريب افرغ من حجام ساباط

١٩ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

يا ويلتا قطع اليأس المميت يدى
لم يبق لى من رجائى مثل قيراط
قد عدت أجلس وحدى بين وسوسة
تفرط بين الحنايا اى افراط
حتى الكتابة : انسى من لدن سنة
قد قيدت لى باشراط واشراط (١)
وارحمتا لغريب كـان يألف مـن
نشاطه خوض اجناس وارهاط
كـل الزمان يقضيه مباحثة
عسى يبين حقا بـين اغلاط
واليوم الفى عليه الدهر كلكله
فعاد افرغ من حجام ساباط

---

١) قيل لى : لا تكتب الى أحد ، والا . . . والا . . .

الزفرة السابعة

حظي ممن يشفقون الدعـــاء

٢٠ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

نسيني الدهر كأن لم اكن   من قبل هذا اليوم مذكورا
احيا بـ (الغ) مفردا خاملا   منكب اللقـــاء مهجـورا
ينكرني من كـان يعرفني   يـاويـح من يصبح منكـورا
حظي ممن يشفقون الدعـا   كـأنما أصبحت مقبـــورا

الزفرة الثامنة

زفرة حارة على اعواز الجيب بادئ ذي بـدء

١٨ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

يـا ليت شعري والافلاك دائرة   بعض الاحايين بالآمال جمعاء
هل أجلى بي ممتد الحبال الى   أن اجتلى فيه وجه العيش وضاء
فانني الآن قد أرخت عزاليَها   مفاقر هطلت على سحـاء
فالصدر ممتلئ بالضيق حين خلا   كيسي فيا لزمان عاد اسواء

الزفرة التاسعة

ســـراويل ممزعة

٢٨ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

يـا لي من دهر علي عـــدا   لاسبدا أبقى ولا لبـــدا
هـذي سراويـل ممزعـة   في أرجلي طرائقا قـددا
طاف بها الرزء الذى قد غدا   لكـل مـا أملكـه رصدا
طاف بثوبي بعـد أن لم يـدع   قلبا بأحشائي ولا كبـدا
فالحقتهـا يـده بالحشا   يـا قطعت يد الزمان يدا

قسمتها التمزيع يا للورى | هل منجد هل من يمد يدا
لم يبق غير ما لبست فما | ألبسه ؟ من أين أن أجدا ؟
وانني في غربة لا أرى | متكئا فيها ولا سندا
هذي سراويلي مقطعة | فقطعت بين الحشا الخلدا
يا رب هل أجد من درهم | فاستجد حللا جددا ؟
فقد خلا الكيس وقد صفرت | كفي فلا فرد ولا عددا
آه من الدهر وازرائه | فالدهر غير راحم أحدا
لا يرحم الغريب مثلي ولا | يبقى له نبعا ولا مددا
وليس بالرائي لما حز في | كبده الحرى من أمضى مدى
فانني من بعد أن كنت ذا | جاه وذا مال وحلف ندى
أصبحت يومي مملقا عاريا | في كسر هذا الكوخ منفردا
مرتطم الصدر بهم كما | جاش العباب الزاخر الزبدا
يا أيها القارئ لا تعجبن | مما رأيت في القريض بدا
من كلمات مسحت من روا | ء الشعر كالاحول ان رمدا
حتى غدت في ذوق سامعها | ثلجا اذا تنشد أو بردا
فانه هذر من حم ان | سطا عليه داؤه حردا
يصبر ما يصبر لكن اذا | فقر يلاقي صبره نفدا

ثم لم يلبث لطف الله أن أغاث من خزائنه . فزال الاعواز . فكانت دعوة سرعان ما استجيبت . ثم توالت الخيرات حتى اكتظت الحقائب بأنواع الثياب . وحتى زخر الكيس بالدراهم . والحمد لله على ما أنعم . والشكر للذين جرى ذلك على أيديهم . جزاهم الله كل خير .



خـــاطرات

سقـوف تكف كـلها ١

كانت ليلة ٢٨ ـ ١٠ ـ ١٣٥٧ هـ ليلـة ليلاء . سالت فيها السقوف من الدار التي اقطنها حتى لتكف على جسمي ست وكفات طوال الليل . بعد أسبوع استمر ممطرا غدقا . فكم خشب سجد . وجدار ركـع : فقيل ما ترى :

في كل سقف عبرة وأنين ... ولكل وكف في البلاط طنين
ولكـل ركـن هزة فكأنمـا ... ذكر الحبائب واله مفتـون
ربضت هوامي السحب اسبوعا كما ... سجمت وقد جد الوداع عيون
حتى السطوح كأنها ؛ والماء منـ ... ـبجس يثر ؛ مسايل وعيـون
واليوم مثل الليل في ظلمائه ... قد ألحفته الصائبات الجون
رحماك ربي اين مفرش مضجعي ... فلأعظمي نحو السبات حنين
أنام وسط الماء يطفح ؟ هل أنا ... نون اذا يكرى هناك النون ؟ ١
فالى خيل الحادثات بداد فالـ ... ـمختار مست ساعديه قيون ٢
لولا جوامع سلسلته لصال في ... كل الحوادث صارم مسنون
لكن اذا قفص الهزبر تولعت ... أيدى الضباع به وطال الهون

لعبة النـوى ٢

عندنا بـ (الغ) لعبة نسميها لعبة النوى . فكنت متى ضجرت من شغلي . ومللت من الكتابة . واجمت نفسي من المطالعة ؛ أجمع حولي صبية أهلي : الحسن وعبد السلام . ابني أخي أحمد . وابرهيم وعلي ابني أخي الحبيب . وفيصل ابن أخي محمد . وعبد الرحمن ابن أخي عبد الحميد . فألاعبهم بتلك اللعبة . وفي عشية أمس قبيل المغرب . بينما أنا معهم في ذلك . اذ هتف بي هاتف من باطني : أبعد كهولتك تجالس الصبية . أو من بعد استوائك على المنابر؛ تسوى قعدتك للألاعب . فاطرقت مليا؛ والصبية فيما هم فيه . فقلت لنفسي : ان العتب كله على الدهر الذي لوى عني كل

---

١) كرى : نـــام ٢) بداد كنزال : متفرقة

مونس . والقانى فى هذا الموحش . الذى حرم علىَّ فيه أيضا حتى المجالسة الى من يونسوننى . ثم برقت بارقة أدبية مما يألفه شعراء القرون الوسطى ويلهج بأمثاله اتباع القاضى الفاضل فقلت :

/ وقائلة ما لى أراك ملازما ملاعبة الولدان حولك بالنوى
فقلت لها ان النوى لعبت بنا اناوصحابى من بنى الجزع واللوى
فاضرب فالا بالنوى عل ان أرى ايادى صرف الدهر تلعب بالنوى
فينزاح هذا البين عنا فتنضوى فيالقنا أيضا لذيالك اللوا
فيصبح أيضا شملنا فى انتظامه يتمم كل ما ابتداه كما نوى
/ فيرجع نجمى ثانيا فى سمائه كما كان فى عليائه قبل أن خوى
عسى الفال ياتى مثل ما انا مرتج فيرجع لى فوق الكراسى الاستوا
والا فانى للفراغ وكربه لمزج بلهو كان لى أنجع الدوا
فانزج فى الولدان انزع نزعهم اذا لعبوا ؛ اذ كلنا فى الهوى سوا
/ كذا شاءت الاقدار منى واننى صبور الى ان يعطف الدهر ما الوى

٢٢ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ

المشى بظهر مقوس ٣

ان المصير الذى صرت اليه أنا وأمثالى . وما يحيط بنا من شدائد . والتأمل فى مستقبل البلاد المخيف بظهور ،اثاره فى الضغط على كل من له أدنى مسكة من الوطنية . كل ذلك جعلنى اتعمق أحيانا فى التفكير والاطراق حتى ألفت أن أمشى مقوس الظهر . وبينما أتهيأ لاغفاءة ما بعد الضحى من صبيحة الخميس ١٤ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ . اذ لفت نظرى هذا التقوس الجديد الذى ارزح تحته . فتخيلته كتقوس ظهور نسائنا المحتطبات عندما يؤبن من محتطباتهن مثقلات بابالات الاحطاب . وظهورهن منحيات تحتها . وقد شددن حبالها الى رؤوسهن وترائبهن . مع تعودهن لذلك حتى صار ذلك عادة عندهن . مهما حملن . ومهما طالت بهن المسافة . فقلت :

وقائلة : تمشى بظهر مقوس وما بك من سن وما بك من حدب
فقلت لها من أجل مافوق كاهلى لصرف الليالى من خطوب ومن نوب
فامشى كما تمشين يابنت مازغ اذا أبت من غاب بابالة الحطب

سوأة مكشوفة ٤

في ٢٨ ـ ١ ـ ١٣٥٧ هـ تأملت يوما نفسي وما ءالف من الهدوء . فقلت لها وهي التي لاتعرف الا الاقدام في أعمالها : أأبقى هكذا من غير أن اخوض قط في ميدان المعاركات التي يخوضها اخواني السياسيون . أم أنت أيتها النفس رخوة فروق . فلم انفتل حتى قلت مثل ما كان يقوله أبو دلامة عن نفسه : وما ألذ أن يتناجى الانسان ونفسه بالحقائق .

لدى نظرة فتى طامح — لكن فؤادي في الوغى مائع
ان كان سلم فانا أسد — وسط العرين هاجم دافع
أوجد جد أأكون أنا — كما يكون قنفذ قابع
لم أهج نفسي انما ساءني — صولة غيري وانا ضارع
وحبب الانصاف لي فانا — بذا مقر في الملا صادع
لعلني ان كنت رخوا اذا — يعلو الصريع في الوغى الصارع
أجلو الحقيقة لغيري بلا — زور ؛ عليها ثوبها الناصع
فانني بقلمي خائف — طرسي وفيض فكرتي نابع
وذا هو الحق وذي صفتي — والحق عال دائما فارع
فما انا بين الهدوء وبيـ — ـن الزور فيما قلته جامع
انا شجاع باليراع اذا — به سواي هامع لائع

في موضع يقتضي الافتخار، واستغفر الله من ذلك ٥

٦ ـ ١٢ ـ ١٣٥٦ هـ

فمن كان يرضى مفخرا بجدوده — ويدلي بهم للفخر في كل مشهد
فاني وان كانت أصولي أماجدا — سراة كراما سيدا اثر سيد
سأدلي اذا حق الفخار بسؤدد — طريف كما تجنيه من غصنه يدي
فلوشئت أن آنسي تليدي لكنت من — طرائف مجدي وحدها خير أمجد
ولكنني من ليس يغمط أصله — وان كنت أطويه اذا الناس شهدي

الدعابة والمزاح ٦

حياك الله وبياك يا دكتور زكي مبارك . يا نجم الادب المتألق في (مصر) المحبوبة الى كل عربي . المطبوع على اكبارها كل مسلم . فقد أصبحت اليوم في ٢ ـ ٩ ـ ١٣٥٧ هـ منفردا في غرفتي في منفاي بـ (الغ)

فطويت منذ أن تناولت أكلة السحور كل هذا الصباح تفكرا . وقد منعني مطر يغدق منذ ثلاثة أيام ان أغادر غرفتي الى التلذذ بالرياضة في بسيط قريتنا الفسيح الذي سمح لي به فهذه التاسعة وخمس واربعين دقيقة تصل في اليوم . وأنا لا أزال ملازما للفراش . وقد طار عني الوسن . وعدمت كل الهية أتلهى بها . فتناولت عددا من أعداد مجلة (الرسالة) قد مضت عليه ازمان . وطالعته مرات . فقلبت صفحاته صفحة صفحة . ولا يكاد طرفي يعلق بأية مقالة من مقالات العدد . لانني قرأتها ثم قرأتها . ولا أثقل على الاديب من ان يعاود ما كان رآه مرات . لكنَّ عيني مع ذلك . انتشبت بغتة باحدى مقالات الدكتور زكي مبارك مع ليلاه العراقية . فمشى البصر معها حتى وقف على هذه الجملة :

(... المزاح كان ولايزال من أشنع البليات ؛ وما استطاع انسان أن يجرح قلبي الا عن طريق المزاح ؛ والاحباب ينسون جانب الادب ؛ فيتطاول بعضهم على بعض باسم المزاح)

مرت هذه الكلمة بنفسي فكهربتها ثم أنارتها . كأنما أدار زر المصابيح الكهربائية مدير . فاصبحت بتفكير جديد . فقلت : لاريب أن الدكتور كتب هذا غير مبال بما يتركه وقعه في نفس أمثالي . وانما أتى بذلك عرضا من غير أن يتهيأ له . ويتأمل فيه حق التأمل . ثم هو مع ذلك صادف عين الصواب وأتى بحقيقة ناصعة . جديرة بكل امعان من كل ذي بصر . حقيقة بالاصاخة من كل ذي سمع . ومن منا لم يقع قط في جرح الكرامة من بعض من يعزون عليه أثناء ممازحة معه ؟ أو من الذي لم يحس قط بوخزة مؤلمة أن كان يمازحه في بعض الاحيان من لايرعون واجب الادب . فيتطاولون عليه وعلى هتك كرامته باسم المزاح ؟

جال فكري كثيرا فيما لاقيته بنفسي . وما قاسيته مرات مدافعا أو مهاجما . اذا تطايرت شهب المداعبة المفرطة . فحين كان حسي مرهفا . وشعوري بواجب أدب المجالسة رقيقا . كثيرا ما ارجع على نفسي بلائمة ملحة . ان فرط مني ذلك . وكثيرا ما يفرط مني قرص مع من يمازحونني وأمازحهم . حتى ليرتفع بيننا أدب الاجتماع . فان أنس لا أنس انني كنت مرة مع فاسي في احدى قرى البادية نازلين عند كريم من كرماء الصوفية كان يحترمنا جميعا . ويحترمني انا أكثر . لما أمتُّ اليه به من رحم خاصة فافرطت مع السيد الفاسي أياما في المداعبة ـ وأقر بأنني متى أفلت زمام نفسي أثناء المداعبة . قلما أراعي ما أقول . أو أعي ما أفعل . وأعد ذلك مني ذنبا عظيما . وخلقا مشنوءا ـ فأدانا الحال الى أن وقعت معه في الموازنة بين

الاخلاق . فجلنا بين البادية والحاضرة موازنة بين ما يختص به كل فريق من طباع . فاسهبنا في ذلك . فكان يذهب الى رفع كل ما يتخلق به الحاضرون ويفوز مني بمثل ذلك البادون . فتدور مناظرات معسولة . فكنت افرغ كل ما في جعبتي في تاييد حججي وبراهيني . سالكا كل مذهب . طالعا من كل ثنية ؛ طارقا كل باب . سائقا كل ما أعرفه من حكايات عن اهل (فاس) صحيحة أو مفتعلة . ففرط عن لساني ذكر كياستهم وحذقهم في اكتساب الدينار والدرهم . فبرعت ما شاءت لي البراعة . فلم أدر كيف لمست عاطفة الرجل ومسست شعوره . وأنا تحت سكرة عدم المبالاة . ثم تفرقنا الى مضاجعنا .

... حضر الطعام صبيحة اليوم الثاني . فأرسل رب المثوى الى السيد الفاسي ؛ فاعتذر عن المجيء . فحين بحثنا عن السبب . عرفت انه في غيظ عظيم مما سمعه مني . فلم تحملني ارض ولا سماء . ولا حواني مقعدي من شدة ما أنا فيه من الخجل العظيم من الرجل . لأنه كان من أودائي. ويسوءني أن يراني بعين من يرى انني أتعمد الاساءة اليه . فاسرعت اليه . واكببت على ترضيته . وعلى القسم بأحرج الايمان انني - والله يشهد - لم يفرط مني ما عده اساءة الا مما استولى علي من سكرة المزاح . فما فارقته حتى اظهر أنه صدقني . ثم لم يزل ذلك قط عن ذهني كلما جرى على ذاكرتي . واقول : واسوأتاه ممن كان يحمل لي حسن ظن . ثم اكون السبب حتى تكدر نطفته . ولا يعلم الا الله ما ألقاه دائما من وخز الضمير . كلما رأيت الرجل . أو سمعت بمن يذكره .

كما انني وقعت مرة أخرى مع أديب كبير وزعيم شهير في مثل هذا . وقد ذاع وشاع ما كان دار بيننا من تلك السهام التي فوقها الى ذلك الأخ . وما سبب كل تلك المعركة الا المزاح . وقبح الله المزاح الذي لايرعى معه أدب الاجتماع . وخلاصة ما وقع ان ذلك السيد كانت حبال المودة وثيقة متصلة الاواصر بيني وبينه أياما . قبل أن يسافر عني سفرة . عام ١٣٤٦ هـ . وكنت أنزل عنده في داره في محله . كما انه يزورني وينزل عندي اياما في المدرسة العنانية بـ (فاس) فكنت أنا وهو وأبو المزايا ابرهيم الكتاني وشاعر الشباب الاستاذ علال الفاسي . والمفكر الكبير السيد العابد الفاسي . والاستاذ محمد الغازي ومولاي الصديق العلوي . وعبد الهادي مكوار . نقضي أشهرا وليالي كأنما صيغت من السرور والحبور . فلا تسل عما نخوضه من كل واد . ثم سافر السيد الأخ المذكور . فسبقنا جميعا الى احراز تلك الأمنية التي كانت أكبر امانينا جميعا اذذاك . فكنت اغتنم الفرص لأكتب اليه كما كنت اتحدث معه . فاتخطى واجب الأدب

واللياقة . وحرمة الضمير الحساس وقد ملأت اليه رسالة بالمداعبة عن حسن نية ـ والله يشهد ـ فلم أكن استفيق الا يوم جاءتني منه رسالة كأنها شعلة من نار . وقد حمل كل ما أمازحه به على الحقيقة . فجالسني الأخ (فلان) في البستان العمومي في (ابي الجنود) فيسر علي من تلك الرسالة الاثيمة . فأغرقتني حياء من الرجل . حين فهم كلامي على غير وجهه من أنني المزه وانبزه حقا بما هو منه براء ـ وحاشاه ـ حين أزنه بكيت بكيت . وما مثله من يظن به ذلك . وأنا أعلم من نفسي أنني لو كنت اظن ذلك واقعا منه حقيقة لما كنت أجابهه به . فأنا أعقل من ذلك . فانصفت الرجل من نفسي وقلت ان الرجل معذور . ولم يكن يعرف اخلاقي على حقيقتها . فصببت الماء البارد على تلك الشعلة . فكتبت اليه بما لعله ينقص من حرارة غيظه . ثم ادى ذلك الى أن انسد ما بيني وبينه لكثرة خجلي منه . ولانغلاق قلبه دوني لشدة الصدمة العنيفة التي صدمته بها فيما سبق الى ذهنه . فارسل هذه الرسالة التي لم يراع فيها الا ولا ذمة . وكنت اذا لاقيته أرى منه ترفعا عني. كما لعله يرى مني مثل ذلك. فكان هذا من اثر المزاح الأثيم الذي صدر مني . وياليتني مت قبل ان يصدر ذلك مني . لان لذلك الاخ مكانة أية مكانة في وطنيته . وفي عمله . الذي يقوم به نحو شعبه الكريم . ومثله في كل أوصافه العليا قليل بين شبابنا العامل في تمهيد السبيل أمام النشء المغربي الحي . وقد كان مما ورد في رسالته هذه قوله : (ومن تكون انت ؟ فأنا الذي نفخت فيك من روحي) فصار الاخوان بسبب ذلك يكثرون التندر بالنافخ والمنفوخ. وأنا أقول : انني انتفعت به وبأمثاله جزاهم الله خيرا

وهناك حكايات كثيرة امثال هاتين صدرت مني . فتجرعت مرارتها . كما ان هناك اخريات . ربما كانت أكبر من اختها . تلقيت فيها سهاما مريشة من أيدي بعض من كنت معهم في ميدان الدعابة . ولم أسلم الا من الذين كنت احادثهم وأداعبهم بمقدار . كما انه ربما لم يسلم مني الا الذين كانوا يتمشون معي دائما في الساحل من المزاح . ومن اراد أن يسلم عرضه واخاؤه . وان يسلم منه عرض أصحابه واخاؤهم . فليقلل من المزاح ولا يوغلن فيه أبدا . وان وجد مكان القول ذا سعة . ويرحم الله الذي قال في البيتين المشهورين شهرة قفا نبك ... :

افد طبعك المكدود بالجد راحة	يجم وعلله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن	بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

ان كلمتك أيها الدكتور كلمة ذهبية قيمة نفيسة . لها مكانتها بين الكلمات الذهبية العالية . وان كنت انما القيتها عرضا . كما القيت أمثالها من الحكم الغوالي في ملاجاتك مع ليلاك .

حــول دعــاية فرنسة في (المذياع)

اثناء السنة الاولى لهـذه الحرب العالمية الثانية

(بعد قيام هذه الحرب واتفاق (روسية) مع (المانية) أخذت (فرنسة) تدفع أناسا الى الخطب في الاذاعة ضد (روسية) كل يوم خميس . فحز ذلك مني حزا . فصبرت ما شاء الله حتى مضى ما مضى . فكتبت اخيرا هذا المقال لما بعد اليوم . فهو فــي ذمة التاريخ الى أن يتهيأ له الخروج الى الوجود فيذاع بدوره . ليعلم غدا ما يقوله مغربى من عرض المغاربة الاحرار)

اصطدم الشره الاوربى بعضه ببعض . واضطرم هلع ارباب السيطرة على العالم . خوف أن يحال بينهم وبين ما يالفون . فشبت لظـى الحرب الهائلة التى نشاهدها اليوم تأكل الرطب واليابس . وتهدم الشعوب . وتقلب العروش . لايدرى الا الله أهذه بدايتها أم نهايتها . كما لايدرى الا هو لمن تكون الغلبة أخيرا . وان كان يستوفى الغالب والمغلوب في هذه الحروب

جاشت (المانيا) بحجة الممر البولونى . وماجت أفكار جيرانها خوف أن تتعشى بهم بعد أن تغلبت بـ (بولونية) فكانت الصدمة الهائلة التى اهتز لها ما بين المشرق والمغرب التياعا من أن يمتد زلزالها الى كل أرجاء العالـم ؟

بالامس طويت (الحبشة) و (ألبانية) و (التشيكوسلوفاكية) وفـي اليوم انهارت (بولونية) فـ (النرويج) فـ (الدانمارك) فدول البلطيق فـ «هولاندة» فـ «بلجيكة» فـ «فرنسة» اتبقى الحال على هذا أم تدق ساعة «بريطانيـة» لتذهب عظمتها في العصر الحديث كما نرى عظمة «الصين» القديمة تذهب شيئا فشيئا تحت ضربات (اليابان) الجبارة . ان كان للجبروت دوام .

أين اقطاب «فيرساى» أين كليمانصو ؟ أين لويد جورج ؟ أين ويلصون ؟ بل أين دالاديى وتشامبرلان ؟ اللـذان كانـا هما السبب الظاهر في اشعال أتون الحرب الحاضرة بتصلبهما ؟ فقـد طويا اليـوم واسقطا من رئاسة دولتيهما مدحورين مذمومين . فجـاء آخرون وراءهما . فمن معلن بأن من قبله كان على خطا كرئيس «فرنسة» اليـوم الماريشال بيتان الذى سيحاكم دالاديى عن قريب . فخلفه بول رينـو . فعضدهما كاملان . ومن راكب رسنه متماد في الصلابة كتشورشيل الذى لايزال يزيد

النار وقودا . فاما كليمانصو وولصون فقد صارا رمة فاستراحا . واما لويد جورج فانه ما زال حيا ليعذب بما يشاهده من انهيار العالم الجديد الذى كان يدعى بأنه أسسه على مبادىء «فيرساى» فانه اليوم يتمزع حنقا. ولو وجد متسربا الى أعماق الثرى لالتهمه الثرى فيمن التهم من جبابرة القرون القديمة والحديثة . ثم لم يبقوا الا احاديث عبرة . ومضارب أمثال عند كل جبروت جديد .

طارت بـ «فيرساى» هبات الاعصار الذى أثاره من آثاره . وما كان ذلك العقد الا آئلا الى ذلك . والدنيا ايام (وتلك الايام نداولها بين الناس)

طغت دول الديموقراطية ـ كما تسمى ـ على العالم وتجبرت وظنت ان رياحها التى تسير سفنها لايعارضها معارض . فالقت كلاكلها على ضعاف الأمم تطحنها بلا شفقة . وتمضغها مضغ الحنق الذى طالما حرق عليها الأرم . فها هى ذى اليوم تلقى بعض جزائها جزاء وفاقا (ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون) ثم لو كان جبراتها كجبروت القرون الغابرة واضحا بارزا . غير مبرقع بكلمات منومة معسولة . لربما كان فى ذلك ما قد يزيل الألم . ويبتر عضوا وحده بادىء ذى بدء . وأما وهى عابثة بالعدالة . تلوكها بألسنتها ولا تطبقها . ومتلاعبة بالشعوب الضعيفة تلاعب السنانير بالفيران التى القاها سوء البخت بين أنيابها وأظفارها. فان ذنبها لايغتفر . وجريمتها لاتغفل . فالديمقراطية تعلن كأنها مبادىء يتمشى عليها . على حين ان العسف والنسف والتحطيم تعمل عملها بهدوء عجيب . فالأكف تخترم . والثغور تبتسم . فكان فيهم كما قيل :

فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

فاى واحد من أهل شمال (افريقية) كله . ومن أهل (الشام) فـ (العراق) فسواحل (جزيرة العرب) فاهل (الهند) وما الى ذلك كله من أطراف العالم الذى كان له تاريخ مجيد . وحياة مدنية ما شاء الله من القرون . أى واحد من اولئك كلهم يسمع تلك الغنة التى تدعم بها (فرنسة) و (بريطانية) حجتهما فى مقاومة (المانية) حينما يقولان ان (المانية) دهمت (النمسة) ثم (تشيكوسلوفاكية) بحجج واهية . وما مقصودها الا استعمارهما والتقوى بهما . واستنزاف ماليتهما . فهل تستطيع (فرنسة) و (أنكلتيرة) ان تأتيا بحجج أوثق مما تنكرانه على (المانية) حين تحتل احداهما (عدن) و (زيلاندة) و (الهند) و (مصر) وكثيرا مما صارت به بجراء منتفخة البطن . وحين تحتل

صاحبتها (الجزائر) فـ (تونس) فـ (المغرب) بكل ما جعجعت عليه بكلكلها الثقيل الطاحن الساحـق . اما نحن الذين ذقنـا مـن استعمار (فرنسة) وصاحبتها ما ذقنا فاننا نقول : (ما أشبه الليلة بالبارحـة) وربما كانت حجة (المانية) أوجه من حجة (فرنسة) التى كانت تحتل فى الأمس القريب (وجدة) بسبب سقوط واحد من الاطباء الفرنسيين لعب به الجهال من رعاع (مراكش) والتى كانت تحتل (الدارالبيضاء) بحجة أوهى من نسج العنكبوت

ثم ان الأدهى والامر أن (فرنسة) وصاحبتها مع محقهما الشرقيين اجمعين بسياستهما الجهنمية مباشرة وغير مباشرة . تقفان اليـوم بأنـوف لاتعرف الحياء . خلقت من الوقاحة . تزعمان أنهما مدنتا وقدمتا مستعمراتهما الى الامام . فيا للناس لِلكذب المكشوف . وقد كان ينبغي قـول ذلك او ادعاؤه بعد أجيال . وأما ونحن ابناء هذا الجيل الذى لانزال نتجرع غصص عنت الاستعمار والجبروت . تحت اسماء مموهة من التمدين . أو الحماية أو الوصاية أو الانتداب . فلا نصدق بذلك الا اذا ذهبت بعقولنا الذواهب

انني كنت أمس القريب أتتبـع خطب الخطباء المغاربـة فى مذياع (الرباط) منذ اندلاع الحرب . فاسمع هراء ملفقا . وبهتانا صراحا . واعمالا يشاد بها كأن السامعين من غـيرهم من المغاربة أو المشارقة صم بكم عمى غفل لايعقلون .

انني أعرف كثيرين ممن وقفوا أمام المذياع فى أيام الخميسات فـى (الرباط) فاتيقن أنهم يقولون ما لا يعتقدون . ويشيدون بمـا لايعلمون . ولو سألهم احد ممن يفضون اليهم بذات أنفسهم . لأعلنوا الحقيقة . ولكانت هذه الحقيقة هى أنهم مجبورون على هذا القول جبرا ممضا . فيعذرهم بذلك من ابتلى بمثل بليتهم . ويلحفهم بسوط التأنيب من لايرضى لهم أن يقفوا ذلك الموقف لمكانتهم فى الامة المغربية التى يمثلونها .

كنت انتظر أن أسمع هناك شابا من الشبان الاحياء . أصحاب الضمائر النقية . وذوى الصراحة فى القول . فلم أقع على أحد منهم . كأنهم تكاتفوا وتعاهدوا على الابتعاد عن ذلك الموقف الذى لايقفه الا من لايبالى أنقيا كان ذيله أم متسخا .

(وبعـد) فقد اتضح النهار . وظهر للعالم أن البارزين كانـوا فائلى الآراء فى ادارة شؤونهم الخاصة . فكيف بهم فى ادارة شؤون غيرهم . وكفى بذلك عيبا فاضحا . وعارا خالدا . وشنارا يبقى ما بقى الدهر . (ولـم يغلبك مثل مغلب)

انني أعرف من مساوىء من نعرفهم من رؤساء الادارات عندنا ما لو تتبعته لكان مجلدا ضخما خالدا . لو خرج للناس لأتى كل مطلع عليه بألف دليل قوى على أن ذلك كان ديدن كل المستعمرين الذين قلوبهم (كالحجارة لاترق) وان تظاهروا بما تظاهروا به من الملاينة والمخالقة . فأين هذا مما يبهرج به أولئك الخطباء . ويصدعون به الرؤوس . مما يقرون به هم أنفسهم فى وقت آخر بانه كذب فى كذب . فاذا كانوا هم أنفسهم يقرون بذلك . فكيف يكون ازاءه غيرهم من ذوى الافكار الحرة . والضمائر الحية . فما بين هؤلاء المبهرجين بالثناء المختلق . والاشادة الملفقة . وبين أقوال الحقائق الناصعة . الا عكس ما يقوله الشاعر :

كريم متى امدحه امدحه والورى معي واذا ما لمته لمته وحدى

فمشيد مجد الاستعمار وأهله سواء أمس واليوم . لايكون الا وحده . وأما من يكشف عن الحقائق لكل أحد عما كان يعرف له الف نظير . فان الناس كلهم معه . وذلك مصداق ما يقال : (الحق أبلج . والباطل لجلج)

انني أتعجب من اتفاق المغاربة كلهم على كره أبناء (السين) سواء فى ذلك الموظفون وغيرهم . فانني كثيرا ما اتصل منذ بداية هذه الحرب بما يتداول بين الناس فى ناحيتنا هذه . فاسمع عجبا . وأشاهد من الناس اجماعا على بث كل ما يعرفونه وما لايعرفونه من مساوىء هؤلاء المستعمرين البارزين . حتى لاخال دعاية نظمت لنشر كل ما أسمع . كما ان كل الناس اتفقوا على أن القوة الجرمانية اعظم وأهول وأنسف . وأكثر تحطيما . وان للجرمانيين فى اصابة المرامى . وقرطسة الاهداف ما لايدركه خصومهم . ثم يعقب كل واحد ما يروج من الاحاديث بأن العاقبة للجرمانيين . هذا كله كان قبل شهر مايه . وقبل الهجوم على الغرب . وقبل سقوط خط (ماجينو) الذى لم يكن يوصف الا بانه خط عتيد لايقهر . فهل للقارىء أن يصيخ ولو قليلا ليتفكه معى ببعض ما كنت اسمعه يروج عن ذلك فى باديتنا هذه :

مما سمعته ان للجرمانيين اختراعات لايكيف وصفها . وقد ذكر لى انسان من أكابر قومه . وممن يرى فى نفسه أن له عقلا جبارا . ان الجرمانيين طلبوا ان يجتمع مندوبوهم مع الآخرين . ليروهم ما هيئوه للحرب . فان كانوا يقدرون على مقاومته فبها ونعمت . وان كانوا يدركون انهم دون ذلك . فليستسلموا منذ اليوم . فلا فائدة فى حرب لايرجى فيها

انتصار . قال : فلما اجتمع مندوبوا الخصمين على سيف بحر . اخرج الجرمانيون كرة ديناميتية فى صفة بطيخة . فصار المجتمعون يتداولونها بأيديهم . ولايدرك خصوم الجرمانيين منها شيئا . ثم تناولها احد الجرمانيين فالقاها فى البحر . فاندلع منها شواظ هائل من نار عظيمة ملات الأفق. واكتسحت من ظهر البحر مئات من الاميال . فصارت تدور على نفسها فى لون أصفر فاقع . فبعد ساعة التفت الجرمانيون الى خصومهم فقالوا لهم : أترون السفن البحرية والبوارج الهائلة تنجو من الاحتراق وسط هذا اللهيب الشديد ؟ فقالوا لهم : لا . فقال الجرمانيون : أعندكم ما تقاومون به الآن ازاء هذه النار التى تشتعل فى وسط الما' . فتعم مئات من الاميال . كما ترون فوق ظهر البحر ؟ فقالوا : لا . ثم قال لهم الخصوم : وكيف تصنعون الآن حتى تطفئوا النار فى وسط البحر ؟ فقال الجرمانيون : هذا من أسهل شىء عندنا . فمد احدهم يده بآلة صغيرة . فحركها تحت ما' البحر . فاذا بالنار قد انطفأت . واذا بتلك الكرة قد انجذبت اليه من بعيد بمغناطيس فى الآلة . فتناولها . فاذا بها كما كانت لم ينقص منها شىء . ولم تنفجر بسبب اللهيب المندلع منها . فعظم تعجب الخصوم . فقال لهم الجرمانيون : ان هذا المخترع من أصغر مخترعاتنا التى أعددناها للحرب. وما اخترع هذا الا' بنت فى سن المراهقة . فكيف اذن يكون ما يخترعه العلماء المسنون من الكيماويين عندنا ؟

وسمعت أيضا أن الجرمانيين تطلبوا من خصومهم أن يملئوا بسيطا فسيح بالدواب المختلطة . من الخيل والبغال والحمير . وهى الالاف . ثم قالوا لهم عينوا أى نوع تريدون أن نجعله هدفا لمدافعنا . فعينوا الحمير . فصارت المدافع تصيبها وحدها بين الخيل والبغال حتى لاحمار حيا . ولم يصب من غيرها ولو واحد . ثم قال الجرمانيون لخصومهم : هكذا نفعل بكم وسط المسلمين الذين تجندونهم الينا . فاننا نهلككم وحدكم . واما المسلمون فليس بيننا وبينهم شىء . فلا يصيبهم منا أذى .

وهناك مئات من أمثال هذه الحكايات . كانت تروج سرا . فتتلقى بالعجب . فيستعظم السذج عظمة الجرمانيين . على حين انهم يستصغرون خصومهم الذين كانوا يضمرون لهم من المقت والازدراء ما كانوا يستوجبونه عندهم . بالجبروت الذى كانوا يعاملونهم به فى كل فرصة فرصة .

لاريب ان أمثال هذه الحكايات لا أصل لها . فيما اعتقد . وانما كانت تلقى كدسائس لتقاوم ما كانت (فرنسة) اهتمت به أعظم اهتمام من بث

دعايتها بالمذياع والصحف . فكانت دعاية هذه الحكايات الصق وأثبت في أذهان الدهماء من غيرها . لمصادفتها هوى في الأفئدة . وقلوبا كانت تحملت ما تحملت من عنت الفرنسيين في كل الاعمال التي يحطمون بها ارادة أفراد الشعب .

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

واما الصحف والمذياع . فانك لاتجد احدا . ايا كان . يصدق ما يرد منها على الاسماع . اتفق الناس على ذلك . وما جر المغاربة الى ذلك الا ما أصلى به المحتلون كل فرد فرد من اساءات متتابعة عظيمة . لاينكا جرحها . ولاينفجر دملها (ومن استغضب ولم يغضب فهو حمار)

اى طبقة من طبقات الشعب المغربي لم تنلها اساءة عظيمة من(فرنسة) التي تدعى أنها ديموقراطية . وانها أم الاخاء والمساواة والحرية . وانها الامة الفريدة في العالم مجدا وفضلا ونبلا . كما تراها تزعمه في كل فرصة ويزعمه لها أذنابها المذبذبون اصحاب التملق وتقبيل النعال . واحناء الهامات وذوو البصبصة كما تبصبص الكلاب لأربابها .

اطبقة الفلاحين الذين هم السواد الاعظم من الامة . وقد شاهدوا باعينهم أراضيهم التي ورثوها جدا عن جد منذ ازيد من ستمائة سنة (١) في بعض جهات (المغرب) ان كانوا من العرب . وازيد من الفي عام او ثلاثة الاف من نواح أخرى ان كانوا من البربر . تنتزع منهم ملكيتها باسماء ملفقة . ما أنزل الله بها من سلطان فيما يرى الفلاحون . فتارة باسم أراضى الجماعة . وهي أرض مشاعة بين سكان القرية . كانت لأحد أجدادهم الذى تفرعوا عنه . ثم بقيت بغير قسمة . لعدم داع خاص لذلك . فيحرث كل واحد جانبا منها متى أراد ذلك . ويحرث غيره جانبا ءاخر . ويتخذ غير ذلك مرعى عموميا للجميع . وعلى ذلك تمشت عادتهم . والارض على كل حال أرضهم . فباى عدل تنتزع منهم . لتدفع للمستعمرين الاجانب ؟ وكيف يرجى من أهال نزعت منهم أرضهم . وهى كل ما يملكون . ان تزرع في قلوبهم محبة لمن نزعوها منهم . أو يكون منهم أى ميل وتدانٍ نحوهم ؟ ان هذا الا طلب المحال . وتطلب في الماء لجذوة نار . ولايعلم الا الله كم قاسى الفلاحون المساكين دفاعا عن أراضيهم . من سجن القواد الذين ينفذون أوامر المراقبين المدنيين والعسكريين . ومن اضطهاد ونفى وكل عنت . ثم زيد على ذلك أخيرا بادارة (المحافظة) المسجلة ما يسجل على وفق مراد الاقامة

١) لم ينتشر العرب في بوادى المغرب كثيرا الا بعد القرن السادس الهجرى .

العامة(١) فليجل اليوم على أصحاب الاراضى المزروعة من يجول. وليتتبع الحوادث ليشاهد كيف ديموقراطية (فرنسة) ذات العلم المثلث . رمز الحرية والاخاء والمساواة فكم رسوم مزقت . وكم منها كشط . وكم أراض حيزت عند أهلها قرونا . ثم لم ينفعهم ذلك الحوز . فأرغموا . بحجة أن ليس فى أيديهم رسوم أصلا . أو رسوم صحيحة . على أن يغادروا أراضيهم وهم فى أحر بكاء وماذا ينفع البكاء . فى مثل قضية (وادى مال) بقبيلة (گـدميوة) بحوز (مراكش) ومثلها آلاف القضايا . شاهدت أنا رسوم بعض أهل هذه القبيلة وعرفت كيف القضية أولا وآخرا ومحصلها :

---

١) فى منشور من مناشير السلطان سيدى محمد بن عبد الله ما يشبه هذه المحافظة . لكنه أقرب منها الى العدل . فانه أوعز الى أن لايشترى أحد عقارا الا بعد أن يستشير القاضى . ثم على القاضى أن يفتش حول العقار . كيف ملكه من هو بيده . وهل فيه نزاع . وهل فيه شفعة . وهل هو خالص لمالكه أو معه فيه ورثة أو شركاء . فلا يأذن لمن يسومه بالشراء أن يشتريه الا بعد أن يستبرىء حول كل ذلك . ثم اذا اشتراه مشتر وحدث فى شأنه شئ . فالمسئول عنه هو القاضى . فهذا أقرب الى العدل . وان كان ربما يظهر من ذلك بعض اجمال . فانها على كل حال خطوة أولى الى تقليل الخصومات فى العقار . وكان يمكن لو نفذ ذلك القانون ـ أن يذيل بذيول بحسب الحاجة . تتمم ما كان ينقصه .

أما هذه المحافظة الحالية . فانما ينتفع بها الاقوياء لا غير . فكم عقارات للضعفاء ذهبت ضحية ذلك التسجيل العاسف الظالم . فهى لم توضع من أصلها الا ضرة للقضاء الشرعى الاسلامى . أيام كان جوالا صوالا يتقى بأسه ولايتزحزح عن الحق قلامة ظفر . أما اليوم فقد أناط الاستعمار أمره بأناس ليست لهم كفاءة أهله . ولا ورعهم ولا خلقهم . فكانوا من خير من أعان على الاجهاز على ما بقى فيه من ذماء . يرتشون . ويغضون عن الاحتيالات . ويعينون على اقامة الحجج الواهية . ويلقنونها لمن يجهلها . فوجدت فيهم المحافظة خير مساعد على القيام بما أريد منها من تبرير انتزاع الاراضى الجيدة من أيدى المغاربة . وتمليكها للمعمرين أو أذنابهم . زيادة على ما تعمل به من توصيات وخدمة للمصالح الوطنية الفرنسية التى هى المعيار العام الأعلى لكل شىء عندنا اليوم :

وهبنى قلت هـذا الصبح ليـل   أيعمى العالمـون عن الضيـاء ؟

ان الحكومة حازت أراضي لقبيلة (مجاط) أسفل (وادي مال) باسم الجماعة . وهي ارض بورية . وحين استولت عليها . تعلقت عينها بماء الوادي لتسقيها به . فجرى في اذنها أن لـ (مجاط) حظا في ماء الوادي . فأثارت المجاطيين ليتمكنوا من ماء الوادي من أعاليه . ليصح لهم الماء الكثير . فيتصل به من حازوا تلك الاراضي باسمهم . فتمشت القضية أولا بطريق التداعي الشرعية . وقد وكل أهل (وادي مال) كلهم المسمي : الحسن بن وانعيم . اخا القائد محمد بن وانعيم . قائد (كدميوة) . وفوضو له في الدفاع عن مائهم . فقاوم بما توصل اليه من حجج أهل الوادي المدعمة لما يقولون : من ان العادة ان الماء اذا كان لايكفي أهل الوادي كلهم من كانوا في أعاليه وفي أسافله . فانه يختص به أهل الأعالي . ثم ان فضل عنهم فاضل يكون لمن تحتهم بحسب القرب . وبحسب كثرة الماء وقلته - وهذا قانون شرعي اسلامي - وفي جوانب الوادي سواق رفعت منه . لايكون لكل ساقية منها الا ما فضل عن التي فوقها تباعا . وفي الاعالي ساقية كبرى لسكان الاعالي . وهم أهل الوادي . يقولون انها لهم وحدهم لاحظ فيها لمن في أسفله وهم المجاطيون . وادعى هؤلاء أن لهم حظا فيها . فأصبحت الساقية محط النزاع فادلى وكيل أهل الوادي برسوم . منها ما يدل على أنها أصلحت في نيف وثلاثين من القرن الماضي - الثالث عشر - ولم يقم باصلاحها الا أهل الوادي فقط . ومنها رسم قضاء شرعي مؤرخ بعام ١٢٦٦ هـ . حكم فيه لأهل الوادي بأن الساقية لهم . وان النزاع كان ثار فيها اذ ذاك بين هؤلاء الجيران . فوصلت قضيتهم لسلطان ذلك العصر : مولاي عبد الرحمن . فأوعز الى قاضي (مراكش) السيد الطالب ابن الحاج الشهير محشي (ميارة) بأن ينظر في القضية . فأرسل من محكمته عدولا مع اعوان مخزنيين . فشهدوا بعد رجوعهم بأن العادة ان الماء اذا قل . لايكون منه لمن في أسافل الوادي الا ما فضل عمن في أعاليه . فحكم لهم القاضي بذلك في جمع من الفقهاء بالجامع (اليوسفي) .

فهذه الحجج هي التي أدلى بها وكيل أهل الوادي . وهي كافية كما يرى القارىء . لكنها لم تغن عن أصحابها شيئا في نظر من يتطاولون الى الاستحواذ على الماء . لتتأسس في تلك الاراضي المجاطية أرض استعمارية يديرها الاجانب . فضغط مراقب (أزميز) على القائد الذي كان أخوه هو الوكيل في القضية . فنفض القائد يده من القضية نفضا تاما . ثم صارح أخاه بينه وبينه بأنه متعرض للسخط عليه وعلى كل أهله . ان دام مدافعا في وجه الحكومة . لان هذه صرحت بمقاصدها . ولم تصبر حتى تصفو

القضية للمجاطيين . بل تولت هي الدفاع . فجابهه اخوه الحسن الوكيل بأن من وكلوه استأمنوه على قضيتهم . وسيبذل مجهوده في المدافعة عنهم بكل ما استطاع . ثم تجاوز الامر هذا كله . فقال المراقب للوكيل . (لولاك لصفت القضية . ولم نكن نعتاد من رعاع الناس أن يقفوا في أوجهنا وأن لايتنازلوا عما نريد) فأجابه الوكيل بجواب لايرتضيه . فلم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى ألقاه في السجن . ثم لم يكفه أن يجعله في محل سجن الناس أجمعين . بل القاه في دهليز يتراكم فيه الجير . فليفكر القارىء كيف يكون الرجل هناك . وقد هرب منه كل أهله مخافة أن يلحقهم بسببه ما يلحقهم . ثم بعد سراحه التحق بـ (مراكش) فاستدعى للدفاع عن القضية احد كبار المحامين البارزين المشاهير . الذين لهم مكانة كبرى . فالتحقت القضية بالمحاكم الكبرى . فتعصبت فيها ادارة الاستعمار . وتدخل فيها المقيم العام . فخاطبه فيها المحامي الباريزي . فارتفعت القضية من يد المراقب في (أمزميز) - مركز مراقبة قبيلة (كدميوة) - فلم يجد المراقب من تناله يده للاقتصاص منه . الا أن نسج حول القائد أخي الوكيل أحبولة عزله بها . ثم نفي بعد العزل الى (تيزنيت) ما شاء الله . مع أنه قائد لم يظهر منه للناس ما يستوجب عزله بله نفيه . وهو محبوب عند أهل قبيلته . ومثله على كل حال مثل عشرات من القواد أمثاله أحسنوا السيرة أو لم يحسنوها . غير أن الناس كلهم أدركوا سبب عزله ونفيه . هنا وصلت القضية اخر عام ١٣٥٥ هـ عند انتقالي من (مراكش) .

ثم سمعت بعد ذلك أن ذلك الوكيل نفي الى (تارودانت) ثم الى (أقا) حيث لايزال مسجونا الى الآن . فادركت أن ذلك من أجل تلك القضية .

فلينظر العاقل الى هذه القضية . وليمعن النظر فيها وفي الاف القضايا مثيلاتها . ليعرف كيف نظر الفلاحين المغاربة الى (فرنسة) أم الحرية والاخاء والمساواة . . . ! فانهم بينما يرونها تعاملهم أمثال هذه المعاملات القاسية . اذا بها تاتي بزعانف من المعمرين . فتوسع عليهم في الاراضي . فتدفعها لهم بثمن زهيد بخس مؤجل على نجوم ضئيلة . ثم تعينهم بعد ذلك بكل شيء . فتؤسس لهم الصناديق . وتفتح لهم الاسواق وتعينهم في قضاياهم ضد الاهالي . فهل ينتظر من هذه الطبقة الا الكراهة التامة للفرنسيين ولكل ما هو فرنسي ؟

أم طبقة الموظفين الكبار والصغار . وها هم أولاء يحكي كل واحد منهم أنه لايمثل في وظيفته الا ما تمثله النجوم في الماء ليلا . فالقائد لا رأي له . وانما هو خشبة مسندة ازاء المراقب . يفني ما اثله آباؤه

تزلفا اليه . لعله يلقى منه احتراما ولو صوريا . ثم لايلقى منه في الغالب الا كل اهانة . وكل خطل في أحكام المراقب يطوقه القائد وحده عند الحكومة . واذا كانت هناك محاسن فان المراقب العاقل المعصوم الذى لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . هو الذى يفوز بها . ويترقى بسببها الى أعلى الدرجات . ثم انه كم ركلات يتلقاها بعض القواد من المراقبين . وكم نظرات شزراء يلقونها عليهم في المجامع العامة . فان كان القواد بهذه المثابة . فكيف بصغار الموظفين . كالشيوخ بين أفخاذ القبائل. فانما هم حشرات أمام نعال المراقبين. يدوسونها كلما رفعوا رجلا ليخطوا بها الى الامام . وما راء كمن سمع . ولولا ان كثيرين من المراقبين يختلسون من القبيلة . ويدركون ان القواد لا يخفى عليهم ذلك . ويخافون من الفضيحة . فيداهنون القواد للستر عليهم . لما راى قائد من مراقب يوما أبيض . ولذلك ترى من بين المراقبين من يراعى رؤساء الاهالى . هذا الحال هو الغالب على المراقبين . وقد يكون فيهم من يستثنون . ولكن قليل ماهم

كان في (اينزگان) بازاء (أگادير) مراقب عسكرى يسمى (اولنوا) وكان يجمع من كل جهة . فاستحوذ على كل ما يصطاده الاهالى بزوارقهم في مياه (اگادير) من حيتان . بحجة أنه أسس لهم جمعية . وكان وضع لكل سمكة ثمنا . بل شبه ثمن . يتوصل به الصائد . وبمجرد ما يخرج زورقه يسلم كل ما صاده الى أناس ينتظرونه . ثم يطبخ كل ذلك في معمل هناك . ويصدره الى الخارج . وفي رأس كل سنة يجمع المراقب (الولوا) أناسا سماهم أعضاء . فيخبرهم بأن آلافا قليلة اجتمعت موفورة في السنة . فيعطي لكل واحد عشرات من الفرنكات . ويحتوش هو ملايين من وراء ذلك . ولكن ربما كان هذا كله تحت رعاية الحكومة باسم جمعية خاصة للحوت . ثم صار يحوز الاراضى بالاحتيالات من (هوارة) وادخل معه فيذلك من رؤساء (هوارة) من يعينونه فيما يريد . فكان عملة القبيلة يعملون في تلك الاراضى أياما لكل فرد . وذلك كله في طى الكتمان باسم آخرين . ثم ان قائد القبيلة ـ وهو متعلم ـ خاف على نفسه أخيرا . فابلغ الحكومة أعماله . وذات يوم جاء الجنرال بغتة ـ وهو الحاكم العام لكل ناحية (اگادير) ـ فمر بـ (اينزگان) وصاحب معه المراقب (اولنوا) . وذهبا معا حتى وقفا على تلك الاراضى الهائلة . وفيها كثير من العملة . وءالات عصرية هائلة . فسأل الجنرال لمن هذه الارض . فقال له من وقف على العمل : انها للشيخ بلعيد ـ أحد أثرياء (هوارة) ـ فسأل الشيخ بلعيد فقال له : كانت الارض لى . ثم ذهبت عنى . وهى اليوم

ليست تحت ملكي . ولا هذه الخدمة لى . فهدد الواقف على خدمة الارض . - وكان أهليا - فاذذاك صرح بأنها للمراقب (ألنوا) غير انه مامور أن ينسبها دائما الى الشيخ بلعيد . هذا كله والمراقب واقف ممتقع اللون . يصفر وينظر شزرا . فرجع الجنرال . فعزل المراقب فى الحين . ثم تبين انه ادرك الملايين من الفرنكات . وانه كان يشارك رؤساء الاهالى فى نهبه فكانت (اينزكان) وما اليها فى عهده فى شبه فوضى . ثم حيزت تلك الاراضى . الا انها لم ترجع الى أربابها بل أبقتها الحكومة لنفسها . ونقلت المراقب (ألنوا) الى محل اخر . ولاندرى ما صنعت به . وهذا كله شائع معروف . وما هذه الا قضية واحدة من الاف القضايا التى ارتكبها المراقبون . فليعتبر المدنون المعصومون .

فهل القواد اليوم ومن لف لفهم - وقد دارت الدائرة على (فرنسة) - يصفون بمودتها . فيحزنون لاحتلال عاصمتها ؟ بل هم بين أيديها الآن فى مقدمة الشامتين بها . وأكبر من يكيلون لها بمكيال الخزى والعار . واظهار مساوىء كانوا أعرف الناس بها أكثر من الرعية . لاتصالهم برؤساء الادارات بسبب مقامهم الرسمي . فيحكى كل واحد منهم عمن كان يعرفه من المراقبين أشياء . قلما تخطر ببال غيرهم من الرعية . فلو لم يكن لـ (فرنسة) من المساوى الا ما تبثه اليوم وبعد اليوم . هذه الطبقة من الموظفين لكفى خزيا أبديا يخلد مدى الدهر .

أم طبقة رؤساء المخزن فى (الرباط) الملك فمن دونه . مع أن الكل يعلم الحقيقة التى كان (اليوطى) يتبجح بها . وهى أنه أبقى من الهيأة المخزنية موميات تتحرك بمحرك وراءها . يخفى عن الاعين . فمن يرى الهيأة المخزنية بادىء ذى بدء . يحسب أن هناك مكانة ورايا . ولكن لايكاد يمعن ببصره الا قليلا . حتى يعرف أن ما يقوله (اليوطى) صحيح . وكثيرا ما يقول الصدر الحاج محمد المقرى رئيس الوزارة المؤيد لأصحاب سره : (لاتحسبوا ان فى أيدينا أى أمر أو نهى . فان العون الذى يكون عند شيخ القرية أطول منا باعا . وأكثر منا حرية) فكل واحد ممن يسمون وزيرا أو مندوبا أو باشا أو أى رئيس . عليه مراقب يامره وينهاه . فقطب ماموريته أن يقف عند أمر مراقبه ونهيه . لايتعداه . فتمشى الامور بذلك . فيحسب من كان بسيطا ساذجا فى أول نظرة يلقيها ان هناك فى دار المخزن وما اليها ادارة ورأيا . لكنه لا يلبث على سذاجته أن يدرك أن سلطة الاقامة العامة هى التى تدير كل شىء . أفمن كانوا هكذا . وفيهم من له نباهة وحياة وعقل . يتأصل فيهم ود فرنسى

ثابت . لا والله . بل يكونون أكثر الطبقات بغضا لكل أجنبي . يصيرهم عبيدا مسخرين برغمهم فيما يشاء . بل يلزمونهم مع ذلك أن يملئوا المجالس والجواء وآلات المذايع بالتنويه . والثنا على الاعمال المزوقة الملفقة . ولكن التاريخ كشاف . والحقائق كالشموس في سماواتها . لاتخفى على أحد الا على أكمه لايبصر . ولا يعرف قط كيف يبصر .

أم طبقة الطلبة . وهم في أسفل الدركات منذ عهد الحماية الى الآن . فسواء منهم الدينيون وغير الدينيين . فقد عركهم كلهم الاحتلال بكلاكله الساحقة . فلم يرحم منهم لا شيخا مسنا . ولا كهلا ولا يافعا ولا ناشئا . لان الاستعمار يدرك أن رؤية مساويه كما هي لاتتأتى الا بالعلم . كيفما كان العلم والثقافة . فوقف في وجه طالب العلوم . وصفع في صدور المتصفين بها . فيلقي بهم في مقامات سافلة . فيختار للنشء تعليما مشوها. خاليا من الاخلاق والدين والتربية الوطنية . فكل ما يريده الاستعمار أن يتعلم في مدارسه . هو بعض الطبيعيات وبعض أشياء من أنواع الفنون . مع الرطانة بلغته . ثم يحرص أتم الحرص على أن يجعلوا ـ بفساد أخلاقهم الذي يربونهم عليه في المدارس ـ هوة سحيقة بينهم وبين امتهم . واما أن يوجه النشء الى تعليم صحيح مدعم بالاخلاق والدين . والفكر الصحيح . والعلم النافع للأمة . من طب وهندسة ومحاماة على وفق تشريع الوطن . ومن العلوم الآلية . مع المحافظة على الاخلاق الفاضلة . وعلى العادات التي تتلاءم والمدنية . وتستحسن عند أهاليهم من قديم . ارثا عن الاجيال السالفة فذلك ما يسعى الاستعمار كل السعي أن يحال بين النشء وبينه . فهاهم أولاء كل أصحاب الثقافة الجديدة فهل فيهم من يقف على رجليه ـ الا تحلة للقسم ـ الا من استتم لنفسه . وعول على تعلمه الخاص .

فهذا زمن الاحتلال مضى منه أزيد من ثلاثين سنة . فأين طبيب واحد مغربي . أو عالم الي حاذق بين المغاربة المتخرجين من مدارس الاستعمار . أو عالم حقوقي يعرف كيف يدير المحاكم العليا العرفية أو الشرعية . وان كان بعض من نراه ـ بحسب الندور ـ ملما بذلك . فان في عقليته الجديدة ما يستعظم كل ما لأوربة . ويستحقر به كل ما لشعبه . فينتبذ بالعراء عن أهله . فيحرم نفسه وشعبه ما كان ينتظر من أمثاله لشعوبهم . حتى شاع وذاع وصار كالقضية المسلمة عند كل أحد . ان مدارس الاستعمار لاتخرج لنا الا حثالة سافلة ساقطة الاخلاق . هم بالرعاع أشبه منهم بالطبقة المرتفعة من الشعب . لا اخلاق . ولا دين . ولا مروءة . ثم الأدهى والأمر والانكا جرحا . والاشد مضضا . أن اصلاحهم بعد قلما يرجى . هذا ما

يعتقده كل المغاربة اليوم . وحتى اذا لم يكن الأمر كذلك في الجميع . فهو لعمري حق واضح ملموس في المجموع . ولولا بعض عشرات من بين تلك الآلاف كشواذ أو كفلتات الطبيعة من بينهم اتكلوا على تعلمهم الفردي . فصاروا اليوم زينة للنوادي . وحلية للمجالس . وقرة للأعين . من بينهم كتاب ورؤساء ومفكرون وغيـر على الوطن لما كان لتلك المدارس اثر يذكر وهذه الفئة مرقت عن سبل صواحبها . فلم تنس عادات أهلها ولا اخلاق أمتها . ولا التفاتا الى لغة الشعب . فاتقنت منها وطالعت من كتبها . ثم درست من دينها ومن لغة أمتها ما امكن لها بـه أن تنال احترامها . بل اعجابها الكبير . فتصدت للدفاع عنها منذ يوم (اللطيف) فكانت بالقيام ذلك المقام المحمود خير طبقة من طبقات الشعب . حياها الله وبياها . وهذه الفئة هي التي حملت بعض المؤلفين المستعمرين حتى قال : (ان كل مدرسة اسسناها في (المغرب) ينبغي أن يكتب عليها هذا محل نكران الجميـل) كأنه يريد أن يقول ان ما حصل لأولئك المتخرجين من الشفوف كان من تلك المدارس . والحق أنهم ما نالوا الشفوف عند الاهالي حتى مرقوا عن المبادىء التي رباهم عليها الاستعمار . فاكتسى علمهم طراوة . وفكرهم طلاوة . ثم لاتكاد تمر بهذه الطبقة . وهي قليلة جدا بين المتخرجين من تلك المدارس المفسدة العابثة بكل ما الى هذا الوطن المفدى . حتى تصل الى سفلة لاغيرة لها على شعبها . ولا على اخلاقه . ولا على عاداته . فضلا عن دينه الذى تسميه دين الهمج الرعاع . ولئن سادت هـذه الدهماء غدا ليقعن (المغرب) فـى هوة سحيقة القعر لا متسلق منها .

فهذا بعض ما فعله الاستعمار بنشء المغرب . فنخر بذلك من اثلة الامة ما نخر . ولولا لطف الله لطفح الكيل . ولاشتد الخناق . حتى يصير (المغرب) بهذا الرعاع المتموج الى دركات مهواة لايرتجى منها التملص من الاستعمار .

وأما الطلبة الدينيون . فان الاستعمار قد هيأ لتاخيرهم فى المعارف كل ما فى امكانه . وهم بطبيعة الحال خاملون . جاهلون بما يراد اليوم من حياة الأمم . فسكت عنهم . وعن الأخذ بيدهم مقدار عشرين سنـة . لعلهم يضمحلون من عند أنفسهم . حتى اذا شاهد عناية الله بهم . وان جذوتهم وان كانت ضئيلة تميل الى الاشتعال . بادر الى ما يطفىء من أطرافها بحيلة اخرى . فهيأ النظم التى ظاهرها نفع . وباطنها لايدرك مـا فيـه الا الله والعالمون المطلعون على الخبايا . فقد عمد الاستعمار الى كل علم . فندب له من لايعرف له قبيلا من دبير . فعل ذلك عن عمد . دفعا فى صدر المستحقين

من أصحاب النباهة والذكاء . القادرين أن يحيوا ما اندثر من ذلك العلم . وتربصا بالعلوم الدينية يوما ما يضربها فيه الضربة النهائية الساحقة . ولكن مع كل ذلك أبى الله الا أن ياتى من تلك النظم على علاتها بصيص من التقدم . ولعل الغد ياتى بما هو أكثر . وهل ينتظر من الاستعمار ؛ يا للناس ؛ أى نفع ؟ فهل انتم تعقلون ؟ ثم لم يزل الاستعمار بالطلبة الدينيين تاخيرا فى كل مكان . فتناسى مدارس البادية القديمة . وهى مئات فى جميع نواحى المغرب ؛ فى (جبالة) و(تافيلالت) و (درعة) و «سفوح الأطلس» وبسائط «الشاوية» و «تادلة» و «السراغنة» و (دكالة) و (الشياظمة) و(الحوز) و (حاحة) ومنها فى (سوس) فقط زهاء مائتين كانت تقوم باعشار القبائل. فمنع الاستعمار بطريق غير مباشرة أرباب السلطة من الرؤساء من أن يتتبعوا ما كان قبل اليوم عادة . من أخذ ما تستحقه المدارس من الناس . ولو عن غير رضا . فادى ذلك الى تشتت طلبتها . وانتكاث حبالها . والامة فى وهل مما اصابها من الاستعمار . لاتقدر هذه المدارس البدوية قدرها . والاستعمار يهيىء سرا طرقا يتاتى بها اضمحلالها . فكان من الفريقين ما نشاهده اليوم فادرك غالب الطلبة الدينيين أن للفرنسيين دخلا عظيما فى تاخر مقاماتهم عما كانت عليه قبل اليوم . فى عهد السلاطين المستقلين . فكانوا يتخذون (فرنسة) لعنة فى كل فرصة تسنح . وقد ادركوا أن اختيار الفقهاء المحققين للوظائف وحدهم . انما كان مقصود الاستعمار به اضعاف الدراسة التقليدية وقد افتضح سر الاستعمار هذا حتى صار حديث الطلبة الدينيين فى المعاهد كلهـا .

اويمكن أن تنفتح اليوم قلوب هؤلاء الطلبة لحب (فرنسة) الماكرة . الكافرة . حتى يؤثر فيهم ما يطير به اثير المذياع فى كل يوم خميس من أن المغاربة مجمعون على حب (فرنسة) واكبار اعمالها . فهذه (القرويين) رأس المدارس الدينية . قد أعلن ابناؤها مرارا أنهم ضد (فرنسة) المستعمرة الجائرة . التى تجعل دائما أهداف سياستها فى (المغرب) هى القضاء على حيويته وعلى دينه وعلى لغته . ثم لما جاءت تلك الضربة التى سددها الاستعمار الى أولئك الطلبة المساكين فى (القرويين) ففرقوا صبيحة يوم . وشردوا أتم تشريد عن دروسهم . بحجة أنهم يأبون الدخول فى النظام . طفح بغض الاستعمار فى قلوبهم . ولو لم يطفح منها لما استحقوا أن يوسموا بأدنى حياة . ثم برهن الاستعمار عن ذبذبته فى سياسته . فاباح لهم الرجوع بعد شهور . رجاء تدارك ما فات . ولكن هيهات هيهات . وقد لاحظ كل الناس حتى فى جبال (جزولة) ان كل قضية وجد فيها طالب منتسب الى

العلم فانها لابد أن تحاك فيها الشباك . حتى يزار طالب العلم السجن . سواء بسبب أو بغير سبب . حتى صار الطلبة يتنكبون التداعى . ويختارون أن يسلموافى حقوقهم قبل أن يوصد عليهم باب السجن . ولا اعرق فى البهتان من قول من يزعم أن هذه الطبقة تميل الى (فرنسة) أو تركن اليها محبة ووددا ووئاما (ألا لعنة الله على الكذبين)

أم طبقة القضاة وهم الذين كانوا قبل الاحتلال فى صدر الموظفين المحترمين . وكان لهم من الاحتفاء والاجلال والاكبار والاعظام والاهتبال ما تتكون لهم به هالات متسعة فيحاء . فهم يمثلون الدين والعلم والمروءة والشرف والرأى . ثم لما جاء الاحتلال حوربوا من جهات شتى محاربة عنيفة حتى انهم وان كانوا موظفين ظاهرا عند الحكومة . فانهم فى الميزانية مدفوعون فلا أجور لهم ثابتة . ولامراتب يترقون فيها باظهار المرونة عى الاحكام . والاخلاص فى العمل . وما فى أيديهم من المرتب الا ثلث ما تجبيه المحكمة من القضايا الرائجة فيها حسب تعريفة موضوعة لذلك . ففتح لهم باب الرشى على مصراعيه . وترك كل واحد وما يريد . وأصحاب المروءة والنزاهة يقلون دائما فى كل فريق اذا قورنوا بغيرهم . فلا تسأل عما يجرى فى محاكم القضاة مما لست أذكره . . فظن . . ولا تسأل عن الخبر . حتى صح فى تلك المحاكم ما تقوله العامة : (من أراد اقامة دعوى من اجل دجاجة . فليوقن أنه سيبيع بقرة لصرف ثمنها على الدعوى) والذنب كل الذنب فى ذلك على الادارة التى ألقت حبل القضاء على الغارب . رجاء أن يكون هذا الفساد الذى كان قليلا قبل الاحتلال كثيرا عاما مع تمادى الاحتلال فتم فعلا للادارة ما تريد . ثم تزيد على ذلك أنها لاتدفع الى هذا المنصب الشريف الا اناسا أدنياء الهمم . اغبياء الافهام . لايهمهم الا ملء الجيب . والاطمئنان الى اراحة الجنب . على حين ان هناك سواهم ممن يستحقون هذا المنصب الشريف المنيف .

ومما يبين ما لهذا المنصب الشريف عند رجال الاحتلال من مكانة . ما حكاه لى بعض المطلعين من أن شخصا كان يتقرب الى زوج كمندان فى (تادلة) فاهدى اليها ذات يوم غزالا . فرح به أولادها الصغار . فحثت زوجها على أن يجزى الرجل الذى يعتنى بها . فاقترح الزوج على الرجل أن يكون قاضيا . فأبى الرجل قائلا : (اننى لم أقرأ الا بعض القرءان ولم استكمل حفظه . ولم أر قط علم الفقه . فكيف أتولى القضاء ؟) فقال له الكومندان : الأمر سهل . فما عليك الا أن تقبل . وعلى أنا أن ءاتيك بظهير التولية . ثم تتمرن أو تصاحب معك من يقوم لك بالاشغال) فاستعظم

الرجل ذلك المنصب . فتأخر معتذرا . ولكن ان استعظمه هـذا فهنـاك كثيرون امثاله دخلوا الى منصبه من غـير أن يعرفوا الـواو من الهراوة . كما يقول المثل العامى المشهـور .

هـذا ما حكاه لى ذلك الشخص . وهى حكايـة من القرب بمكان لمن أدركوا كيف منصب القضاء مع غيره من المناصب . فى نظر الحكومة قبل هذا الطور الاخير . الذى صار القضاة يمتحنون فيه قبل أن يتولوا . وهذا الامتحان نفسه كثيرا ما يقع فيه التلاعب . والكل يعلم أن الحكومة مااندفعت الى هذا التنظيم الاخير للقضاء الا مرغمة تحت تأثير مطالب الشباب الناهض وشدة انتقاده .

قلنا ان القضاة محاربون من عدة جهات . من جهة عدم تنظيم طبقاتهم وتعيين الاجور الشهرية الكافية لكل فرد على حسب طبقته . ومن جهة اعلان أن كل عقار أدرج بالمحافظة العقارية لامدخل فيه للقضاة بعـد . وان قامت حوله دعوى جديدة . حتى قال مراقب لقاض فى (زطاط) على سبيل المداعبة: (لن يبق للقضاة ما يحكمون فيه بعد قليل الا فاطمة والحمار) يعنى مسائل الزوجية والامور التافهة . وأما العقار فسيمر كله بالمحكمة الفرنسية التى لها الحق وحدها فى النظر فيما أدرج بالمحافظة العقارية .

ومن جهة الحيلولة بين القضاة وبين أمور أخرى كانت فيما قبل من اختصاصهم . مثل الجبايات وأموال الغياب والحسبـة . والامر بالمعروف والنهى عن المنكر . فاموال الغياب تدرج فى الابناك . وكثيرا ما يكون وكيل الغياب أوجه من القاضى عند رجال السلطة . فينفرد بالتصرف بكل حرية فيها . والحسبة صارت من اختصاص البلدية . ورئيسها ومعاونوه فرنسيون والامر بالمعروف والنهى عن المنكر من اختصاص البوليس . وهو فرنسى فى نظامه وفى كل شيء له . وبذلك فهو عـلى طرفى نقيض مـع العادات والفكرة المغربية . يستنكر ما تستحسن . ويستحسن ما تستنكر . وكيف تقوم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر حكومة تؤسس المواخر وتحوطها برعايتها ؟ ويصدر قرار يفتح ما خور بقلم وزير عدلية من احد وزاراتها .

ومما حيل بين القضاة وبين النظر فيه . أمور الاكرية والدماء والعوارى والاجارة وما الى ذلك كالسرقة وما أشبهها . فان ذلك كله قد احيل النظر فيه على محاكم القواد التى يستشار فيها المراقبون الفرنسيون . وكثيرا ما يكون القائد من قدماء الجنود الذين نصحوا فى الدفاع عن (فرنسة) فتكافئهم بتلك المناصب . وحدث ولا حرج عن التلاعب الذى يجرى فـى ذلك .

ومن جهة أخرى منع الاحتلال الشرع الاسلامى من الانسحاب على عدة نواح من أنحاء (المغرب) قد ناطوها بما سموه الاعراف البربرية ظلما وعدوانا . وسعيا فى تفرقة الشعب الواحد على نفسه فرقتين . وقد ذاع وشاع ما نشأ عن ذلك مما ثار حول الظهير البربرى . وعرفه كل أحد . وهى سياسة خرقاء اظهرت ما للاستعمار نحو (المغرب) من نيات سيئة . وقد قاومها المغاربة بقيادة شبابهم المفكر منذ يوم (اللطيف) عام ١٣٤٩ هـ

ولاندرى انذم ذلك المسعى الجائر أم نحمده . لأنه رد عقولا كثيرة الى دفعة من الشباب المتخرج من تلك المدارس الاجنبية . كانت تؤمن بديموقراطية (فرنسة) وبنزاهتها وبتباعدها عن مس الاديان . فقد انقشعت السحب . وزالت الغشاوة عن عيون عمياء . فنشأ عن ذلك ما نشأ من حركة مباركة . كان لها الأثر البعيد فى تحريك الهمم . وايقاظ الشعور . واشعال الغيرة الدينية . وللفئة المباركة التى ذكرنا أنها من المارقين عن مبدأ مدارس الاستعمار . يد طولى لاتنسى ما طلعت الشمس فى الوجود فى تلك الحركة. ثم لم تزل تلك الحركة تنمو حتى تكشفت عن مبادىء صادقة . وافكار قيمة ثم تألفت باليمن والتوفيق . فقدمت الى الاستعمار تلك المطالب الشعبية . التى من بينها الطلب الملح فى اصلاح القضاء الشرعى . فلم يمكن للاستعمار الا أن يلتفت مرغما الى ذلك . فيدخل القضاء فى هذا الطور الذى نراه فيه الآن من تنظيم لابأس به بالنسبة الى ما كان ولعله يفتح بابا الى الاصلاح الحقيقى فى القضاء .

والقضاة اليوم على قسمين : قسم نبيه لايزال يرى اجحافا فى حق هذا المنصب الشريف . ويعلم أن ذلك الاجحاف من الاستعمار . فيتأجج نارا عليه . والقسم الثانى صار من جهله ومن غباوته يبكى على ذلك العصر القديم الذى كان فيه القضاء فوضى . فيحتوش فيه القضاة كما يريدون . وحين حيل بينهم وبين ما كانوا يألفون . وظنوا أن ذلك من الاستعمار . امتلأوا حقدا عليه . فبذلك صار كل القضاة ضد الاستعمار . ولو لم يسىء اليهم كلهم . بل كانوا ضده بالطبع . لما لهم من روح الاسلام الذى يأبى أن يستخذى للاستعمار وان كان ما كان . ومن الذى يستطيع أن يرمى هذه الطبقة بمحبة رجال الاحتلال . الا اذا كان عقله مذهوبا به ؟ أوليس ان هذه الاذاعة التى تعلن أن المغاربة كلهم يحبون (فرنسة) تعلن الزور والبهتان والكذب الصراح ؟ واى عاقل يقبل الزور والكذب الصراح ؟

أم طبقة الشبان المتنورين الذين انبعثوا من بعض الحواضر . متخرجين من (القرويين) أو من مدارس الاستعمار . ثم مرقوا عن مبادىء هذه المدارس

فان حياتهم كلها موقوفة على محاربة الاستعمار وذويه . وهم أدرى الناس بـ (فرنسة) وحيلها ومحالها وكيدها ومكرها . وأعرف الناس بالطرق التى سلكتها حتى استحوذت على كل ما استحوذت عليه من أراض . وملكته من أمم . واسترقته من شعوب . وقد الموا بكل الادوار التى مر فيها اعتداؤها على (أمريكة) أولا . ثم على (اسية) وعلى (افريقية) منذ كان الاستعمار مكشوف الوجه . واضح الانياب بارز البراثن . الى أن كان يلتحف بمعارض التمويهات . فقلب اسم الاستعمار الى اسم التمدين وترقية الافكار . والاخذ بيد الانسانية . فينتحل اسم الحماية ثم الوصاية ثم الانتداب . براقع يتستر بها أمام المغفلين الاغبياء . ومتى كان أمثال هؤلاء الشبان المتنورين مغفلين أو أغبياء ؟

درست هذه الطبقة كل ذلك فى الادوار التاريخية . ثم وزنت بالقسطاس وأبصرت بالعيون . ولمست بالايدى . كل ما تخطو به (فرنسة) فى(المغرب) قبل الاحتلال وبعده . فادركت انه لولا (فرنسة) وصاحبتها العجوز الهلوك المتعجرفة المتكبرة (بريطانيا) لكان (المغرب) قد استفاق منذ سبعين سنة من نومته . ولولا دسائسهما لتوالت البعثات الى (أوربة) منذ يوم بويع السلطان المولى الحسن . الذى اقتفى نظرة والده الملك سيدى محمد بن عبد الرحمان المستفيق من يوم وقعة (ايسلى) الى أساليب القوة فافتتح أبواب البعثات الى الخارج . لتثوب بما يرقى الافكار . ويلقح العقول . وينفخ فى الشعب مثل ما كان انبعث فى امة (اليابان) فى ذلك الحين . وكيف ياترى يكون (المغرب) اليوم لوتدرج منذ سبعين سنة فى هذه الطريق . أفلا يكون اليوم طافحا بالمعارف . متموجا بالمدارس . متفوقا فى العمران . متقدما فى كل ميدان حيوى . متربعا فى المكانة التى اعتاد ان يتربعها دائما بين الشعوب أثناء اثنى عشر قرنا . منذ أن استقل عن الشرق كدولة . على يد ادريس بن عبد الله . غير ان دسائس هاتين الامتين العاتيتين المتجبرتين . أبت الا أن تحوك دائما حوله ما يعرقله عن التقدم والترقى الى الأوج الذى كان يشغله فى التاريخ . وكل هذه الدسائس أصبحت مكشوفة أمام هذه الطبقة المبصرة من شباننا المتنورين . فأدركت بذلك سبب تأخر (المغرب) هذا التأخر الذى جعله ذنبا بين الشعوب .

حقيقة انها تعرف حق المعرفة كل المساعى الاثيمة التى كانت هاتان الدولتان المعتديتان تسعيانها فى (المغرب) بواسطة الامتيازات التى جعلتاها كمسمار جحا . فتتدخلان بوساطتها فى كل قضية قضية . حتى أدى الحال الى أن شلت يد السلطات المخزنية عن كل اصلاح . وعن تثبيت أى أمن .

ولاريب أن عصر سيدى محمد بن عبد الرحمان وولده المولى الحسن . ثم المولى عبد العزيز . طافح بكل هذه التدخلات التى لادافع اليها الا محاولة نسف استقلال (المغرب) ومحاولة تحطيمه فى أول فرصة تنتهز . وكل الثوار الذين كانوا اذ ذاك . وكل التعجرفات التى كانت تظهر للحكومة المغربية من الثوار كأبى حمارة . انما كانت من دسائس هاتين الدولتين . وهذا كله يعرفه كل أحد . غير ان هذه الطبقة من الشباب الحى . توقن بذلك ايقانا اقتبسته من الدراسة التاريخية . ومن مقارنة الاحوال بالاحوال

يدرك الشباب الحى أن (المغرب) كان فى ضعف شديد طوال القرن الثالث عشر منذ توفى سيدى محمد بن عبد الله . وانه ما أخر احتلاله بعد عام ١٢٤٥ هـ . يوم احتلال (الجزائر) الا التنافس الدولى . أى تنافس هاتين الدولتين العاتيتين نفسهما : (فرنسة) و (ابريطانية) أولا . ثم تدخل (ألمانية) أخيرا . ولذلك مـا كادت الدولتان العاتيتان تتفقان على اقتسام الصيد سنة ١٩٠٤ م . حتى احتلت (فرنسة) (المغرب) فى مقابلة احتلال صاحبتها لـ (مصر) بعدما عبثتا بمواثيق (الجزيرة الخضراء) ونكثتا منها ما كان مبرما . وقد مهدت (فرنسة) لعملهـا برشوة بعض الوزراء المغاربة الخائنين . كما مهدت بالسعى الحثيث لبث الفوضى فى كل (المغرب) . بعد موت الحاجب أحمد بن موسى ـ بَّا احمد ـ اخر رجالات (المغرب) الذى هو كمنصور بنى عامر آخر رجالات الاندلس . ثم تدخلت بادنى سبب . فاحتلت (وجدة) ثم (الدار البيضاء) ثم أتى الوادى فطم على كل الارجاء

من الذى يصدق اليوم من طبقات الشباب الحى أباطيل (فرنسة) اذا قالت : اننى ما جئت الا لتمدينكم . وبث الأمن فى نواحى بلادكم . وترقية افكاركم . ونشر العمران فى أراضيكم) ؟ اللهم الا اذا كان فيهم من لايعرف كيف كان (المغرب) حيا منظما . وانما يعوزه ما استحدث من المدنية العصرية فقط . فان من يجهل مثل هذا من الشباب . ليس من أولئك الاحياء الذين نعنيهم فى هذه الطبقة .

حقيقة ان (فرنسة) شقت الطرق. وعمرت الاراضي. وشيدت ما شيدت وبنت بعض المدارس . وأحيت التجارة . ولكن ؛ هل فعلت ذلك كله حبا فى سواد عيوننا ؟ أم انما فعلت ذلك كما يفعل الجزار الـذى يسمن ضحاياه ليتمتع بها فى الاخير ؟

ومن الذى يتمتع بالطرق المرصوفة يا ترى ؟ لايتمتع بها الا ادارة الاستعمار . والا المعمرون الاجانب . فالادارة الاستعمارية تتوصل بها الى تقريب الشقة لاعوانها ومديريها . فيدركون أغراضهم بسرعة . ويمكن لهم

أن يراقبوا كل نواحي (المغرب) فلا يبعد عن دباباتهم المصفحة . ومدافعهم الضخمة . وجيوشهم الجرارة . أى جانب من هذه الارض المرصوفة الطرق . وأما المعمرون فان هذه الطرق تسهل عليهم نقل منتوجاتهم الفلاحية والمعدنية والصناعية الى الاسواق والمدن لتباع . أو الى الموانئ لتوسق الى (فرنسة) بأقل ثمن . لأن اليد العاملة المغربية أرخص وأوفر نتيجة لسياسة التجهيل والتفقير التى تسير عليها الادارة الفرنسية نحو المغاربة المسلمين .

ولو كانت (فرنسة) هيأت الطرق المرصوفة للشعب المغربى لما ضايقت من ساعدتهم الاقدار . فاقتنوا سيارات النقل العمومية من المغاربة . اقتداء بجيرانهم الاوربيين . وجريا على العادة البشرية في المحاكاة والاقتدا والاقتباس . وما مضايقتهم بالضرائب الباهظة . والغرامات التي يكبدهم اياها رجال الدرك . ورجال الشرطة . فى كل ثنية وفى كل منعطف . وما تلك الشروط القاسية التى تفرضها عليهم الادارة . ما كان ذلك الا لابعادهم عن هذه الناحية . وبخلا عليهم بارباحها ليستبد بها شذاذ الآفاق الاوربيون الذين جاءوا (المغرب) حفاة عراة . فساعدتهم الادارة الاستعمارية الفرنسية حتى صاروا يباهون الناس داخل (المغرب) وخارجه باتساع غناهم . وضخامة ثروتهم . أم تحسب (فرنسة) ان كل هذا غير معروف .

هذا وليت شعرى هل كانت الطرق المرصوفة فى (فرنسة) نفسها الا يوم اختراع السيارات . وان وقت اختراعها ووقت احتلال (المغرب) متقاربان . فهل كنا لانملك السيارات ثم لانرصف فى أرضنا الطرق . لو شاءت الاقدار . وتأخر هذا الاستعمار عن أرضنا ؟ وهل فى العالم بقعة لم يبلغها ذلك مجاراة لروح العصر . حتى البلاد التى ليست فيها (فرنسا) بل وليس فيها أى استعمار أوربى ؟ أم نحن جمادات لم ينفخ فينا الروح الا الاستعمار الفرنسى ؟ ان ماضينا وحاضرنا يأبيان ذلك . فنحن شعب الادارسة والمغراويين والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين . فمن الذى أسس هذه المدن العامرة فى (المغرب) وما فيها من المدارس الاثرية الا نحن .

(وبعد) فمن الذى يتمتع بأدوات الحضارة . والاراضى المخصبة . والسدود المسموكة ؟ هل يتمتع بكل ذلك الا المعمرون وحدهم ؟ واننا ما رأينا الى الآن أرضا مخصبة اتصلت بها الحكومة ــ وما الحكومة فى (المغرب) الا الاقامة العامة ــ ثم وزعتها على أهل قبيلة من القبائل . كما أننا لم نرَ سدا شيدته هذه الحكومة ثم أطلقت مياهه للأهالى أصحاب الأرض الاصليين وانما نرى أن الحكومة لاتعرف الا المعمرين الاجانب فى كل ما تزاوله من تعمير الارض . فانها تتوصل بالارض بكل ما فى وسعها . ثم تقدمها لقمة

سائغة للاوربيين . ثم توسع عليهم فـي أثمانها الى أقصى حدود التوسعة . فتقدم لهم معها اموالا ليعمروا بها ما قدم اليهم كهدية . واذا أرادت أن تشيد سدا فى ناحية . فاول ما تنظر فيه ان تتوصل بكل مستطاعها حتى تضع يدها على الاراضى التى تصلها المياه لتقدمها الى المعمرين . نعم نحن نقر بأن هؤلاء المعمرين أعرف من الاهالى باستثمار الاراضى وتشجيرها . وتدبيرها فى كل الفصول . وهذا مما لاريب فيه الى اليوم . ولكن اذا كانت (فرنسـه) حقا عادلة ممدنة مهذبـة للشعوب كما تدعيه . فلتاخذ بيد الفلاح الأهـلى . فتعلمه كيف يستثمر أرضه تعليما نافعا . وترشده ارشادا مجديا . واذ ذاك يصح فيها ما تزعمه اليوم وما يزعمه لها مذيعوها فى كل يوم خميس .

كثيرا ما نرى الحكومة تتبجح بأنها أسست الصناديق لتسليف الأهالى. اعانة واخذا باليد . وأسست الشركات الاحتياطية لتقدم الى الفلاح الأهلى الآلات والزرائع والأسمدة . ولتشترى منه منتوجاته الفلاحية بانسب الاثمان كل ذلك احتياطا لئلا يقع فى أيدى المرابين . فيذهب ضحية شرههم ومخالهم ولكن ان رأيناها تمد للأهالى من الفلاحين بعض مئات من الفرنكات . على حين انها تمد للفلاح الاجنبى الافا بل ملايين . فاننا لانستطيع تفسير ذلك الا بما تسلكه من السياسة المموهة المنافقة المداجية . تذر الرماد فى أعين البله المغفلين بما تصنعه من تقديمها عشرات أو مئات من الفرنكات . اذا بها تعلن من ناحية أخرى أنها تمد الآلاف بل الملايين للأجانب . وربما سمعت منذ سنوات أن الخمسة عشر مليونا من الفرنكات المتوفرة بصندوق الاحباس قد سلفت للمعمرين الاوربيين . كأن المحبسين من أسلافنا حبسوا مقتنيات أملاكهم على المعمرين الاوربين . وأما الشركات الاحتياطية المؤسسة للتوسيع على المغاربة . وحمايتهم من الوقوع فى أيدى المرابين . فانما هى شبكة أخرى مدت لاصطيادهم جماعات بعـد اصطيادهم فـى شتى الميادين متفرقين . فالمديرون والمسئولون فى الشركات كلهم فرنسيون ليسير كل شئ هناك على وفق الفكرة والمصلحة الفرنسية . وليأمن الاستعمار تسرب الفوائـد الضئيلة المستفادة هناك الى من يناوئ السياسة الاستعمارية . لذلك فان مجالس هذه الشركات والمستشارين فيها من الأهالى لايكونون فى الغالب الا من الاموات فـى ضمائرهم ونفوسهم . وممن لايبـدون اى معارضة عنـد ابداء أراء . ولا أى امتعاض عندما يتلقون من أسيادهم الاهانات . وأمـا المفكرون المستيقظون من سبـات القرون الغـابرة . والمحاولون مسايرة العصر فى فلاحتهم وشئونهم فلا مطمع لهم فى الظفر بأى شئ من هناك . وأما السرقات المادية فى الاموال والمواد فحدث ولا حرج عن أنواعها . وأنواع

كيفياتها ووسائلها . مما لو علمته لأيقنت أن أيدى المرابين ألين مسا منه للفلاحين . لان المرابى انما يتسلط من جهة ما يقبله له الفلاح ويرتضيه . سواء عن جهل أو عن الحاح الحاجة . وأما هذه الشركات فانها تتذرع قبل كل شئ بسلطة الحكومة . لان مسيرها الأعلى كثيرا ما يكـون ممن حنكتهم التجارب من المراقبين الفرنسيين . والحقيقة هى أن (فرنسة) أمة راقية من الناحية المادية المناسبة لمقتضيات العصر . وجاءت الى (المغرب) بدعوى ترقيته وترقية أهله . ولكنها جريا على عادة الجشع والشره الاستعمارى . رقت (المغرب) بالطرق وغيرها من الوسائل العصرية . ليكون فى مستواها كى تتمكن من الاستمتاع به . واما المغاربة فلم يكن من مصلحتها ان ترقيهم مخافة أن يزاحموها فى الغنيمة . ولئلا تفقدها ترقيتهم ما تريده منهم من مساعدين وأعوان . ويد عاملة رخيصة مستفيضة . أفراد من الشباب الحى المطلع على كل هذا . المدرك لخبايا زواياه . أن يقف اليوم ممجدا لـ (فرنسة) مع ممجديها على أمواج الاثير وفى الصحف السيارة وورا المذياع عشية كل خميس .

ان الأمن ضارب أطنابه حقا فى (المغرب) ولكن من هو أكبر مستمتع به . ولمن انشئ وتظم ؟ أوليس ان أكبر متمتع به هو (فرنسة) ورجالها ، ولأجلهم نظم وأنشئ ؟ فقد أمنوا السبل لانفسهم ليسرحوا ويمرحوا كما يشاءون . وما استمتاع الاهالى به الا عن طريق التبعية كما هو شانهم فى كل شئ . حتى فى الما والهواء والضوء والتعليم . على أن الانسان اذا جال فى المدن . وتخلل فى بحبوحة الليل الاحيا الاجنبية . وقارنهـا بالاحياء الاهلية ، فانه يدرك مقدار اعتناء الحكومة بهذا الأمن . وعلى من ينتشر رواقه فانه يرى فى الاحيا الاجنبية من الشرط المنبثين فى كل زقاق وفى كل ممر وفى كل منعطف . ما لايرى ولو عشره فى الاحياء الاهلية . وان هذا يتجلى كثيرا فى (مراكش) وفى غير (مراكش) وكثيرا ما تقع الحوادث فى الاحياء الاهلية . كالسرقات والمشاجرات العنيفة . واصطدام السيارات . ومفاجئات الامراض كالاغماء مثلا . فيبحث الناس عن أعوان الشرطة . فلا يجدون لهم أثرا . بل كثيرا ما يطالبون عن طريق الهاتف فلا يأتون . أو يأتون متثاقلين . متضجرين ممن أزعجهم بالاعلام . ولكن اذا حدث ما تمس فيه المصالـح الفرنسية بسوء . فان الانسان لايدرى لسرعة مجيئهم هل نبعوا من الارض أو هطلت بهم السما . واذن فلماذا يتبجح علينا المسيطر الفرنسى بانـه نشر الأمن فى بلدنا ؟ لولا أنه كذب . وصدق كذبتـه . وأراد من جميـع الناس أن يصدقوها معه . وان يتجاهلوا ما يحسون ويلمسون . واننا كنا

نعرف الأمن قبل أن يعرفنا اياه الاستعمار . وما التشويش الذى ساد أخريات أيام المولى عبد العزيز الا من الدسائس الاستعمارية . لتخلق جوا عكرا يمكنها أن تصطاد فيه. وأما في أيام الحاجب أحمد بن موسى ـ با احمد ـ وقبل ذلك . فقد كان الأمن مطنبا فى كل جهة وصلتها سلطة الحكومة وأوامرها . وهذا لايخفى الا على جاهل يصدق هذه الترهات التى تسير عليها الدعاية الفرنسية الكاذبة فى اذاعات عشايا كل خميس . نعم مثل هذا الأمن العام لجميع جوانب القطر سهلة وجبله . عامره وغامره . قد بعد عهد (المغرب) به . ولكن لولا دسائس الاستعمار فى القرن الثالث عشر الهجرى لكان (المغرب) قد تدرج . ليس فى الأمن فقط . ولكن فيه وفي كل أنواع الرقي والحضارة . حتى يصل الى هذا المستوى الذى تدعي (فرنسة) انها أوصلته اليه أو فوق ذلك .

ثم من الذى يستمتع ياترى بهذه المدارس الحكومية المبثة بين الاهالى فى عهد الاحتلال ؟ أوليس اننا نعلم ان من برامجها انها أسست لثلاثة امور لا غير :

أولا : تخريج موظفين تهيئهم الحكومة الاستعمارية ليساعدوها على ادارة شئونها . وقد قضت بأفكارها الهدامة على وطنيتهم المغربية . وغيرتهم الانسانية . ونعرتهم الاسلامية . ولذلك لايعطى التلميذ فيها من العلوم الا بمقدار ضئيل . لايعدو ان يخرج به عن الامية بالنسبة للغة المستعمر . وأما بالنسبة للغة العربية الوطنية فمن المشترط أن يلم بها بقدر ما يستصعبها ويستثقلها . حتى اذا استعملها استعملها فاسدة منحرفة . معولا فيها على قواميس الترجمة ومنشوراتها . ثم يشرب حب ظواهر هذه المدنية الخداعة الآثيمة . فلا يعدو نظره لألأها . ثم لايكون همه الا عبادة الوظيفة وحدها . على حين انه لايتجاوز أن يكون فى وظيفته هذه «الة صما» يحركها سيد من السادات المسيطرين . ثم لايقول أبدا لم ؟ ولا كيف ؟ وهل يسأل لم وكيف من لايعرف قط مدلولهما ؟

وثانيهما : أن توجد بتطاول الزمان أناسا يعبدون (الغرب) ولايدرون عن (الشرق) ولا عن مدنياته ومبادئه وتاريخه وأديانه شيئا . فيرى كأن العالم فى جب مظلم بعيد القعر . لم يرسل اليه اول قبس من نور الا بالثورة الفرنسية وحدها . فيكون عمر المدنية عنده ١٥٠ سنة فقط . اى منذ ١٧٨٩ م . فيصير أشبه شيء بذلك التلميذ الامريكى الذى سأله أستاذه فى المدرسة عن أول رجل فى العالم فقال له (واشنطون) وذلك لكثرة ما حشي دماغه بتمجيد (واشنطون) ولاريب أن من لم يتعلم الا فى هذه المدارس

ثم لم يطلع الا على تاريخ (فرنسة) وحدها لايكون الا كذلك حتى ان القى عليه شىء بعد ذلك انما يتلقاه كانه تافه من التوافه. ولايعرف من التاريخ الا تاريخ (فرنسة) وأما تاريخ غيرها فانما هو عنده اسفاف وغباوة وضلال . ويدخل فى هذا الغير شعبه المغربى نفسه . فيخرج التلميذ المسكين . وقد غطى على بصره . فلا يرى الا (فرنسة) وحدها . فمفكروها ورجالهـا وفلاسفتها وملوكها هم كل ما فى الكون . ووقائعها العظمى كوقعة (واترلو) يعرف عنها أكثر مما يعرف عن (الارك) و (الزلاقة) و (وادى المخازن) فيستصغر فى عينيه كل ما الى (المغرب) من الرجال والوقائع . ويستعظم أمام عينه كـل وقائع (فرنسة) ورجال (فرنسة) ايا كانوا . حتى من ليس من عظمتها فى عير ولا نفير . وقد ادركت (فرنسة) بمكرها انها بتكثير هذا النوع من التعليم فى أفراد الشعب المغربى يكثر اتباعها . ويعظم من الايام سواد الاغبياء الذين هم دائما أعوان الاستعمار وأنصاره فى كل قطر وكل عصر . واذا اتيح لك أيها القارىء أن تجالس ثلـة من هذا النوع من البشر فى محفل . أو طال احتكاكك بهم فى أى زمان . فانك لا تكاد تسمع منهم الا ان (فرنسة) أمة العلوم . وباعثة الانسانية من سباتها البدائى بـل رمسها . وانهـا المعصومة من كل ريبة . (فرنسة) الأم الحنون . (فرنسة) النور واستاذة العالم . وصيقل الافكار . الى مثل ذلك من الجمل التى نسمع الاذاعة الخميسية تقدم الينا الافا منها لترغمنا على الاستماع اليها . ونعوذ بالله من غلبـة الجهل . وغمرة الغباوة . والغرق فى بحبوحة التزوير الى الآذان .

وثالثها : ان يوجد من بين الشعب من يجهر بما لاتقدر (فرنسة) أن تجهر به . حيلة منها وكيدا للناس . فيخرج من تلك المدارس سيل جرار يجهر باستباحة الرذائل . مع حملات متتابعة على من كانوا يرفعون من قبل الوية الفضائل وتقديس السلف الصالح . فيسب الانبياء وأفاضل الاسلاف وتنصب العداوة لكل من يمت الى الفضيلة . فيسخر ويستهزىء بالعفيف الذى يبتعد عن الخمور . وعن غشيان نوادى المجون . كما يلمز ويغمز بكـل نقيصة من لايزالون يترددون الى المساجد . وتأخذهم نعرة التدين . فينادى بملء فيه ان هذا كله من رواسب القرون الوسطى ومن تعفن الفكر . ومن الرجعية الممقوتة . ولا يقوم به الا البله الاغبياء المغفلون . وهكـذا تبقى (فرنسة) على الحياد . ويتطوع دونها هذا النشء الجاهل العاق بمحـــو مقدسات أمته وتمزيقها بكل يد . وهتكها فى كل وقت . وهناك الى جانب كل هـذا ذلك التبشير المسيحى يقوم بمـا نراه اليوم عليه فى (المغرب) بتؤدة وتأن عجيب . ريثما ينسدل الستار على الماضى بانقراض الجيل الذى

لايزال يمثل افكاره ونعرته ولغته . وينشأ جيل أمشاج . ثم يليه الجيل الثالث الممسوح من كل ءاثار الماضي ليخلص لـ (فرنسا) كل الاخلاص الذى تنتظره منه . واذ ذاك يتاتى استلحـاق (المغرب) (بأم الوطن) (فرنسة) فيتم عليه الدست . وينقضى كل شيء . وقد رأينا بعض لوائح ذلك . ولئن لم ينقطع ـ لاقـدر الله ـ فسيوتى على الاسلام فى (المغرب) عاجلا أو ءاجلا .

لهـذه الامور الثلاثة تؤسس (فرنسة) مدارسها فى (المغرب) ثـم لاتؤسسها الا بمقدار . ليتاتى لها أن تنتج لها ما تريده برفق وتأن واستفادة من التجارب . ولكن لابد أن يكون بين الذين جاءوا على هذا الغرار من ينزع به العرق . أو لايزال يتاثر بما وجد عليه والديه . أو من تستميله النسمة المباركة التى تهب على الشرق الاسلامى اليوم وقد كانت الحكومـة تبـذل مستطاعها لتمشى فى هذه الدراسة وئيدا . حفظا لخط الرجعـة . ولتبنى أمرها على التدريج مكرا وكيادا وحيلة مهر فيها الاستعمار غاية المهارة .

ايه . فان لم يكن هذا الذى ذكرناه هو الذى تنويه (فرنسة) من هذه المدارس . فلماذا نرى المتخرجين منها يكادون يكونون على غرار واحد فـى التلاعب بعادات قومهم ؟ ولا أعنى تطويل اللحى . وتكبير العمائم . وسدل الاكمام . فان عصر ذلك قد محاه التطور الطبيعى للاشياء . وانما أعنى ما يتجلى منهم لكل ذى بصر من كون جلهم ـ لا كلهم ـ جاهلين بدينهم ولغتهم. وبتاريخ بلادهم . على حين انهم يعرفون كـل شيء عـن (فرنسة) ماضيها وحاضرها . ثم هم الى ذلك مولعون باستنقاص كل ما الى قومهم . غير مبالين بما اذا كان فى واقع الامر قبيحا أو حسنا . مع أنهم يستحسنون كل ما للغرب كيفما كان . حتى ولو كان كل ذى عقل يراه قبيحا . ثم مع كـل هذا تجدهم يفخرون على بنى جلدتهم بقبصة (١) من العلوم العصرية تلقوها أمشاجا فيزمون من أجلها بأنوفهم فى السماء كلما جالس أحدهم بنى وطنه لكنهم متى لاقوا أجنبيا . وان كان حوذيا سمج الزى والمنظر . ضئيل التفكير قصير النظر. تراهم معه فى تأدب واكبار. كأنهم امامه فى حضرة (جالينوس) أو (سقراط) يقبل أحدهم كل نقص فى قومه . لكنه اذا استنقص الاوربيين احد امامه . اشرأب بعنقه . ونفش حوصلته . وتهيأ للدفاع قائلا بمل، فيه : انهم هم الناس وحدهم . لامحاسن الا محاسنهم . ولا مشنوء الا ما يعدونه

---

١) القبصة بالصاد المهملة : ما تأخذه برؤوس الاصابع . واما ما تأخذه بالكف كلها فهو القبضة بالضاد بالنقـط .

مشنوءا . ثم يفيض ما شاء له جهله في تعصب المسلم لما يفيض (١) .

فلماذا لاتعتني (فرنسة) في هذه المدارس بلغة الامة . ولو مثل ما تعتنيه بلغتها على الاقل . فلماذا نرى كل هذا السيل الجرار لايتخرج الا وهو يتقن القراءة والكتابة باللغة الاجنبية . ثم قلما تجد بينهم من له أدنى المام بمبادئ العربية . اللهم الا من تعلمها خارج تلك المدارس . أو يكب على مطالعة الجرائد العربية . حتى يتدرب فيها . وأما علوم الاسلام . فالكثير منهم يفتخر بأنه لم يتعلمها . أهذا ما تريد (فرنسة) أن تفتخر به وتمنه علينا في نتائج المدارس التي أسستها . ثم لاتستحي أن تدعي أنها تعتني باللغة العربية وعلومها . كأن الناس كلهم أغبياء . لكن صدق من قال : (اذا لم تستح فاصنع ما شئت)

هذه المدارس مغربية حقا . لانها مؤسسة بأموال مغربية . وبنيت في أرض مغربية . لنشء مغربي . أليس من البهتان عنها أن تقول انها مدارس الاستعمار . لولا اننا نرى (المغرب) كله في قبضة الاستعمار . لاذكر فيه الا لـ (فرنسة) ولا أمر ولا نهي في كبير الاشياء أو صغيرها الا للفرنسيين . فما أسماء الادارات التي في (الرباط) ولا أولئك الرجال الذين يقبلون ويدبرون فيها . الا آلات صماء لا ارادة لهم . ولا تأثير الا في التوافه التي لاتجدي . اللهم الا قليلين يعدون على الاصابع .

كان (اليوطي) يوم أسس ما أسس أولا في (الرباط) تلك (السينيما المخزنية) قد حاول أن يظهر الحكومة الشريفة كأنها موجودة حقا . لحاجة في نفس يعقوب . فعين للعدلية وللاحباس وللاستيناف من يظهرون على قممها . حاملين اسماء شريفة . غير أنه لايقدر أن يسمح في الذي فيه روح الوطن حتى بالاسماء . فلماذا لم يسمح بايجاد وزير للمالية . أو وزير للتعليم . ولاندري كيف سمح باحداث (مندوب للمعارف) فلذلك نعرف أن الاستعمار لمن استحوذ على الشيئين الاساسيين في حياة الافراد والامم . وهما العلم والمال . ولم يقدر أن يرى غيره مترئسا عليهما حتى مجازا . ولولا همة (محمد الخامس) لبقيت السينيما المخزنية . ولكنه بهمته جعلها مخزنية قائمة .

كل هذا وما يمتد الى مثل هذا . وما يتفرع عن هذا . قد قتله الشباب الحي المتنور معرفة وبحثا . وأدرك كنهه . وعرف موارده ومصادره . وعرف كيف مقدماته ونتائجه . أفينتظر منتظر من هذه الطبقة أن يقف أحد رجالاتها

---

١) نشكر الله اليوم في عام ١٣٧٧ هـ . حين انقطع من المغاربة اكبار (فرنسة) واجلالها . وان كانت عاداتها والحادها والتنكر لاخلاق الاسلام لاتزال كما كانت . نطلب الله أن لايستمر ذلك . والا فانه الهلاك نفسه .

امام (المذياع) فى كل يوم خميس ليرسل على أمواجه ما يعرف أنه كلـه كذب وزور .

هذا الاجماع الذى أجمعه (المغرب) بكل طبقاته . ازاء بغض (فرنسة) ما هو الا نتيجة لسوء معاملتها مع كل أحد . فما من واحد واحد الا كان ضيق الصدر حرجا مما يشاهده من ءاثام الاستعمار . فلم تكن له طاقة يقول بها أو يعمل . حتى جاءت اليوم هذه الزلزلة المباركة . فالقت جرانها على هذه الامة العاتية . فتنفست الصدور الصعداء . وكسا الوجوه بشر متألق براق لايخفى عن كل أحد . فمن لم يظهر الفرح وغاية الحبور بلسانه فان لجبينه الوضاء الاسارير لغة حية . ربما ادت أكثر مما تؤديه لغة الالسنة يتباشر الناس فى الاسواق والمحافل والطرقات . ويتسارع من كانوا قبل جواسيس الحكومة بما يستقونه من الاخبار . فيلقيه كل واحد فى اذن صاحبه ولكل صاحب صاحب . فلم تمض أيام قلائل على احتلال (أم العواصم) حتى علم الناس حتى العجائز فى البيوت . أن (فرنسة) عدوة الله وعدوة الحق . وعدوة الانسانية . رماها الله بما تستحقه . فأذاقها لباس الجوع والخوف . وأتاها بمن هم أعز منها نفرا . وأكثر عددا . وأجرأ نفوسا . فعركوها عركة ربما لاتنهض منها أبد الآبدين . فكم قارىء تسمعه يقرأ أثر ما وقع من احتلال (باريس) قول الله تعلى : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) . وءاخر يقرأ قوله تعلى : (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب) ويعنون بالحصون خط (ماجينو) المقام بين (فرنسة) و (ألمانية) ولكن هذه الاخيرة تركته جانبا فى هجومها . ودخلت من (بلجيكة) بعد أن سحقتها . وذلك ما لم يكن الفرنسيون يحتسبونه . الى غير ذلك من الآيات التى تحوم حول هذا المعنى . والتى يقصد منها التشفى . ونفث ما فى الصدور . وتلك شماتة تشفى صدور قوم مومنين .

رأيت انسانا ذكيا ممن أولعوا بتتبع مـا فى جريدة (السعادة) . قال يوما وهو يتتبـع تلك المقالات التى يكتبها (محمد ميسة) وأمثاله . يشيدون فيها بأن (فرنسة) وان وقعت فى هذه المحنـة فانها لاتمـوت . فيأتون بكلام شعرى فى الموضوع . فقال ذلك الذكى : (لا أشبه هـذه المقالات الا بما يلقى فى التأبين يوم احتفال أهل الميت بمرور أربعين يوما على وفاته . وما هذه المقالات الا تأبين لـ (فرنسة الميتة) . وحضرت يوما ءاخر مجلسا أفاض الناس فيه فيما لحق (فرنسة) من الجرمانيين . فتكلم بعضهم منكتا فقال : (اذكروا موتاكم بخير)

وهناك ءاخرون ممن أولعوا بتتبع الغيوب . واستنباط الحدثان . وقراءة الاجفار . يصرخون ويقولون : (هذا مصداق ما كان يقوله سيدى فلان المكاشف . وما فى الجفر الفلانى . فيفرعون ما شاءت لهم أفراحهم المتدفقة والعجيب أن بعض هؤلاء قال : اننا لانكتفى لـ (فرنسة) بهذه التى لاتقفى عليها القضاء المبرم . بل ننتظر لها أخرى أكبر من أختها . قال لى هذا يوم احتلت (باريس) ومثل هذه التنبئات عندى مما يسر ولا يغر .

وسمعت ءاخر يقول : كانت (فرنسة) لاتوقر منا عالما ولا شريفا . ولا ذا مجد . وتقول أنتم (كيف كيف) (١) أى ان الجميع سواء . وهى كلمة تجرى كثيرا على ألسنة المراقبين . ولم تكن ترى المزية الا لنفسها . وها هى ذى اليوم حتى هى معنا (كيف كيف) . فكما ذقنا الذل والصغار أمس بالاستعمار . فكذلك يذوق الفرنسيون اليوم ما كانوا اذاقونا اياه بالامس . (وما ظالم الا سيبلى بظالم) .

وسمعت ءاخر يقول : عجبت من (فرنسة) و (بريطانية) اللتين تزعمان أن المسلمين كلهم معهما . وأنهم مخلصون لهما اخلاصا عظيما . فأى شعب من الشعوب الاسلامية يخلص لهما وقد ذاقت (مصر) و (الشام) و (جزيرة العرب) و (تونس) و (الجزائر) و « المغرب » و « الافغان » و « ايران » ماذاقت من هاتين الدولتين . أفينسى الشرق ما صنعت به (بريطانية) وما تعامله به . وهى التى لم تزل معها فى مجاذبة سياسية منذ زمن طويل . فقد حاولت (الهند) أن تحصل منها على استقلالها . ولكنها تراوغها عنه مراوغة الثعلب . ثم هى جادة كل جهدها فى تمزيق شملها ببث الدسائس، وتنشيط الدجاجلة الذين يدعون احداث الديانات الجديدة بين سكان (الهند) أصحاب الاديان المختلفة ؟ أم تنسى (الافغان) و (ايران) ماذاقتا من (بريطانية) أيضا وقد كانتا تقعان تحت استعمارها بعد الحرب الاولى . فلولا (روسية) والمجاذبة التى وقعت بينها وبين (بريطانية) لما نالت (الافغان) و (ايران) استقلالا . ثم لم تزالا بسبب مجاورتهما لممتلكاتها فى (الهند) على مثل المقالى فوق النار . بسبب دسائسها . وما كل الثورات التى قامت فى (الافغان) و(ايران) الا من مكرها. أم ينسى العرب ماقاسوه من(بريطانية) و(فرنسة) وقد لعبتا بهم فى الحرب الاولى . بعدما ثاروا فى وجه (تركية) بزعامة الشريف الحسين . معتمدين على وعودهما . فكانتا تقطعان لهم ما لاحد له من العهود . ثم انكشف الستار . فاذا بكل ذلك من كيد الكائدين . وان بلادهم تقسم سرا بينهما فى ذلك الوقت الذى تقطعان فيه العهود ؟ أم هل

---

١) كلمة تقصد بهما المساواة

تنسى (العراق) و (سورية) ما لاقتاه من جيش « فرنسة » و « بريطانية » أم تنسى كل بلاد العرب تلك التقسيمات التى مزقت بها وحدتها . فصارت دويلات عجافا. تحت أيد من الانتداب أو الاستعمار أو الوصاية أو المحالفات. على أنها ان نسيت لا تنسى مصيبة (فلسطين) التى ملأتها هاتان الدولتان باليهود المفاليك المطرودين من كل دولة . فارغمت العرب على أن يفسحوا لشرذمة صهيون . لتتسع على حسابهم ؟ أم تنسى (مصر) ما كانت لاقته من (بريطانية) الجبارة التى تلاعبها ملاعبة الهرة للفارة . تاخذ منها بالشمال ما أعطته لها باليمين . وتخرج من الباب لتدخل من النافذة . أم تنسى (تونس) ما كان أحرارها لاقوه من المستعمرين الفرنسيين . حيث ينكلون ويملئون بهم السجون ؟ أم تنسى (الجزائر) الفقر المدقع الذى ألقاها فيه الاستعمار الفرنسى الذى آتى على دينها وعلى قوميتها . وعلى عاداتها العربية ولغتها . وعلى كل شيء يربطها بماضيها الذى يمكن أن تستوحى منه العزة والشمم ؟ كل ذلك ليهيئها للطامة الكبرى وهى ادماجها فى (أم الوطن) (فرنسة) لا قدر الله . على حين انه ليس للجزائريين من حقوق الفرنسيين أى شيء . وعليهم أكثر مما على الفرنسيين من الواجبات فيكون على الجزائريين الغرم . وللفرنسيين الغنم :

واذا تكون كريهة ادعى لها   واذا يحاس الحيس يدعى جندب

أم ينسى (المغرب) كل ما لاقاه من يد الاستعمار العراكة الجبارة التى يلبس رجاله الحكام جلد الاسد للمغاربة المساكين ؟ فيزمجرون عليهم ، ويسطون السطوة العاتية بلا شفقة ولا رحمة . فقد زعموا أنهم دخلوا المغرب على أساس حماية لها شروطها المدونة المضبوطة . وما زالت كلها مبسوطة أمامنا . ولكن لم يبق منها شرط واحد ينفذ . فهذا الدين وهو الشرط الاول أخذ عليهم العهد أن لا يتدخلوا فيه . فاذا بهم قد تدخلوا فيه بعدة طرق . منها المباشر ومنها غير المباشر . فأقاموا ما سموه الاعراف المحلية . معاكسة لشريعة هذا الدين على رغم الانوف . وساندوه برؤوس الخراب . وها هى ذى أحباس المساجد . وهى ما هى من الدين. قد استحوذوا عليها من وراء ستار . يبيعون ما يشاؤون من أراضيها للمعمرين . فكم أرض حبسية بيعت وصرف ثمنها فى غير ما حبست لاجله . كالتسليف للمعمرين . تثبيتا لاقدامهم فى أرض المغرب . وكم من مساجد جعلت اصطبلات ومخازن وضياع . كمسجد قصبة (تادلة) ومسجد (المهدية) بقرب قصبة (فضالة) . وأما ما اندثر من المساجد والمدارس بالتفريط فكثير . زيادة على أن الاستعمار يراعى الكنائس التى يؤسسها رهبانه فى

أرض مغربية . فيجعل لها حظا من الاموال المغربية . ثم لا يمس أموال الكنائس الخاصة بها بسوء . ومثل هذا في بيع اليهود واملاكها . وبالجملة فمما لا شك فيه عند أحد . أن الحماية تبذر أموال الاحباس تبذيرا بواسطة المدير الفرنسي الجالس ازاء وزيرها . ليدير الوزير وزارته . على حين أن أئمة المساجد وحزابيها ومؤذنيها وفرشها وانارتها لا ينالون من تلك الاموال الا بمقدار . مع انها من حقهم . ولاجلهم حبست . أهذا هو الوفاء بالعهود

ثم هاهم أولاء المستعمرون قد تحيفوا كل ما وصلت اليه أيديهم من كل ما لنا من حرية وما اليها . فلا يبقون ولا يذرون . فقد نزعوا منا كل حرية . فلا يقدر احدنا ان يجهر بفكرة الا اذا تهيأ للسجن . ثم اذا كان داخل السجن فلا يدري الا الله ما يصيبه . حكى لي ثقة أنه كان مرة في سجن الحكومة في (العادر) فاجتمع سبعون ممن سجنوا بتهمة القتل . فقالوا فيما بينهم : قد وقع الآن ما وقع . فليخبرنا كل واحد بما فعل . وليصدق الله فيه . فقال نحو خمسة وعشرين : اننا قد تلبسنا حقا بما اتهمنا به . أما الباقون فقد اعلنوا أنهم انما سجنوا ظلما وعدوانا . وان الاعترافات انتزعت منهم في مكاتب البوليس تحت التعذيب بشتى الانواع والكيفيات . أفهكذا يكون العدل ؟

وقال آخر انه كثر المجرمون مرة في سجن بـ (دكالة) فأمر بهم السجان جميعا الى بيت ضيق لايسعهم . فزجوا فيه زجا بالضغط . فتكدس بعضهم على بعض . فاصبحوا وأكثرهم موتى . ثم لم ينل السجان من جراء فعلته الا انه نقل من ذلك المحل الى محل آخر . أهذه هي الانسانية ؟ نعم انها انسانية الاستعمار ذي القلب الاقسى من الحجر .

هل ينسى المغاربة كل هذا ليصح فيهم اليوم ما يزعم من محبة الحلفاء ؟ فهذه دول العرب و(الهند) و (ايران) و (افغانستان) استعرضناها قاطبة دولة دولة . فكيف يمكن أن ينبعث الحب من بين من قاسوا من الاستعمار كل هذا وأكثر من هذا ؟ وأما (تركية) فقد لاقت ما لاقت من (بريطانية) وصاحبتها (فرنسة) قرونا عديدة . ثم لم تنل استقلالها الا بالرغم منهما . أفتنتظران منها الآن أن تحبهما ؟ ولاريب ان (تركية) انما تخاف الآن من جاراتها كـ (ايطالية) و (الروسية) فأرادت أن تتكئ على أضدادهما . وعدو العدو صديق . فلذلك نرى منها ما نرى . وشتان بين هذا وبين ما تزعمه هاتان الدولتان العاتيتان من ان (تركية) ما أحبتهما ولا وقفت وقفتها المحايدة الا لما اتصفتا به من الديموقروطية والعدل . مرحى ؛ مرحى ؛ عدلتما ؛ والله . يا (بريطانية) و (فرنسة) في كل ما تسيطران عليه من أطراف

العالم . فقد عدلت (بريطانية) حين استولت على (عدن) من اجل الباخرة التى ضاعت لها على يد الترك . كما عدلت أيضا فى كل ما استعمرته فى سواحل (جزيرة العرب) من الممتلكات التسع . كما عدلت حين انقضت على (مصر) أيام الثورة العرابية . فضربت (الاسكندرية) وأرغمت (مصر) على ان تقعى أمامها اقعاء الكلب الخائف . كما عدلت فى كل ما فعلته بـ (فلسطين) حين أتت بحثالة مفاليك من الاسرائيليين فاقحمتهم على العرب . فأخرجت ابناء البلاد بالكرباج والسوط والمشنقة . ليفسحوا للواغلين المتشردين ليسكنوا الارض ؛ وليتخذوها مقرهم الدائم ؛ كما عدلت فى انتزاع شرق الاردن) من البلاد السعودية . مع أن (العقبة) من (الحجاز) من قديم . فسيطرت عليه ناوية أن تقضى فيه مآرب اخرى . كما عدلت فى كل ما فعلته فى (العراق) من المذابح والفتك والنهب . ذلك كله عدلت فيه (بريطانية) الرحيمة الشفوق . عدلا خالدا لايزال يردد ما دام الملوان . فلماذا لاتنبعث اليوم محبة عدلها فى افئدة سكان تلك الاقطار . فتعزم على الوقوف ازاءها دفاعا عن نهر (التاميز) الذى يتفجر منه العدل الذى لايضاهيه عدل فى جميع عصور أطوار البشرية . من عهد (سرگون) المشهور الذى سن للطغاة قاعدة ترحيل الشعوب واجلائها لكى يأمن شرها . الى عهد (نيرون) الذى لم يجد سبيلا الى تحديد مدينة (رومة) وتنظيمها . وهى عاصمة نصف العالم اذذاك . الا باحراقها بمن فيها وما فيها . فيقيم حولها أخرى جديدة الى عصر (بولفور) الذى تعهد بان يعطى أرضا لاملك له فيها الى من لاحق لهم فيها . كى يذر أربابها الاصليين فى العراء . يفترشون الارض . ويلتحفون السما . وكذلك عدلت السيدة المحترمة الحنون الرؤوم (فرنسة) أم العلوم والفنون. ووطن الشعب الفرنسى الشفيق الرفيق الذى يأوى الى (أم العواصم) حيث منابع الشفقة . ومصابيح الانسانية ؛ ومن الذى يشك فى هذه الشفقة وهذه الرحمة . وهذا الرفق ؛ وهذا الحنان . وقد تجلت كلها للعالم يوم كانت (فرنسة) فى (سورية) ؟ خصوصا يوم سار الجنرال (گورو) على رأس جيشه المتكون من رسل السلام وأنصار الحرية الى (دمشق) فاسقط الامير فيصلا على حكمها مع محبتها له . واظهر عدل (فرنسة) فى تلك المشانق والمجازر التى والاها جيشه فى تلك البلاد العربية . ثم انهى عملية رحمته بتقسيم تلك البقعة الصغيرة ذات ملايين قليلة الى دويلات صغار . كى تأمن كل واحدة منها على نفسها . ويصبح أمرها بيدها . لتستطيع تقرير مصيرها بنفسها ؛ أليس من العدالة تمكين الناس من حق تقرير المصير ؟ وحذار حذار من الاستماع الى ذوى النيات السيئة الذين يفهمون من ذلك

ما نفهمه نحن وشبابنا الناهض المفكر . من أن ذلك انما هو تطبيق لقاعدة (فرق تسد) ولكى يصبح بأس تلك الدويلات بينها شديدا . كما انها عدلت قبل ذلك فى الكيفية التى احتلت بها (الجزائر) ومـا تلك الحروب التى أصلت بها الامير عبد القادر الجزائرى الا من العدل المبين المطبق أمام العالم أجمع. ليتخذه مثالا يحتذى . ثم امعنت فى هذا العدل كى يتحققه الجزائريون ويتيقنوه . فعمدت الى احباس المساجد . واعمال البر الجزائرية ؛ فلم تبق لها منها باقية . ثم ملأت (الجزائر) خصوصا مدنها وسهولها الخصبـــة بمجرميها . وفتاكها الذين لفظهم المجتمع الفرنسى . فملئوا السجون حتى لم تعد تطيق تهذيبهم ؛ أو تليين قناتهم . وزجرهم على الاقل . فأصبحت (الجزائر) ذلك (الوطن البنت) كى يسهل فى النهاية ضمها الى(الوطن الأم) أوليس من الاحسن للبنت أن تكون تحت حضانة أمها . لتكونها وتربيها . وتخلقها بأخلاقها ؟ اما اذا كانت تلك مسلمة متدينة شرقية . والاخرى ملحدة هلوكا غربية . فان ذلك فارق بسيط . لايؤبه له فى قسطاس هذه العدالة عدالة الادماج .

كما عدلت أيضا فى (تونس) وكافأتها على حسن الظن بها . اذ كانت تستورد منها من تهتدى بهم فى تقدمها الى الحضارة . من الفنيين المهندسين . ورجال العلوم ؛ ليعلموا الشعب التونسى . ويهدونه الى الرقى . ولكـــن (فرنسة) رأت فى ايفاد المعلمين فينة فينة تطويلا وتمطيطا لايصال العدالة والحضارة الى (تونس) وهى اعدل وأرحم واعقل مـن أن تعطـى حضارتها للشعوب . بمثل عطاء عداد النقط فى الادوية الصيدلية . وأرادت أن تغدق على هذا البلد الطيب من عدلها الفريد دفعة واحدة . فزحفت اليه بجيوشها شفقة ورحمة وعدلا . وأرغمته كله صبيحة يوم واحد على امضاء عقد الحماية شفقة ورحمة وعـدلا كذلك . وهـل يكون العدل والانسانية الا كذلك ؟ وما دامت (تونس) تثق بـ (فرنسة) وتطمئن الى أن تعلمها وتحضرهـــا وتمدينها . فمن حق (فرنسة) بل ومن عدلها أن تكيل لها بالمكيال الاوفى. أوليس أن التعليم والتحضير يستلزمان الحماية عند الخطر ؟ عـلى حين ان الحماية فيها كل تلك الخصال . مع زيادة الاحتماء . حتى من التنفس فـى الهواء الطلق ؛ ومن النوم الهادىء . والعيش الهنىء . وذلك ما تفعله أمـة النور ؛ وأمة العدل . التى أملت على العالم مثلها العليا . يوم دكت سجن (الباستيل) معقل الظلم والطغيان. واتخذ عذاراها قلائدهن من فتات احجاره . وقرأ العالم من ذلك الوقت فى تلك المثل العليا ما تلخصه الكلمات الثلاث المعسولة : (الحرية . والاخوة . والمساواة)

كما انها عدلت أيضا غاية العدل ومنتهاه في كل ما فعلته بـ (المغرب) قبل الحماية وبعدها . فما اقتطاعهـا لمنطقة (توات) و (كـولومب بشار) و (القنادسة) وصحراء (شنكيط) الا آثار صادقة من آثار عدلها . فلتبارك السما' عدل (فرنسة) كما باركت عدل صديقتها بل أختها الكبرى (بريطانية) قد عرفنا من عدلهما معا ما عرفنا . رأنا فـي ذلك رسالة نور وسعادة . ينبغي أن لاتحرم البشرية منها . فقامتا عن حسن نية . وطهارة ضمير . تحملان العالم كله على تقبلها . وتسطرانها له كبنود ملخصة للحضارة لتتعلمها شعوب العالم بأسرها . ثم السعيد السعيد من هذه الشعوب من كتب له في الأزل أن يرفل في هذا العدل . ويستظل بظله الوارف . ثم اذا اختل نظام الطبيعة يوما ما . كما وقع في هذه الحرب . وطافت طائفة سحاب حول هذا العدل . وجب على كل من تفيأه . أن يهب هبة رجل واحد للدفاع عنه دفاع الاستماتة التي يجب على الانسانية أن تدافعه عن مثلها العليا . وتعاليمهـا المقدسة . فلقم في (المغرب) اليوم من يعلن في الناس عشية كل يوم (خميس) ان من واجبهم القيام للدفاع عن الفرنسيين رسل السلام . لأن رسالتهم المقدسة التي ما في الارض شعب يجهلها قد أصبحت في خطر .

انكم يابناء (السين) و (التاميز) قـد بلغتم مـن الكبريا' والغطرسـة والعجرفة والخيلاء ما لم يبلغه قبلكم أحد من العالمين . فطالما سمعناكم تقولون ولاتستثنون : (اننا سادة العالم . اننا أقوياء . اننا اغنيا' . ان لنا معينا من المال والرجال لاينضب . ان العالم كله معنا . ان الحق والعدل والقوة والعلم كلها عندنا) تصرخون بذلك طوال هذه السنين . ويصرخ بـه معكم مـن اتخذتموهم أذنابا يبصبصون لكم . فماذا تقولون اليوم . فهذا نصف ركنكم قد انهد . فـ (باريس) (أم العواصم) . ومدينة النور . ومصدر القوة الأبدية قد عركها عدوكم الألد . وأصبح يطاردكم من (بلجيكة) كالأرانب الى (دانكيرك) حتى تجاوزتم (أم العواصم) واننا لسقوط النصف الآخر لمنتظرون . فمتى نرى مصدر القوة البحرية من جزيرة العجوز الشمطاء الجمجرش يذوب أيضا ذوبان الملح في الماء ؟

انني لا أكتب ما أكتب هنا انتصارا لأعدائكم . فانني مـا عرفتهم ولا خبرتهم . ولا أنا في معاملتهم واخلاقهم على يقين . فما تحكونه انتم عنهم غير مصدقين فيـه . وانما يصدق المرء مـا شاهده . أو أخبره به ثقة يطمئن الى صدقه . وانما أريد أن يعرف التاريخ ـ وفي أذنه أهمس الآن بهذا ما دمت لايمكنني نشره ـ ان في مغربنا من الشباب من يدرك كيف (فرنسة) فلم يغتر بهذه الدعاية الأثيمة المزورة التي يتموج بها الأثير كل يوم (خميس) ولهذا

اليوم غده كجميع الأيام . وما لم يكن فى الامكان ان يعلن عنه اليوم فربما أعلن عنه غدا . والدنيا دول . يوم عليك ويوم لك .

انني مغربي مسلم أحب من المدنية الغربية كل ما يمت الى الآلة النافعة للبشرية . وما يمت الى العلم . وان كان علم الغربيين لاتهذيب فيه للارواح . وانما هو علم مادي يقصد منه مزيد القوة . فمن تعلمه فكأنما حدد مخالب الأسد . أو زاد في الأفعى سما . والآلة النافعة والعلم النافع لا وطن لهما . فلا يقال فيهما انهما شرقيان ولا غربيان . فكما كان العلم والآلة أمس عند الشرق . فيضافان اليه . فكذلك هما اليوم . واذا أضيفا اليوم الى(الغرب) فانما ذلك لكونهما فيه بحسب المصادفة في الوقت الراهن. وانما الذى أكرهه من تلك المدنية الآثمة هو تلك الافكار الهدامة للفضيلة . وتلك الاخلاق المتقمصة للرذيلة . فلا أحب لدى من أن أرى شابا مثقفا جمع بين احترامه التام لقوميته بما فيها من عادات حسنة . وأخلاق مدعمة بالعلم المتين . والدين الصحيح . وبين تزوده بعقلية ذات تؤدة لاتنكر ما تنكر الا بعد دراسة وموازنة . ثم لاتزال تطلب الحق حيثما كان . لاتتعصب للشرق من أجل انه شرق . ولا للغرب من حيث انه غرب . وحين كان محببا لكل انسان أن لاينفض يده من وطنيته . فانني أمقت الشباب المغرور الذى لعب (الغرب) بعقله . حتى اجتث منه وطنيته وغيرته ونعرته القومية والدينية .

كنت قرأت لـ (ديكا ستري) في كتابه (خواطر وسوانح) ان من عادة الغربيين أن يعمدوا الى الشرقيين فيبثون فيهم عن عمد ـ كيدا وخديعة ـ حب الخمر وحب الرذيلة . ليباعدوا بينهم وبين ما ألفوه عن أسلافهم . وقد ورث المسلم المغربي من أسلافه حب الفضيلة والاخلاق والعلم والدين) . ذلك كلامه . أو كما قال مما يحوم حول هذا المعنى : فياليت كل شاب من الشباب العصري يسمع كل هذا ويعرفه حق المعرفة . فيحاول ان لايجرفه السيل مع المجروفين . فيكون سبة قومه . ولعنة جيله . والبذرة المسمومة لمن سيلدهم أو سيتربون تحت نظره .

وكذلك قرأت لبعضهم ولم استحضر اليوم من هو : ان من عادة المستعمرين في مستعمراتهم أن يبثوا الرذيلة في النشء الذين يتصلون بهم . فيدسون فيهم انكار جميع الاديان . والتقاليد التي نشئوا فيها وان لم تكن قبيحة . بحجة التعقل والترفع عن الاندفاع وراء الموروثات . وما قصدهم بذلك الا أن ينكروا دين الاسلام الذى به يعتزون . حتى اذا أبعدوهم عنه اتصل بهم المبشرون . فيميلون بهم الى المسيحية ان استطاعوا . أو يوقعونهم في هوة الالحاد السحيقة التي لاتسلق منها أبد الآبدين .

كثيرا ما نرى الاستعمار فى (المغرب) يفسح للمبشرين والمبشرات .
يؤوون اليهم الايتام ذكورا واناثا . فيربونهم من الصغر على التعاليم المسيحية
فيخرجونهم بلا دين ان لم يكونو مسيحيين اقحاحا . وهؤلاء المبشرون اليوم
فى (المغرب) منهمكون فى البوادى . واطراف المدن . بتؤدة على هذا المنوال.
يتظاهرون بأخلاق الملائكة . فما شئت من ملاينة لاكدر معها اصلا . ومن
صبر الى منتهى ما يعجز السامع عن تصديقه . مع وقار وترفع عن الدنايا .
وربما تزيا بعضهم بزى العلماء المعتاد كالقفطان والعمامة والفرجية والكساء
البزيوى . وقد أخبرنى ثقة أنه رأى أحدهم على تلك الصفة فى ناحية (زيان)
لتوثر تلك الشارة على زعمهم فى أنظار العامة . ثم للمبشرين من صناديق
الحكومة ومن اعانتها بالجاه وغيره . ما يقدمهم الى الامام . وبعد كل هذا تمن
علينا الحكومة انها تحترم ديننا وتقاليدنا . على حين انها تعين على تنصير أولادنا
وفى (تارودانت) وفى (أزرو) وفى (مراكش) وفى غيرها مؤسسات لهؤلاء
المبشرين . تجتهد فى مخالطة الناس بكل مخالقة . ولا يبعد أيضا أن يتخلقوا
حتى بالوطنية المغربية ان سادت فى الشعب يوما ما .

ان هذا الموضوع طويل الذيل . ولايزال للنفس جيشان مما تطفح به
مما يمضهامنذ سنين كثيرة . فلعل فى هذا اليوم عبرة للمعتبرين . وذكرى
حافزة لبعض القارئين . ان قدر له أن ينشر بينهم . كما ينشر بينهم مايعتاد
فى هذا العهد فى عشية كل (خميس)

(وبعد) فهـذه خطبتى أنا فى يوم هذا الخميس سجلتها حتى تلقى فى
مذياع (الرباط) متى فرج الله بفضله . وما ذلك على الله بعزيز .

أواسط جمادى الاولى عام ١٣٥٩ هـ

مع الاخوان في (الغ) وغيرها

صدرت مني في هذه الفترة مكاتبات ومراسلات ومحاورات مع بعض الالغيين ومع غيرهم . فهاك الجميع كما كتب :

مع الاستاذ سيدي عبد الله بن ابرهيم الالغي

الاجوبة الحاضرة البادية ، في تفضيل الحاضرة اليوم لمثلي على البادية

الحمد لله الذى جعل الانسان مدنيا بالطبع . وجعله متعاليا الى التعاون في كل امور معاشه لايستغنى فرد ايا كان عن الجمع والصلاة والسلام على من انشأه باريه في حاضرة العرب (مكة) المشرفة . ثم جعل مهاجره (يثرب) ذات النخل الباسق والبساتين الغلب الاشبة الافنان المفوفة . وعلى ءاله وأصحابه الذين رفعوا ألوية الدين في حواضر الشرقين الأدنى والأقصى . فتكونت (الكوفة) فـ (دمشق) فـ (بغداد) فـ « الفسطاط » فـ « القيروان » فـ«قرطبة» فـ (فاس) في (المغرب) . ورضى الله عن السلف الذين تركوا للخلف هذه الحكمة المرتكزة على التمدن (أمتى في المدن . وبعضها في القرى) فان كان بعضهم لايراه أثرا نبويا . فان لمعناه أصلا في الجملة لمن يسمع ويرى .

(أما بعد) ففي أواخر عام ١٣٥٦ هـ . صلى معنا الظهر في زاويتنا الاستاذ سيدى عبد الله بن ابرهيم ابن العم . فوجد في يدى في الغرفة المشرفة فوق الدرج جنوبى المركع في زاويتنا الرسالة الكبرى للامام اليوسى . وهى التى أجاب بها الرسالة الموجهة اليه من حضرة المولى اسمعيل وفيما تتضمنه لومه على سكنى البادية وتفضيلها على الحاضرة . فأجابه الامام المذكور بفصل طويل بين فيه الحامل له على ذلك . ولا بأس أن نورد ذلك الفصل برمته . لان فيه من تفضيل البادية اذ ذاك لليوسى . ما كان ابن العم يستحسنه غاية . وأنا أتلوه عليه . ويحدجنى أثناءه بعينيه كانه يقول : ارايت كيف تفضل باديتنا الحاضرة التى جننت بحبها ؟ فلنورد ذلك كله . ثم نكر عليه بما نراه نحن . قال :

واما قول الكتاب (أين تجد السبيل في التباعد والتجافى عن حواضر المسلمين) الى قوله : (أى عذر لك في التباعد عن حضرتنا ؟)

ثم قال بعد كلام أجاب به عن سكنى زاوية انتقل اليها من (فاس) باذن السلطان : (وأما عذري في استثقال الحاضرة . فوجوه كثيرة . اقتصر على بعضها . فمنها الطبع . فانى لم أولد فيها . بل في الفجاج الواسعة بين الشيح والحرمل . والجنوب والشمال . فأى عجب اذا حننت الى مسقط راسى. ومحل جنسى ؟ وفي الحديث الكريم : (حب الوطن من الايمان) وقال الحكماء : الكريم يحن الى وطنه كما يحن النجيب الى عطنه . وفي النقل أيضا : الكريم يحن الى جنابه كما يحن الاسد الى غابه . وفيه أيضا مليك الى ملوك من كرم محتده . وقال أبو عمر بن عبد البر : قيل لبعض الحكماء : باى شئ تعرف وفاء الرجل . وذمام عهده . دون تجربة واختبار ؟ قال : بحنينه الى أوطانه . وتشوفه الى اخوانه . وتلهفه على ما مضى من زمانه . وقال الاصمعي : اذا أردت أن تعرف وفاء الرجل . وذمام عهده . فانظر الى حنينه الى أوطانه . وتشوفه الى اخوانه . وبكائه على ما مضى من زمانه . وقال اعرابى :

بلاد بها عق الشباب تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها
أحب بلاد الله ما بين منعج   الى وسلمى اذ يصوب سحابها

وقال اخر :

ذكرت بلادى فاستهلت مدامعى   لشوق الى عهد الصبا المتقادم
حننت الى أرض بها اخضرشاربى   وقطع عنى فيها عقد التمائم

وقال ابن لبادة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بحرة ليلى حيث ربيتنى أهلى
بلاد بها نيطت على تمائمى   وقطعن عنى حين أدركنى عقلى

وقال ابن هلال العسكرى :

اذا انا لا اشتاق أرض عشيرتى   فليس مكانى في النهى بمكين
من العقل ان اشتاق أول منزل   غنيت بخفض في ذراه ولين
وروض رعاه بالاصائل ناظرى   وغصن ثنته بالغداة يمينى
اذا أنا لم أرع العهود الى النوى   فلست بمأمون ولا بأمين

وسمع أبو دلف العجلى قول القائل :

لايمنعنك خفض العيش في دعة   نزوع نفس الى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد ان حللت بها   أهلا بأهل وجيرانا بجيران

قال انه ألأم بيت قالته العرب . وانما قال ذلك لما فيه من قساوة القلب . وغلظ الطبع . وقلة الوفاء . ورعى الذمام والعهد . وقد قال صلى الله عليه

وسلم ؛ فى امرأة دخلت عليه فهش لها : (انها كانت تأتينا أيام خديجة . وان حسن العهد من الايمان) وهذا أمر مجبول عليه طبع الآدمى . فلا نقصان به على الانسان . وان بلغ ما عسى أن يبلغ من الكمال والعفاف . وقد أسند ـ كذا ـ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مدح سيدنا بلال : أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا . يعنى بلالا رضى الله عنهما . فناهيك بهذا الذى اعترف له به بالسيادة يعنى بالايمان والدين عمر الذى هو محدَّث هذه الأمة . ونزل القرءان على وفق رأيه . وحين حم بلال رضى الله عنه ؛ كان اذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته وينشد :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

ثم يقول : لعن الله شيبة بن ربيعة . وعتبة بن ربيعة . وأبا جهل بن هشام. كما أخرجونا من أرضنا الى أرض الوباء والوخم . وفى رفع الصوت ما هو ألف النفوس . وتنجلى به الغمة . وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم لورقة : (أومخرجيَّ هم) اشارة الى هذا المعنى. وقد دخل رجل اسمه أصَيْل على النبى صلى الله عليه وسلم فى (المدينة) ومعه بعض أهله . فاخبره أنه جاء من (مكة) وقال (تركتها حين تفتح الجليل . وكذا وكذا يعد أعشابها) فاغرورقت عيون المهاجرين بالبكاء . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (لاتشوقنا يا أصَيْل) وقال صلى الله عليه وسلم : (اللهم حبب الينا (المدينة) كحبنا (مكة) أو أشد) . ووقع فى بعض الكتب أنه صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء لما زج به فى النور . وفارقه جبريل ؛ اسمعه الله حينئذ كلام أبى بكر ليانس بطبعه اذ هو أنيسه . فيتقوى على ما يلاقى من الامور العظام .

ومنها الضيق فى المسكن وفى المعاش . فان الحاضرة دارة مسورة . لايزاد فيها ولاينقص . فمن دخل دارا لم تكفه هو وعياله وأولاده ومن تعلق به . ولو كانت فى غاية الاتساع . ووجب أن يرى ما لايجوز له أن يراه ؛ ممن هو معه . أو من يدخل عليه . وفى ذلك فساد للدين . أو من يحتشم منه . وفى ذلك فساد للمروءة والعرض . وان وجد دارا أخرى وجب أن يفارقه من لاتمكنه فرقته . ويفتقر الى مؤونات . وهو عاجز عنها . وكذا فى المعاش ؛ فان كل شئ بالشراء . حتى الماء الذى هو أسهل الأشياء . فلابد له من نفقة فيه . فان كان بنحو (مكناس) ففى الحبال والدلاء ؛ والحفر والجير . ونحو ذلك . وان كان بـ (فاس) ففى كسر القواديس وانخناقها .

والنشير كل حين ؛ ونحو ذلك . ومنها فساد طبع العيال والأولاد والاصحاب ونخشى ذلك نحن ايضا فى أنفسنا من جهات احداها تعلم الشهوات والاتساع فيها . وانا كما فى البادية لانعرفها ؛ ووجدنا آباءنا يعيشون بما وجدوا قانعين به . يلبسون الصوف الخشن . ويأكلون البر تارة . والشعير أخرى حامدين شاكرين . ما رأوا قط لباب البر . ولا ابزارا ولا عطرا ولا كتانا ولا ملفا . حتى درجوا سالمين . غير تابعين ولا متبوعين . وكنا نتبع أحوالهم . لولا ما من الله به علينا من حفظ كتابه . والتفقه فى دينه نسأل الله أن يزيدنا بذلك اقبالا عليه . وادبارا عن زهرة الدنيا حتى نلقاه امين .

فلما دخلنا الحاضرة ظهرت الشهوات . ونظر النساء الى النساء . والصبيان الى الصبيان . والرجال الى الرجال . فطلبوا الاتساع كما اتسعوا وابتلينا كما ابتلوا .

ثانيها الوقاحة فى ذلك . وقلة الحياء . فقد كنا فى البادية تستحى المرأة أن تطلب اللحم . فكيف بما وراءه . ولكن تتشوف الى المواسم . أو ضيف ينزل . فيذبح له أو يشترى له . او انفاق يأتى به الله من غير استدعاء فوجدنا المرأة فى الحاضرة تراعى الباب . وتقول للرجل : أنفق وارجع الى السوق . فلا تسمع الا : (شف اللحم . شف الحوت . شف الزعفران) وان لم يكن ذلك وقع التداعى . وجيء بالرجل الى القاضى .

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (كنا معشر قريش نغلب النساء . فأتينا قوما يغلبهم نساؤهم . فاخذ نساؤنا يتعلمن من نسائهم)

ثالثها ان يتعلم الصبيان اللوم والبخل . وقلة السماحة . كما هو دأب الحاضرة . وما فسدت طباع العرب الا فى الحواضر . فأين كرماء (غطفان) وأين كرماء (بنى نبهان) الذين ينحرون الكوم . ولا يقرون الا لحما غريضا (الى أن قال) بعد حكاية كريم من العرب : فاين طبع هؤلاء فى أعقابهم اليوم ؟ وهم فى (حلب) و (انطاكية) و (دمشق) و « المدائن » و « مصر » وغيرها . لايبضون بقطرة . وذلك مما اكتسبوه من البلد . وأى ضرورة أعظم من هذه الضرورة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم : (أى داء أدوى من البخل ؟)

ومنها مقاساة أهلها . والتعرض لاذايتهم وفتنهم . ولاسيما أبناء الجنس . ولقد طلبنى مولاى الرشيد بالرحيل الى (فاس) وقال : تصيب الظل والماء البارد . وتأكل الخالص . وينتفع بك المسلمون . ولم أكن قط

رأيت (فاسا) ولا كان لى علم بحاله . ولا حال أهله . فقلت هذا والله خير .
فقبلت قول السلطان . وارتحلت بنية صالحة . على أنى لاأعلم من جئناهم .
وان كان هناك من هو أسن منى . كسيدى عبد القادر . لقينه وتبركت به .
فبت خارج (فاس) ليلتين . والطلبة يترددون الىَّ . فلم أدخل المدينة حتى
لم تبق لى نية من كثرة القيل والقال . ثم بدأنا القراءة فاطبقت علينا الطلبة
أهل البلد الغرباء . وكان المجلس حافلا . وكان فى غيبة السلطان الى
(سوس) فتحرك الحسد . وكثر القيل والقال . وجعل كل من يجيئنى
يحذرنى من الناس . ومن أكل طعامهم . فما يمكننى أن أشرب ماء . ولا أن
آكل طعاما من يد أحد . ولا أجلس على منصة الكرسى حتى يقلبها أصحابى
بلا تفريط . فصرنا فى فتنة وبلاء ثم لم ألبث الاَّ قليلا حتى مرضت .
فبقيت حتى نقهت واسترحت . فذهبنا للقراءة . فلم ألبث بعد أن طلعت
على الكرسى أن أصابنى ذلك ايضا . فنزلت وجئت الدار . فرقدت أيضا .
حتى نقهت فرجعت فكان الأمر كالاول . فعند ذلك قام أصحابى . وقالوا
هذا أمر واضح بين . هذا عمل لك . على مجلس القراءة لئلا تشتغل . فانك
سلبت الناس تلاميذهم . وأخليت مجالسهم وجعلوا يكتبون لى معاذات .
لم تزل الى اليوم علىَّ . فمن ثم ما أمكننى باذن الله أن أحضر الميعاد . ثم لما
رجع السلطان من (سوس) وخرجت العطايا للفقهاء . وخرجت العطايا
لطلبة العلم . وكانت عطايا الطلبة تنفذ الى القضاة يتولون قسمها عليهم .
فعند ذلك جعل الطلبة يتسللون من مجلسى . ويذهبون حيث كانت العطايا
حتى لم يبق فى مجلسى بحمد الله الاَّ من همته العلم لا الدنيا . وأكثرهم
من الغرباء وقليل من أهل البلد . وأهل البلد انما همتهم فى جائزة يقبضونها
أو محراب أو كرسى . أو شهادة يتلقونها . ثم لما رءانى الناس أطلع الى
السلطان بعض الاحيان . جعلوا يتعلقون بى طلبا للشفاعة . ويثقلون علىَّ .
وما أحب أن أفتح ذلك الباب على نفسى . لأنه يتركنى بلا شغل . وانى
لا اقدر على ذلك . ولا أصلح له . فانه يحتاج الى مزيد حذاقة ولباقة . وحسن
تأن وتدرب . وأنا بعيد عن هذا كله . انما انا رجل بدوى . فصار أيضا
فتنة علىَّ وشغلا . ثم ان تلك العطايا كانت تتأخر الى الشهر والشهرين ؛
وكثير من الاحيان لاتصل الينا العطية حتى نكون قد أخذنا من السوق أشياء
بالدين . مع انى كنت من أكثرهم عطاء . ولكن لم يكن ذلك الاَّ كماء (فاس)
يدخل ويخرج . حتى خرجنا من (فاس) ولم يتبعنا درهم واحد من ذلك .
ولما مات السلطان انقطع ذلك . فصرنا فى فتنة مع العيال . فقلت لأصحابنا
ان هذه الحاضرة ليست لنا بدار مقام . فلسنا من أهلها (لا دار بـ «حمص»

ولا مال) وقد تعرضنا لما رأيتم من البلاء والفتن من كل ناحية . حتى لو حققنا النظر لم يجز أن نبقى فيها مع هذا أبدا . قال تعلى : (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) . وان أهل الحاضرة لم يشتغلوا بالعلم . وانما اشتغلوا بالحظوظ الدنيوية . وهؤلاء الغربا الطالبون للعلم . البادية أرفق بهم . لأنهم يقرءون فيها بلا بضاعة . وينجون مع ذلك من الكلفة . ومن أن تسرق طباعهم طباع هؤلاء المتلاعبين . فكان خروجنا الى البادية راجحا أو واجبا . والعلم صنعتنا . فنحن أعرف بما يصلحنا . و (أهل مكة أدرى بشعابها) .

الى أن قال : فخرجت باذن سيدنا . ونزلت فى الشعب الذى كنت فيه . وبنيت دويرات بغير مئونة . واتسعت وجعلت لنفسي مكانا لاأرى فيه قط امرأة من غير عيالي . وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد . فان رأيت خصلة لاتعجبني نفرت لهم . فاقاموا الصلاة فصليت معهم . وانا أسمع قراءة الامام وابقى على ذلك ان شئت الشهر والشهرين . لا أرى أحدا ولا يراني . انظر فى كتبى حتى تقام الصلاة . ولا يضيع شيء من أوقاتى . وساقيتان تجريان في وسط الدار . والمئونة مكفية . وما لم يوجد يستغنى عنه . اذ لاجار يفتن . ولا سوق يقطع العذر . وجاءت طلبة . فكنا ندرس العلم لله لايتشوف أحد منا لمرتب . ولا يرانى أحد . ولانسمع قال فلان . ولا قرأ فلان . فاسترحنا وحمدنا الله تعلى . ووجدنا صلاح ديننا . وراحة قلوبنا وأبداننا . فهذا هو سبب اشتغالنا عن النزول الى الحاضرة . ومن جربها وذاق مرارتها . ثم وجد الراحة منها ؛ كيف يحب الرجوع اليها . هذا لايفعله العاقل بنفسه . ولا يلومه الا من لايعرف حاله :

- لعل له عذر وأنت تلوم -

الى أن قال : فما فى الكتاب من أني ضيعت العلم بسكنى البادية . أو ان الناس قد ضاع حقهم فى . فقد تبين جوابه بكل ما مر . فلو كنت حضريا من أبى وجدى . ثم خرجت الى البادية لم يكن علي حرج . فكيف والبادية أصلي ومنشاى . فمتى يجب علي دخول الحاضرة . والقاء نفسي وعيالي فى الحرج والضيق . والفتن التى تقدم شرحها . لكي يجلس الى طلاب المناصب والمراتب ؟ هذا ما لايجب ولايندب . وربما لايباح أصلا . هذا لو تركت العلم أصلا . فكيف والحمد لله ما تركته . ولا خلوت عنه قط حتى فى الطريق . فكما ان أهل الحاضرة محتاجون . فاهل القرى وأهل البادية محتاجون أكثر وكلهم عباد الله المومنون . والبلاد بلاد الله . والعباد عباد الله . وأمة محمد صلى الله عليه وسلم فى الامصار وفى القرى وفى العمود . والقرى وسط بين الامصار والعمود . وخير الامور أوساطها . وقد ابتلى اهل العمود بالجفاء

والقلقلة . وأهل الامصار بالخديعة والملق . وفاز أهل الامصار بالظرف والأدب . وفاز أهل العمود بالعز والكرم . قال الاعرابى :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا

وقال ابن الرومى :

هذا ابو الصقر فردا فى محاسنه من نسل شيبان بين الضال والسلم

أى فهو عزيز . وفي الحديث : رأى النبى صل الله عليه وسلم أداة الحرث فقال : ما دخل هذا بيت قوم الا دخله الذل . وقال أبو العلاء المعرى فى بنى مطر :

الموقدون بنجد نار بادية لايحضرون وفقد العز فى الحضر

غير ان هذا فى البلاد البعيدة . وأما هذا (المغرب) فقريب بعضه من بعض . اما القرى ففى حكم الحضارة . وأما البادية فسميت بذلك لبدو ما فيها . أى ظهوره للعين . اذ لاجدار فيها ولا باب ولا سقف . والقرية بخلاف ذلك . وفيها جل ما فى الحضر من المصالح . وفازت بقلة المئونة . وقلة الشغب . وفى الحديث (يوشك ان يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع المطر يفر بدينه من الفتن)

الى أن قال فى معرض فعل الانسان بنفسه ما يراه مصلحة ولايبالى بالناس . فان رضاهم غاية لاتدرك : فأنا كذلك . وانما أفعل ما أمكننى فى الوقت ولا أبالى . فانى ان كنت فى قرى فلا أخلو ممن يقول لو كان فى المدينة لكان له وكان . ولو دخلت المدينة فسكنت فى جحر كجحر الضب . فاذا دخلت تدافعت أنا والنساء الاجنبيات بالاكتاف . وان دعانى من يسألنى عن مسألة . أو يشقق لوحا . جلست معه فى الطريق . فقيل : (بالكم ؛ بالكم) فحينئذ نهرب لنطلب مسجدا . وعسى أن يكون الوقت ضحوة . فنجدها كلها مغلقة . فاما سافرنا الى خارج البلدة ؛ واما دفعته عنى بلا قضاء حاجة . فلابد ان يقال : ما أحوجه الى هذا الضيق ؟ وان جاءنى ضيف دفعته . وقلت لامثوى . وان تحرجت فى ذلك أفتانى من تمكن فى البخل قلبه : (ليس على الفقيه من ضيافة) وحينئذ أحط عن ظهرى ثقل ما تحمله الكرام . وانخرط فى سلك اللئام . نعوذ بالله من الانحطاط . ولقد كنت باسطت رجلا من أهل الحاضرة رأيت له فهما . فقلت: ما الذى أوجب تقصيركم فى الضيافة ؟ فقال : لو لم يكن الا تعذر منزل الضيف لكان كافيا . فقلت له : الكريم يعطى المال ان تعذر الانزال . فلو كان لكم كرم لظهر فى السوق باعطاء الفلوس . فقال : لما كان الضيق . نسى الضيف . حتى عم البخل فى الطعام وغيره . فقلت له : صدقت فهذا من أعظم عيوب الحاضرة .

انتهى ـ مختصرا ـ كلام اليوسي الذى كان يسمعه ابن العم ذلك النهار . أتلوه عليه فأحسه يورده على حججا وبراهين . ولم ينبس ببنت شفة (والحق يظهر من معنى ومن كلم) فاردت أن أزن كلام اليوسي مع ما ذهب اليه . وازن أقواله هذه بما ترجح عندى . وان أضع عصره وكل ما حمله على اختيار ما اختاره فى كفة . ثم أضع عصرى انا وكل ما حملنى على ما اختاره في كفة . فحينئذ يظهر الصبح لذى عينين . ويدرك ابن العم حفظه الله أننى أجبته اليوم بما كنت أجيبه به ذلك النهار بما يحس به أيضا منى . وان لم أنبس له من رايى ولا نبس لى من رأيه ببنت شفة . وللضمائر خوالج. وخوالج النفوس وأحاسيسها لغة لاتتركب من هذه الحروف الهجائية ولا تتحرك بها هذه الشفاه المرنة على التلفظ بنبرات الاصوات . فلأجعل ذلك فى فصلين ليمكن لنا أن نجمع أطراف الكلام :

الفصل الاول

فى الموازنة بين البادية والحاضرة المطلقتين عن هذه الاعتبارات المتعلقة بشخصية اليوسى وشخصيتى

خلق الله الناس على طباع مختلفة . وبراهم فى نواياهم ومختاراتهم على طرائق قدد . فمنهم من لايطيب له العيش الا بالاصحاب والاختلاط والانتقال . لاحتياجه لتبادل الأعمال . وتبادل الآراء . ومنهم من لايطيب له ذلك . ولا يجد الراحة الا فى الانزواء والابتعاد عن الناس . وفى هدوء مسامعه من جلبات الاصوات . وارتجاج الضوضاء . ويكفيه أن ينزوى فى قنة جبل . أو خيمة في احد الشعاب . أو فى كوخ فى احدى البسائط الفسيحة . او في بويت واطىء السقف . يشاركه فيه الثاغية والراغية والناعقة والصاهلة . بل يشارك فيه الفراريج والهررة . وسماؤه من دخان وأرضه من زبل متراكم طبقا عن طبق . فيرى منزواه وهدوءه وابتعاده عن الطارقين المختلفين . أبهج من قصر (البديع) وأبهى من (ستينية) الكلاوى . و (باهية) (١) بَا احمد .

لاريب أن كل من تركبت فيه طباع الاولين . وامتزج ذلك بطينته . وارتكز عليه طيب عيشه الذى حبب له . لايمكن أن يرى فى الذى يستطيبه الثانى الا مطبقا موصدا . أو قبرا ضيقا . كما انه لاشك ان من غلب عليه طبع الثانى ومازجه . وتخلل منه مسالك الروح . لايرى فى الذى أعجب به الاول الا منفى يخرجه من الوجود الى العدم . ومن الحياة الى الموت .

---

١) قصور فى (مراكش) تهدم أولها ولا يزال الثانى والثالث .

وهبه ولد فى الحضر أو فى البدو . فان الطبع أغلب . وفى السبتى الزاهد ولد هارون الرشيد الـذى توجد حكايتـه فى كتاب (رياض الصالحين) لليافعي . دليل على ان الطبع قد يغلب البيئة أحيانا . فيميل بالانسان الى غير ما عسى أن يزوى به عما بين سحر أسرته ونحرها . والقول الفصل اذن فى ذلك ان الناس طباع مختلفة . وكل من غلب عليه طبع مال الى ما يوافقه . ويحن اليه اذا فقده . ويقدح فى غيره . فان كان شاعرا أرسل فى ذلك قوافى رنانة . أو كاتبا دبج رسائل أو مقالات فيما ترتاح اليه نفسه . او كان ممن يتلقى الناس كلامه بالقبول ويعدونه حكما . القى ما يخامره ويعجب به فى معارض تلك الحكم . فتسير مسير الشمس فى الشرق والغرب وتهب هبوب الريح فى البر والبحر . ثم ان الطبع كثيرا ما يتولد من المالوف ولذلك تجد الانسان غالبا ابن بيئته . فلا يرى للونها ضريبا بين الالوان . ولا يكاد يستسيغ حياة اخرى غير ما الفه من صغره . وترقى فى مدارجه من فجر حياته الى كبره . ولذلك تجد للبادى كراهيـة شديدة للحاضرة وعاداتها واخلاق أهلها . كما ترى عكس ذلك فى الحاضرين . ومن خالـط الجنسين لمس ذلك لمسا .

اخبرت أن اعربيا صحراويا طرق يوما (تامانارت) فقضى غرضا له عند سيدى محمد الزكرى الرجل الصالح الزاهد الكبير . وهو من أصحاب والدى لالذى يقف على نخيل الزاوية هناك . فراود الاعربى أن يبيت عنده . فامتنع وقال : كيف يمكن أن يهدا لى جنب . أو تغمض لى عين . أو يطيب لى التنفس . وبينى وبين السماء هـذا السقف . وأشار الى سقف الدار . فقال له رب المثوى : بت فى خارج الدار . فقال : لا والله لا أرتاح منذ ادخل القرى حتى اغادرها الى فسيح الارض . حيث يهب علىَّ النسيم معطرا . وأسرح أبصارى فى بسائط الثرى . وان أردت نوما استلقيت على شيـح اجمعه . واضع تحت راسى حجرا . فانام نومة لم ينمها قط ملك فـى أى قصر من القصور .

وفى (بونعمان) بضاحية مدينة (تيزنيت) الى الآن فقيه وادنونى يسمى سيدى عبد القادر (١) من نجباء أصحاب مسعود البونعمانى . خرج يوما من المدرسة البونعمانية على نية زيارة (مراكش) فصار يسأل عن طريـق (مراكش) من (أكرور) قريـة ازاء المدرسة شماليا . ثم تابع سيره الى أن دخل (مراكش) أصيل يوم من الايام . قال : فأحسست منذ دخلت المدينة أن كل أزقتها تموج تهريجا ونتنا . وان كل نفس أتنفـه يرجع الىّ كأنما

---

١) مترجم فى الثانى عشر من (المعسول)

ـر بجيفة حمار مات منذ ليال . ثم صابرت الى أن اظل المغرب . فاحتجت الى قضاء حاجة الانسان . فدلني دال على مرحاض من المراحض العمومية المراكشية ـ وهي المعروفة بعدم نظافتها معرفة تضرب بها الامثال في كل حواضر (المغرب) ـ فما كدت أقبل على الباب وأهوى للدخول . حتى قابلتني عاصفة شديدة من رائحة لم أشم قط منذ كنت مثلها انتانا غريبا . فلم أطق ان اصبر . ولم أملك الا أن شددت يدي معا على أنفي . فخرجت مهرولا لا اعي شيئا . وأنا راجع أدراجي حتى خرجت من باب المدينة الذي منه دخلت . وذلك بعد سقوط الظلام . فاذذاك أمكنني ان أتنفس ملء صدري . وان استرجع الحياة . ثم كانت تلك الساعة اخر لمحة رأيت فيها (الحمراء) فانني بت خارج السور . ثم رجعت في الغد الى (سوس) ثم صار بعد ذلك يتعجب دائما من كل من يرد الى المدينة من أهله حين يسمعه يستطيبهـا ويقول : كيف يا عباد الله يستطاب مكان كأنه كله جيفـة حمار زهومـة وسهوكة وخنزا وانتانا ؟ أو كأنه صنان عبد أسود يتصبب عرقا في شدة حر المصيف ؟ ويضم من التهريج والازدحام ما لا راحة معه .

هاتان الحكايتان في عشرات مثلها . تبينان ما فـي طبع أمثال هؤلاء البادين وبأية عين ينظر بعضهم الى الحواضر .

خرجت مرة مع الحاج العربي برادة . وأخيه الحاج حماد الفاسيين المراكشيين ـ وهما تاجران كبيران درجا في الحضارة . وشاخا في رفاهيتها ـ الى صاحب لنا في (اولاد دليم) في فصل ربيع . وكان ذلك الصاحب قد سمعت له سكنى الحواضر . فحاول أن يقوم بالضيافة الحسنة . وان يجلو الاواني . وان يحضر أحسن مطبوخ . فبنى على ذوق أهل الحضر . ولكـن كانـت ممن معي أنهما على كل حال انما يتحاملان للتناول من الطعام جبرا لخاطر رب المثوى . والا فان ذلك دون ما ألفاه . فكنت أرحمهما . وكان معنا أخي أحمد رحمه الله . فكان لذلك أكثر تنبها . فكان يغمز الي بعينيه . واذا خلونا يضحك ويقول : لا أشبه عقول أهل الحضر الا بعقول الصبية . وفي وسط النهار . خرجنا بصينية الى وسط الازهار المختلفة الالوان . فظلا يجمعان طاقات من الازهار . وقد ابتهجا بما يجمعانه . وهذا غير معتاد عند أهل البوادي . فاسر الي أخي : أريت كيف أفعال الصبيان . وهل يمكن لك ايضا أن تدافع عن أهل الحضر وعن عقولهم . مع أنهم لايستهترون الا بما يستهتر بـه الصبيان الاغرار ؟ فكنت أقول له في نفسي : لعلك أيهـا الأخ من يسدر في عقول الصبيان وأنت لاتدري . حين لاتدرك جمال الطبيعة ولا تنفعل لأزهارها .

وحضرت مرة في دار رجل سوسي يسمى (بودرٰع) في (فاس) كان هناك رئيسا للبقالين السوسيين . وكان غنيا متحضرا أثاثا ورئيا وذوقا وكل شئ . وفي المجلس رؤساء من (ايداوزكرى) سوسيون نزلوا عليه أضيافا . فراج الحديث حول الموازنة بين أخلاق الحضر والبدو . وما يأكله كل واحد منهم . فأحضر (بودرٰع) جفنة من الحلزون المطبوخ الذي لايزال في أصونته. فقال أحد الاضياف لآخر منهم : كل منه وأنا أعطيك مائة ريال الآن . وتناولها من جيبه ووضعها أمامه . فقال له الآخر لا والله . فهل تريد أن أكون ضحكة بين رجالات قبيلتي . ومتحدثا عني بأني أكلت هذا فيتندر بي معارفي . لا والله لا أقربه . يقول ذلك بجد . وقد حلف له الآخر أنه ان تناول منه ليمكننه من المائة ريال. ولكنه زهد فيها مع فقره مخافة أن يقال عنه انه أكل (البابُوش) كما يسميه البدويون .

والحكايات في ذلك كثيرة لانطيل بها . وانما نريد أن نبين أن الطبع أملك . وان التخلق ياتي دونه الخلق . والانسان ابن بيئته في الغالب . ولهذا تجد التفاوت بين البادين أنفسهم كما تجده بين الحضريين . فما بداوة صحراء (المغرب) كبداوة صحراء (الجزائر) كما ان عادات ومألوفات حضارة (الشرق) ليست كعادات ومألوفات حضارة (الغرب) بل حضارة (الشرق) نفسها كثيرة التفاوت . واذكر اننا في عام ١٣٤٧ هـ . اجتمعنا في(الرباط) بالسائح العراقي الصحافي المشهور . وكان من ألطف الناس ومن أذكاهم وأحسنهم محاضرة . وسرعان ما انهتك بيننا حجاب الحشمة . فمازجنا ومازجناه . وحاورنا وحاورناه . فحكى لنا حكايات مكشوفة عن (مسقط) وعن محلات زارها . وقد طال بنا السمر مرة في ناد . فجرى ذكر أنواع الاطعمة . فسألناه عما ياكلون في بلاد (العراق) فذكر الضفادع من بين ما ياكلونه . فملت اليه متقززا وكنت عليه أجرأ . فقال مهلا . أوليس انكم في (المغرب) تاكلون الجراد ؟ فقلت : انه طيب . فقال : هيىء لك جرادك . ولأهيىء لي ضفادعي . ثم اذا مضغ كل واحد مضغته . ينظر ذوو الابصار من سيسيل على عثنونه وسباله أحمر لزج كأنه قيح ممزوج بدم . والشفاه من الاكلين كأنها سُروم (١) البغال فيما وصفه ابن الرومي في تشبيه الورد (٢) . فاستلقينا ضحكا . وقد غلبنا بتصويره العجيب . وطلاقة

١) السُّرْم بسين مضمومة وسكون الراء : ما يتصل بالمخرج من أسفل المِعَى . مما يظهر بعد القاء الرَّوث أحمر مستديرا .

٢) يا مادح الورد لاينفك من غلطِه ألست تنظره في كف ملتقِطه
كأنه سُرم بغل حين أبرزه عند البراز وباقي الروث في وسطِه

لسانه . وبراعة القائه الحديث . ملونا بحسب ما يريده من التأثير . فاذا كانت الحضارات نفسها مختلفة . والبداوات كذلك . فماذا يقال في ذلك الا انها بحسب الطباع . ومن ينكر طبع غيره ان لم يوافق طبعه فهو المليم. وقديما انكر ياقوت الحموى على أهل (سجلماسة) أكل الكلاب . وذكر الادريسي ـ كأنه يعرض بذم ـ أن في (مراكش) جرادا يباع في الاسواق واهل بلادنا الالغية . ينكرون على أهل (تامانارت) اكل الهررة . وفي أخبار رؤبة بن العجاج أنه كان يأكل الفيران . فقيل له في ذلك . فقال : انها افضل من دجاجكم . لا تأكل الا مما تعملون منه لباب الدقيق . وأما الدجاج فقد علمتم تسرعه الى اى رجيع لمحه . ولنترض عن الامام مالك الذى كان مذهبه في الاطعمة متسعا . حتى لو أكل ءاكل خنافس وجعلانا . وخلطها بكبير النمل وصغيره أو شوى عقارب أو أفاعي . لكان كل ذلك في مذهبه حلالا . وان كان طبعنا نحن لايستسيغ مثل ذلك . وأذواقنا لاتستحسن الا مذهب الشافعي في تحريم كل مستخبث طبعا . وأتذكر أن شيخنا العلامة سيدى السائح الرباطي حدثنا أنه كان في غدير بازاء (شالة) من عهد الجيل الماضي ضفادع كثيرة وسلاحف ضخمة . وسمكة كبرى . فكانت العجائز يذهبن بفتات الخبز يلقينه اليها ويحترمنها . وقد ينسبن اليها المعجزات . قال : وفي الليلة الاولى التى نزل فيها جيش الاحتلال الفرنسي في (الرباط) طاف السينيغاليون الذين في ذلك الجيش بتلك الضفادع والسلاحف وبالسمكة . فلم يغادروا منها في البركة شيئا . فاصبحت مقدسات العجائز في بطون السينيغاليين السود .

ولنحبس عنان القلم معلنين ما جعلناه القول الفصل في هذا الباب . انه كما خالف البارى بين الطباع . خالف بين استلذاذ الحضارة والبداوة . وان استطابة ما يستطاب من ذلك أو كراهية ما يكره منه . انما تستمدان من البيئة . ولا يمكن لمنصف أن يحكم لبيئة على أخرى بحسب طبعه فقط . الا اذا كان يقصد التندر فقط . فليترك حينئذ من يصوغ بلسانه ما شاء . فهذا سيد المرسلين تأثر ببيئة (مكة) في حبه لها وهي واد غير ذى زرع . وفي كراهته لأكل الضب . وفي حكاية نهيه عن تأبير النخل . ادلة لما ذهبنا اليه . ثم هو صلى الله عليه وسلم لم يجعل طبعه من هذه الناحية شرعا يتبع. ولا قال قائل ان ذلك سنة تتخذ اسوة . بل ان ما كان عادة خالصة كهذه . فهي بمعزل عن التشريع عند غير عبد الله بن عمر الذى خالفه كل الناس . فافهم ان كنت من الفاهمين . والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

فيما يتعلق بشخصيتي وطبعي من الحضارة والبداوة وكيف كنت في الاولى والثانية

كنا ذكرنا قبل الدواعي التي حملت الشيخ اليوسي رحمه الله على تفضيل سكنى البادية على الحاضرة . وسقنا للقارىء ذلك حتى ادركه كله بتفاصيله . فلنذكر الآن كيف كنت أنا في الحاضرة . وكيف كنت بعد ذلك في البادية . على نحو نسق اليوسي . لتتأتى بذلك الموازنة بين حالتينا معا . كما يريد ابن العم حفظه الله ان يوازن بيننا . وان يجعل حالتينا معا شَرَعا (١) وان كنت أنا لست شيئا مذكورا ازاء اليوسي في علمه الطافح وعلو همته . وروحه القوية . ونظرته الصوفية . وسنه التي بلغ فيها الوقت الذي يميل فيه صاحبه الى الراحة والقناعة . وما كنت أسمح لنفسي أن أضعني ازاءه بأي وجه . لان لليوسي في نظري ـ جلالة وعظمة ـ شخصية يتذبذب دونها بكثير أمثالي ممن ليس لهم ازاءه اي صفة يمتون اليه بها . اللهم الا هذا القلم السيال الذي يمشي على هذا القرطاس . كما له هو أيضا قلم يمشي على قرطاس . وان كان ما ينتشر من قلمه من الحكم والامثال . ونوادر الاشعار . ومختلف الآثار . يجعل قلمي سكيتا في ميدان كان فيه قلمه مجليا حقيقة . وكم بين السكيت والمجلي .

ولدت في البادية وسلخت فيها سبعة عشر ربيعا قبل أن تعرفني الحضارة وأعرفها . فقد دخلت (مراكش) أول عام ١٣٣٧ هـ . في عشية يوم . وأذكر أنني قمت ذلك النهار من قرية من (تيوْدار) وقد ركبت فرسا أحمر . ومعي راجل . فكان يريني من بعيد صومعة (الكتبية) العالية . فكنت أمعن في شاكلة فرسي . مبادرة ان أرى كيف (مراكش) وهل هي على مقدار (السويرة) التي كنت رأيتها منذ أيام . فدخلنا من الباب الجديد . وهو اذ ذاك كما فتح بقليل من السنوات . فكأن هذا الباب ما فتح وهيىء الا ليدخل منه تلميذ بدوي قصير النظر . ضيق التفكير . على فرس هملاج قطوف . ثم ليخرج منه منفيا بعد ذلك بتسعة عشر عاما . بعدما صار أستاذا متحضرا . يمتد نظره الى ءافاق وارجاء هي أوسع من السماوات والارضين بكثير . ويتسع تفكيره اتساعا ليس له حد . حتى لايمكن أن يحده مقياس . وكأن تلك السيارة التي خرجت به . رمز لما كان عليه اليوم . ان كان ذلك الهملاج رمزا لما كان عليه أمس . وأتذكر أنني بعد أيام أتمنى أن أركب عربة فآخذ الدراهم بيدي . فأستحيي أن استوقفها . وذلك من غرارة البداوة .

---

١) بفتحتين : سواء

دخلت (مراكش) وانا ساذج لا أعرف الا بيئة طلبة (سوس) والا بيئة الفقراء اصحاب والدى الذين يقبلون منى راس ابن شيخهم . على حين انهم يدسون في يده ما يدسون . وكانت الحرب العالمية اذ ذاك فى أشد معاركها . ولذويها قصف الرعود المصطكة . ولكننى لا اسمع ولا أعلم عنها شيئا . ولا أرى الا أن الدنيا كما تتمثل امام جهلى فى هدوء وراحة واطمئنان ثم لم يمض ما يمضى حتى انكشف الحجاب . وعرفت اجواز العالم بواسطة المطالعات . والدراسات التاريخية والجغرافية . وحتى ادركت أدوار تلك الحرب الجهنمية . وعرفت من أقطابها أمثال « هندنبورغ » واركان حربه . و «جوفر» واخوانه من الحلفاء . وألممت بمعركة «فيردان» واشباهها من مراكين تلك المعامع الهائلة . كما عرفت تقلبات العالم . وأمانى كل قومية من القوميات الثائرة على الاستعمار . ودرست الغابر منها والحاضر . فحييت منى امانى . وانبعثت حيويات فتفتحت امامى مغاليق لم تكن لتفتح لى لو كنت فى البادية وان قتلت علوم الفقه والنحو والفرائض والادب التى يدرسها الالفيون ومن اليهم بحثا . واذ ذاك صح فى مع الحاضرة ما قاله مجنون ليلى :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ثم ظهر أن الطبع الذى ارتكز فى جبلتى لايوافقه الا الحضر . وان البداوة منى ومن سجاياى بمنزلة الدركات من مجارى النجوم الثواقب .

كنت نحو سنتين أحاول التحصن دون المخالطة . وكنت احضر فى الجامع اليوسفى بعض المجالس . وانا فى طرف المجلس مطرق ساكت . لا أكلم أحدا . ولا يكلمنى احد . واجانب الناس ويجانبوننى . حتى تجددت أسباب . ودبت الى حياة أخرى . فجعلت اسلخ ما أنا فيه شيئا فشيئا . وصارت معاقل تحصننى تسقط أمام الحياة الزاحفة معقلا معقلا. حتى لم يبق الا أن تلج الحياة من الباب الذى يفتح لها كما يفتح اليوم باب (اسبانيا) لفرانكو بعدما سقطت معاقلها كلها . فتبوأ منها ما شاء . فصادفت تلك الحياة منى ما كنت خلقت له فى الازل . قلبا حيا . وخلقا غضا طريا . وأريحية عطرة مبتهجة . فكان الحال كما قال أبو العتاهية فى المهدى العباسى والخلافة :

أتته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

حتى الحياة الصوفية قد يدب اليها ايضا بدورها ما يدب من الغفلات .

وبينما أنا أسبح فيما أنا فيه . اذ جاء الشيخ أبو شعيب الدكالى عام ١٣٤٢ هـ الى (مراكش) مع السلطان مولاى يوسف . فتجددت آراء فى مجالسه واستحدثت افكار . وانتسفت معتقدات . فدبت تلك الحياة المذكورة فى أجلى

مظاهرها . فصار كل شيء مر يستحلي في تطلب المعارف . فقلت اما المعارف واما القبر .

ثم بقيت أيضا في (فاس) ما شاء الله . وأنا أحاول أن أعيد التحصن نحو الفاسيين . كما كنت حاولته نحو المراكشيين . فكنت أمر فلا أزيد على السلام السني شيئا . فقال الاستاذ الغازي المكناسي بعد ذلك : كثيرا ما تمر وقد وضعت منظارك على عينيك . فكنا نتغامز عليك ونقول : انظروا الى هذا السوسي المتكبر . قال : فنغمزك بالتعجرف والتكبر ما شاء الله . لما نراه من منظارك ومن ترفعك عنا . ومن كان يدرينا اذ ذاك انك هذا الرجل المعاشر الحلو الفكاهة . الذي يملك مشاعرنا بأقواله ونكاته ؟

كان مجلس شيخنا القاضي سيدي محمد بن العربي العلوي مجمع ذوي الافكار الجديدة من أبناء (القرويين) فكنت انا اسرد عليه (كامل المبرد) و (مقامات الحريري) واذكر أن أول ما رأيت شاعر الشباب . كان اثر قيامنا يوما من مجلس المقامات . في زاوية الشيخ ماء العينين التي اتخذت اذ ذاك مدرسة ملحقة بالمدرسة العنانية لقربها منها . فرأيت شاعر الشباب شابا نحيلا . وهو حاسر عليه جبة مخططة . وهو اذ ذاك كما يناهز الحلم . وهناك عرفت ابناء (فاس) الكرام الذين يسلون الغريب . ويملكون قلب العشير . فاكبروني اكبارا استرقوني به . واشهد انني عاشرتهم اربع سنوات . فكنت دائما موضع اجلالهم واحترامهم . لأنني اعرف لهم دائما مركزهم وتفوقهم . فانقطعت الى معاشرتهم . فرأيت في الثلة التي أعاشرها همة ونبوغا وعفة ونزاهة . وكرما وحلاوة معاشرة . وطلاوة صحبة . لا أنساها حتى يرمسني الرامسون : أبي المزايا . والعابد . ومكوار . ومولاي الصديق . والمديني . وطبقتهم .

سمعت مرة من شيخنا الاستاذ الطاهر بن محمد الايفراني حين كنت مجاورا في (تانكرت) في احدى عشايا الرمضانات انه قال : كثيرا ما يرمى الناس أهل (فاس) بالبخل والكزازة . ولكنني رأيت هنا لما زرت(فاسا) كرما جما . واخاء صافيا . وقد دخل علينا هناك رمضان . فقال لنا واحد منهم : ان افطاركم كل عشية في داري دائما . فلا تعدوا غيري في كل أيام رمضان . فانني لا أقيلكم . وبمثل هذه الشهادة أشهد . فقد آنست من القوم من الاخلاق والعفة والنزاهة والكرم الى حد الايثار . ما أشهد به حتى كنت أطرقهم في ديارهم من غير استدعاء . فالقى بكل تجلة . كما انهم أيضا يتخذون بيتي في المدرسة (البوعنانية) كندوة يتناوبونها متى طلعوا الى (الطالعة) كل عشية . وقد حمدت الله حين سكنت في (الطالعة) التي قال

فيها ابن الخطيب فيما انشدنا شيخنا الرسموكي ـ والحق ان البيت في (مصر) لا في (فاس) . وهي (القلعة) وهذه « الطالعة » ـ

اذا كنت في (فاس) ولم تك ساكنا   بطلعته العليا فما أنت في (فاس)

وكم مر لنا هناك في بيتي من أحاديث . ومناظرات ومحاورات وخطب وغيرها . بذلك أشهد أنا وشيخي الايفراني للفاسيين . فليقل غيري ما شاء :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي   فلا زال غضبانا عليَّ لئامها

وقال اخر :

اذا انعمت نعم عليَّ بنظرة   فلا أسعدت سعدى ولاأجملت جمل

ثم حللت بـ (الرباط) وما ادراك ما (الرباط) الرباط الذي ترتبط به القلوب . وتنتشب في حسن موقعه وهندامه العيون . فكانت السنة التي قضيتها هناك كسنة العروس فيمتعتها . علوم ومطالعات وفوائد . واحترامات واكبارات . عرفت بها كيف يكون الناس للغرباء . وقد جمع لي الاديب ابن العباس القباج ما كان حولي هناك من احترام في قولة قالها لي حين يودعني أخيرا الى (مراكش) انني أغبطك في الذي لك في قلوب الرباطيين . مع انهم قلما يسامحون أحدا ان رأوا منه اعوجاجا عن عمد وعن غير عمد . فقلت له : ان الفضل راجع اليك . أولاتزال تستحضر ماقلت لي يوما وقد رأيتني انتقد انسانا رباطيا بيني وبينك . قلت لي : انني أنبهك الى أن لاتفرط منك أدنى كلمة في جانب أي انسان رباطي . والاَّ فستسوء عاقبتك بين الرباطيين . فعلى ذلك المنهاج سرت . فلك اذن عليَّ الشكر كله .

كذلك كانت حياة (الرباط) كلها جنة في سنة ١٣٤٧ هـ . فهذه دروس شيخنا سيدي المدني ابن الحسني متعة من متع الفكر . وتلك مجالس الدكالي الشيخ الأكبر . فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين . وعن يمينها مذاكرات العلامة السائح الذي كثيرا ما أطرقه كل يوم . وبين ذلك مطالعات في كتب نوادر تمدني بها الخزانة العمومية . والمطابع المصرية . التي تلقي الينا غوالي المطبوعات تترى . وأما المجلات العلمية فحدث عن البحر ولا حرج. ثم نزه أبي رقراق . وضفاف البحر الفسيحة . ومنتديات الاسمار عند شيخنا سيدي المدني بن الحسني وغيره . ووراء ذلك كله صحبة الاديب محمد ابن العباس القباج شقيق الروح . ومنية النفس . وتفاحة النديم . وجؤنة الاديب . فاننا نسكن معا في ناحية (سقاية ابن المكي) فنتصاحب غالب الساعات . وهو يرشدني الى كل نافع . بذلك انقضت سنة لا أدري أيمكن لي أن استعيد مثلها في هذه الحياة . أم ننتظرها الى الفردوس .

ثم سبق القدر أن أمثل دور التعليم في (الحمراء) عن غير نية لي سابقة

ومن غير ان أضع له برنامجا . أو أتخذ له عدة . وانما هي بذرة نمت منها فروع باسقة غير معتنى بتقويمها . فتشابكت في جو منبتها . فتأتى لظلها أن يتفيأه أناس كثيرون يتزايدون بتوالى الايام .

نزلت (الحمراء) وأنا لا أدرى ما أصنع . وانما الذى غلب عليّ . وأثر فى تأثيرا شديدا . تخلفى عن حلبتى التى التحقت بـ (مصر) تستقى من معينها . كالأخ المكى الناصرى والاخ عبد الرحمن ابن الشيخ أبى شعيب الدكالى . والاخ محمد بن عثمان المسفيوى المراكشي . فلم أدر كيف أصنع بعدهم . ولكن لم تمض لى سنة فى (مراكش) حتى تمهدت تلك الطريق التى يعلم خبرها كل أحد . حين قدمتني الأقدار أستاذا . وأنا أنشد بينى وبين نفسى :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن العناء تفردى بالسؤدد

وانشد ايضا :

لعمر أبيك ما نسب المعلى الى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوّح نبتها رعى الهشيم

صادفت فى (الحمراء) نفوسا طيبة . ولدات لاتعرف الاَ المنافسة فى الميادين ولا يوجد للحسد ذكر فى قاموسها . فتسابقنا متساندين . وأقبلنا على خوض المعارف مبتهجين ؛ أنا والاساتذة : عبد القادر المسفيوى ؛ وعبد الجليل ابن القزيز . وأحمد بن الفضيل . ومحمد بن عبد الرازق ؛ وسيدى بريك بن أحمد ؛ فلم يمض الاَ قليل حتى كان هؤلاء (العلماً الجدد) ـ كما يسميهم بعض كبار العلماء المسنين ـ يشقون طريقهم فى (مراكش) وقد ظهرت اثر ذلك للعيان . وسمعه الاصم وابصره الاعمى . فكانت الاعمال تتزايد كلما رأينا من الناس تنشيطا واكبارا لما نقوم به . فكانت المدارس تؤسس بهم . والمساجد الكبار تفتح أبوابها امامهم لدروسهم العامة . فولجوا باقدام ثابتة . وهم غافلون أو متغافلون عما عسى أن يقوله من لابد ان يقولوا اقوالا ملفقة نسمعها من الافواه فننغض الى قائليها رؤوسنا . ونقول له بلسان الحال : اننا نحمد الله على أن جعلنا من طائفة العلم . لا من طائفة الجهل .

كان الذى استولى عليّ فى كل ذلك ان ادرس لنفسى أنا اولا . وكان تعليم غير ثانويا . لما أشعر به من نقص مداركى الى غاية لا أريد أن أبقى عليها طوال عمرى . فوجدت من نجباء أصحابى من يعينوننى . فيتخذوننى ايضا دليلا مرشدا . فتكافأت الاعمال . وتعاونت الجهود . فحمدنا الله على ما يُيسره .

وفى عام ١٣٥٠ هـ . اشتدت رغبتى فى الزواج . وقد عرض عليّ شيخ

كبير من شيوخي بنته بواسطة من أراه لى من الناصحين . كما عرض كثيرون غيره بناتهم . حتى كدت اقترن ببنت من الفاسيات . وباخرى من المراكشيات عرضها علىّ والدها ممن يحضرون فى دروسى . وذلك منه محبة للعلم جزاه الله خيرا . ولكن الذى كان يأخذ بحجزتى عن ذلك شيئان . أحدهما اننى فقير . فلا أريد أن أحتاج بسبب الزواج الى أن أمد يدى الى ما لعله يحول بينى وبين الخوض فى العلوم . وهو الذى انوى أن أمضى فيه عمرى . ولهذه العلة لم أتزوج بنت ذلك الشيخ الكبير . مع أن فى ذلك ما فيه لمن يتطاول الى المجد المستعار . أو الى مصاهرة الرجال العظام . ليعد من الرجال . بواسطة ربات الحجال . ولما فى من الانفة أعرضت عن ذلك كله اعراضا . لأننى ؛ أولا ؛ لا أرى أن المجد الذى لم يؤسسه الانسان لنفسه لايستحق ان يكون مجدا محققا . وخفت أن أكون كذلك الوزير الذى حاز من دست الوزارة الافراح . فكان مولانا الوزير بالاحراح . كما يقول ذلك الشاعر فى أحد الوزراء العباسيين . وأذل رجل فى نظرى من يريد أن يعيش فى ظل امرأة . وان تتزوج به انثى . وان كان يتبختر فى المحافل والشوارع بأكتاف عريضة على أن أهل هذا الشعور قليلون .

وثانيا : ان فى حلقى حزونة تكون شديدة أحيانا . ولا أحسب أن مثل النساء اللواتى يعرضن علىّ يصبرن لى . حتى أفىّ لاصلاح ما فسد . كما هى عادتى دائما . ولما كنت غير مستهام بالجمال الا تخيلا . كما هى عادة بعض الشعراء . وكنت لا أجد غضاضة فى أن أتزوج من عرض النسا ؛ فأتمشى بمقدار . وأنا والحمد لله لم استهتر بمتع الحضارة . ولا كان منى تشوف شديد اليها . وكل ما أتمنى أن أجد الراحة . وفراغ البال . ومن لايعاكسنى فى حياتى . ولا يفسد علىّ حريتى . وحين كنت عرفت من بنات الحضر أخلاقا كثيرة مما سارت باخباره الركبان (ويأتيك بالاخبار من لم يزود) كالشره الى التمتع . والتسرع الى التملص من ربقة الحياء وقلة الصبر . عرفت أنهن لسن من نسا مثلى . لأننى أريد صبورا لاتراني دائما وان تغيرت أحوالى الا بالعين الاولى . وقديما قيل فيمن صاحب من لايصبر ذلك المثل الشهير : انا تئق . وانت مئق . فكيف نتفق . اى أنا سريع الغضب . وأنت لاتتحمل ؛ فكيف نتفق .

وقد كنت ذاكرت فى ذلك صاحبنا شيبة الحمد سيدى عثمان المسفيوى حفظه الله . وكان ممن لايسر نصحا . فحين أبنت له أخلاقى ومرغوباتى فى ذلك . قال : والله لو كانت لى بنت لزوجتك اياها على رغم أنفك . فانك وجدت من هؤلاء من تتعزز عليهم . قال حفظه الله ذلك يضاحكنى به . لانه هو

الواسطة لذلك الشيخ المذكور . كما كان واسطة لقاض فاضل أيضا . فقلت له : انما يسرع الى بنات هؤلاء من لايريد أن يتمشى بقدم وطيدة . أو يريد أن يلصق بمجد غيره . وانا والحمد لله لست بأحدهما . فلو كان الاقتران بالرجل من احدهما لاقدمت لأني أعرف فضله وأخلاقه . أما والاقتران سيكون بامرأة من وراء حجاب ربما لاتمت الى اخلاق والدها بشئ . فلايسعني الا الاحجام الى أن استخير الله . ثم حكيت له ما أعرفه عن الحضريات . مع شكري لكل من دعاني من هؤلاء الفضلاء أهلا للمصاهرة . ثم خطر لي أن أتزوج من (سوس) فكانت المادة التي اعتمد عليها من عند ذلك الفاضل المسفيوي سلفا منه . وتلك منة لن أنساها له . كافاه الله عليها بكل خير في الدنيا والآخرة . وهو والله من أفاضل من رأيتهم في (مراكش) وكانت نظراته وانتقاداته التي يستمدها من تجارب عمره الطويل سديدة الى الغاية وهو بدوي متحضر بمقدار . محافظ على الدين وعلى السنة . متواضع . وهو والد الاستاذين ابرهيم نزيل (القاهرة) ومحمد أحد الاساتذة الذين كنا معهم في (الحمراء) حتى فرق الدهر بيننا (وقد تولى وشيكا رياسة ابن يوسف)

اقترنت فحاولت أن أبقي بدويا لا يأخذ من الحضارة الا بمقدار . فأغلقت باب داري عن النساء . فلا تعلم قعيدة بيتي ما وراء الباب من بنات الحضارة . فلا تزور ولا تزار الا من اختارتهن هي للدخول والخروج . وقد تيسر لي مسكن ازاء الزاوية في (الرميلة) فامكن لنا أن نستريح من كل ما يشتكي منه اليوسي في (فاس) فلا اسمع مقترحا . فلا (شوف اللحم) ولا (شوف الحوت) ولا (شوف الزعفران) يلج أذني . نقنع بخبز الشعير . والزيت مع الخضر . وبما تيسر من الكسكس . ومتى تيسر لحم فذاك . وكان الخير - نحمد الله - علينا مطردا . والماء مار في وسط المطبخ . والضوء الكهربائي يجعل لنا الليل نهارا . وكذلك أمضينا خمس سنوات . فاللباس الجديد الذي جعل أولا للتزيين عند ربة المثوى . لايزال على جدته . لانه فقد مجتمعات النساء . فلا يلبس الا احيانا وأعيادا . والغسل في كل وقت متصل . لان الماء موجود في الانابيب البلدية التي أمررناها في الدار . والمئونة كفيت . ولا جار أصلا من الجهات الأربع . وتلك نعمة عظيمة . فكانت تلك الدار على ضيقها وعدم زخرفتها . تراها ربتها كأنها قصر عظيم من قصور العظماء .

وازاء هذه النعمة . وازاء نعمة الخوض في العلم . تلك الاحترام الذي أضفاه علينا المراكشيون الكرام . وهناك الاستاذ ابرهيم بن أحمد بن العم . والشاعر الاستاذ الحسن البونعماني . والاديب محمد بن عبد الله الروداني . وغيرهم من عشرات كبار أصحابنا نجتمع ولا نفترق . فكان عيشنا مع ضيقه

احيانا متسع بسعة الاخلاق التى عند هذه الزمرة . وقد كسانا الاديب البونعمانى حلة فضفاضة من الانبساط . موشاة بالاريحية والفكاهات . فكان لبقا فى مسح كل ما عسى أن يعرض مما لاتخلو منه الحياة من حزن او قلق . فكنا ـ وان كان عيشنا أحيانا من خبز الشعير والزيت ؛ بل هو الغالب ـ نستمتع بأحلى الساعات التى لم يكن أحد منا لينساها الى الآن . فقد كنا روحا واحدة فى جسوم متفرقة (وما يوم حليمة بسر)

وأما سكان حارة (باب دكالة) بـ (مراكش) وهى الحارة التى نسكنها . فاننا نلقى منهم ومن رؤسائهم وأعيانهم كل تجلة واكرام . بما يظهرون لنا به فى كل مناسبة . ولم يكن أهل الحاضرة كأهل البادية . يتتبعون الاسئلة عن كل شئ يرونه . فقد يكون الانسان جارك دارا لدار . ويكون عن أحوالك كما أنت عن أحواله فى غفلة . فلا مضايقة هناك بالاسئلة الملحفة كما وجدناه هنا فى (الغ) وقد جاورنا انسان جدارا بجدار . فلم نر قط منه أدنى تنغيص مع اكتظاظ الزاوية بالطلبة وبالواردين . مما لابد أن يحدث معه ما لايحمد عادة عند الجيران .

هكذا جللتنا الاحترامات فى كل ناحية . فالعلماء الـذات يزوروننا ونزورهم . ولانتبادل الا صفاء واخلاصا . بعضهم نعلم ظاهره وباطنه وبعضهم نقبل ظاهره ولا علينا فى باطنه . ويرحم الذى يقول :

اقبل معاذير من ياتيك معتذرا ... ان بر عندك فيما قال او فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

فلا يطرقنا منهم من الكلام الجارح الذى يصل العظم شئ . فان كانت كلمة صدرت فمست الجلد فلا بأس . لأنك لاترى لها مظهرا . ولا تحس أنها صدرت عن احنة دفينة . ومثل ذلك لاينبغى أن يأخذ به الانسان أصحابه :

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

والمدارة تجبر الكسير . وتمسح عن القلوب ما ربما يلم بها . ولابد منها فى كل صحبة . خصوصا فى مثل الصحبة التى كنا فيها بين زمر مختلفة المشارب . متفاوتة المبادىء :

ما دمت حيا فدار الناس كلهم ... فانما أنت فى دار المداراة
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى
عما قريب نديما للندامات

على أن من يضطغنون علينا من هذه الطبقة على خلاف ما يظهرون من المجاملة فانما أوغرهم النظر الى النعم التى تفضل بها الرزاق الذى قسم الحظوظ

فى أزله . فراوا أنفسهم أحق بها ممن ساقها الله اليهم . فاتعبوا أنفسهم - عفا الله عنهم - دون أن يستطيعوا تحويل ارادة الله عن مجراها .

وأما الشعب وطبقاته فما كنا نلقى منه الا كامل الاحترام المتجلى فى مختلف المظاهر . وأعظمها التوجه بالسؤال عن مسائل العلم . فقلما يمشى الانسان فى شارع الا ويلقاه من يستفسره عن مشكل دينى . وخصوصا بعد مغادرة مجالس الدروس . فلا يكاد ينفك من واحد حتى ياخذه آخر . فيحس العالم هناك فى الحضر بأن سلعته رائجة . فان كان من المغرورين فانه يبقى على غروره . ويقول بلغت القمة . وحزت المنى . وان كان ممن يتحقق فى نفسه جهلا مثل ما نعرفه من أنفسنا حقيقة - لا تواضعا مزيفا - فانه ينشط للاستزادة . فلا يعرف كيف تمضى الايام . ولا كيف تتوالى الشهور .

ايه نسيت تلك الحياة الادبية التى أخذت بايدينا الى السماوات باخيلتها . فقد كنت فى (الحمراء) غريقا فى الفنون المدروسة . وخصوصا الفقه والحديث والاصول . فنسيت الشعر والخوض فى بحوره . وانتقاء جواهره ودرره . الى أن اتصل بنا الاديب الاستاذ الحسن البونعمانى . فتبدلت تلك الحياة . وأعادنا الى الحياة الادبية . فسرنا فيها خطوات :

وذو الشوق القديم وان تسلى مشوق حين يلقى العاشقينا

الى أن نبغ عندنا أفراد كالحسن التنانى ومحمد التنانى ومحمد الرندانى وأحمد شوقى الدكالى وعرفة الفاسى ومحمد الاسفى وابرهيم الالغى وآخرون زيادة عن اخواننا المراكشيين الذين ينتابوننا كمولاى أحمد النور . وعبد القادر بن حسن . فتكون حولنا بهم ناد ادبى . فابتهجنا بـ (الحمراء) وبنهضتها المباركة . فتاتى لى بذلك أن اراجع مناغاة ربة الشعر . وان تصدر عنى قصائد ومقطعات . بعضها مجموع فى دفتر (الرمليات)

هذا وانا أحرث خارج (الحمراء) فيمدنا ذلك بما نترمّق به ونتبلغ . فقد تهيا المسكن الذى نبنيه وأشرف على التمام . بعدما لاقينا منه عرق القربة . وكنا فى كل ذلك انما نؤسس لنوطد للمستقبل أساسا يجمع بين ما أمكن من الحضارة . وبين ما نحرص عليه من بساطة البداوة . فعشنا حياة عملية علمية أدبية احترافية . تعلمية تعليمية . يعلوها شبه نظام . ونحن نسعى طاقتنا الى النظام التام . وان لم نجد فى العصا سيرا (١) . ولا فى الجناح ريشا . فنقنع بما تيسر من كل شئ . فحمدنا الله الذى هيأنا للعلم . ونتمنى لو غفل عنا الدهر هناك حتى نمضى حياتنا بسلام .

---

١) مثل ؛ يقال كأن فى عصاه سير . اذا كان فيه قوة الى الامام .

من أخبار الحاضرة الا خبر الناحية التى اهتم بها وهى العلم وما اليه . والفضيلة وما اليها . وما سوى ذلك لا اهتم به . وكم اشفق على ضياع حياة من يهتمون به .

يقولون لى صفها فانت بوصفها   خبير اجل عندى باوصافها علم

ذلك ما رأيناه فى (مراكش) وأما الذى نراه فى هذه القرية النائية عن العمران . والتى كان لها ما كان فى زمن ءابائنا رحمهم الله . فهو انه قد تبدل فيها كل شىء عما عهدناه . فذهب الحيا . وذوى العلم والجد . وكاد الدين يضمحل بعدما كانت مأوى له . ومحط رحال طالبيه . فانطفأ الجمر وبقى الرماد . فقد عمت المنكرات . وقامت الملاهى ومجالسها مقام مجالس العلم والذكر . ولم ينج من ذلك الا القليل من القليل . وهم ظاهرون كالشمس .

نزلت هنا فاول ما لاحظت انني ان أردت أن يمكن لى أن أتكلم مع بعض أفراد ممن ألقاهم كان لابد لى أن امثل دور مليك ووزيره يذكران فى حكاية . فقد حكى أن ملكا ووزيره كانا حكيمين منجمين . فاطلعا بعلمهما انه فى وقت معين عندهما سينزل مطر . وان كل من شرب منه سينزل مقياس تمييزه درجات . وانه سيفقد كمية كبيرة من تعقله . فحرصا على أن يحتاطا لأنفسهما من التناول منه . فأدخرا من الماء النقى مقدار ما يكفيهما لئلا يصابا بما سيصاب به الناس . ثم لما نزل المطر وتناول منه كل الناس . صار الاختلاف يظهر بينهما وبين بقية أفراد رعيتهما . وأخذ الناس يتحدثون بأن عقل الملك والوزير ليسا كعقول الناس . ولذلك فلابد اذن أن يكونا ممسوسين بجنة . وقد ظهر لهم ذلك من أحوالهما العامة . وما زالوا يتداولون ذلك حتى اجمعوا على أن الملك والوزير ممسوسان فى عقولهما. وانه لابد من خلعهما . لجنونهما واختلال عقولهما . فلما رأى الملك والوزير ذلك قال الملك لوزيره : لنشرب من ماء الناس لتمكن لنا معاشرة الناس . فشربا منه . فاستوى الماء والخشبة . فأحس الناس بتحسن عقل الملك ووزيره فكفوا عما كانوا عزموا عليه من خلعهما . سمعت هذه الحكاية من شيخنا العلامة سيدى محمد بن العربى العلوى . وقد قال انى حاججت مرة شيخ الجماعة الاستاذ سيدى أحمد بن الجيلالى فى موضوع حتى تيسرت له معرفة الحق . وأقر بأن الناس فى ذلك على خطأ وان الحق فيما نبذه الناس وراء ثم قال : لكن لابد أن نساير الناس ان أردنا أن نعيش معهم . فحكى هذه الحكاية :

ذلك هو الدور الذى أمثله فى هذه القرية . منذ نزلت فيها ،

فصرت أسكت أحيانا . وهو الغالب . ان رأيت اسفافا فى التفكير . وأحيانا أورد ما أورد فى صورة التشكيك . وأحيانا أضطر الى المجاراة . أفعل هذا وذاك . وأنا أعذر من هم أمامى . لان بداوتهم هى التى أملت عليهم السذاجة فى التفكير . أو عدم التوسع فى المعلومات . ولم أكن الا واحدا منهم قبل أن تجلونى الحاضرة وعلومها . وأتذكر أنا كنا نسمع ونحن اذذاك فى مدارس (سوس) ان فلانا أتى من (فرنسة) بمال كثير لم يستطع أصحاب الديوانة فى المرسى أن يحسبوا أوراقه . فاكتفوا فيها بالميزان عن العد . فكان فيها كذا وكذا رطلا . سمعت ذلك مرارا من كبار الطلبة . من غير ان أسمع منتقدا أو من يتشكك فى ذلك . ومتى كان العادون يعجزون عن عد الاوراق البنكية وان كانت ملايين . فضلا عن ألوف . فضلا عن مئات . ان صح أن لهم ءالافا اذذاك . ثم مامعنى هذا الوزن وما هى جدواه فى الاوراق البنكية ؟ وأستحضر اننا فى يوم ءاخر وقد استدرنا بموقد النار فى مطبخ الخادم . بمدرسة (تانكرت) بـ (ايفران) عام ١٣٣٥ هـ . جعل طالب سملالى كبير ذو لحية . ممن له عقل سليم يدرك به فى بلاده كل ما اراد يسمى (ابن الدربوش) يقول حاكيا عن تاجر جاء من (مراكش) وهو يتحدث عن غنى قواد الحوز . ان القائد عبد الملك المتوكى استدعى القائد المدنى الاكلاوى . فطبخ له كل الطعام الذى ضيفه به بالحرير. يريد بذلك أن يريه مقدار غناه . ثم استدعاه الآخر . فطبخ له الطعام بالاوراق البنكية . يحكى ذلك وهو له مصدق . ونحن معه كذلك مصدقون . ومثل هذه السذاجة غير مختصة بـ (سوس) ولا بباديته اذ ذاك . فقد كان أهل الجيل الماضى الذى أدركناه يتحدثون فى معرض تناطح الدول الكبرى فيقولون : ان الدولة الفلانية لها على الدولة الفلانية كذا وكذا ساعة من القتل . بحيث تهىء لها صفوفا صفوفا من جندها فترسل عليها الاخرى صفوفا من جنودها يحصدون تلك الصفوف واقفة لاتتحرك . ولا يسمح لها بالقانون أن تدافع عن نفسها حتى تنقضى الساعة او الساعات التى هى دين . كنت سمعت هذا فى بعض منتديات باديتنا . ثم أخبرنا الباشا فى (الحمراء) سابقا قبل الاحتلال الفاضل السيد ادريس منو . ان تلك الفكرة كانت متداولة فى (المغرب) بين الاعوان . وعبيد البخارى ومن اليهم . يتحاكونها فى دار السلطان . قال وسمعت مرة ان سفير احدى الدول زار حضرة السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن . فقالوا انه قدم للسلطان احدى تلك الساعات من القتل كانت لدولته على دولة أخرى . يأخذها منها السلطان متى شاء . ومثل هذا مما يتحدث به المشارقة ان أحد الملوك العثمانيين زار احدى الدول الكبرى فطبخت له

القهوة برسم دين كان لها على الدولة التركية . وأحسب أنهم يقولون ان ذلك السلطان هو عبد العزيز التركي . وذلك بعيد من اخلاق اوربة التي يستدين أفرادها كافتتاح للاستعمار . وربما تؤدي حكومة ما دينا ما لأسباب سياسية . واما تحريق رسوم الدين في طبخ القهوة فليس من أفعال العقلاء وقد ذكر ان زوجة (نابليون) الثالث مزقت رسم دين كان لـ (فرنسا) على (مصر) يوم احتفال (مصر) بافتتاح (قناة سويس) فعلت ذلك سياسة .

(أقول) : في مثل هذه البيئة أصبحت بعد أن فارقت تلك البيئة بغتة فقد نزلت في قوم لايمتّون اليّ ولا أمتّ اليهم بتفكير . ولا حياة ان لم يكن تفكير . فاجدني ان كانوا يتحدثون بينهم . ويتسابقون في تفكيرهم هذا ويتعمقون فيه . أكاد أفلت ضحكة أكون بها أضحوكة بينهم . على أنني أعلم أن موقع تفكيري عندهم كموقع تفكيرهم عندي سواء بسواء . وقد قالوا ان سليمان بن داود عليهما السلام سئل عما يقصده بما حكاه الله تعلى عنه في كتابه العزيز من قوله في الهدهد (لأعذبنه عذابا شديدا) فقال : اسجنه مع غير جنسه . أفمن انتقل من ذلك الوسط الى هذا الوسط . يلام ان أرسل صيحة صارخة لا أبا لكم ؟ (١)

فأين هذه البيئة مما كنت فيه في (الحمراء) حين أكون مغمورا بتفكير صحيح . فاقبل وادبر مع الجلاس كما أحب . وهم يمتّون الى تفكيري . وأنا أمتّ الى تفكيرهم . فمتى انتدينا اتحد كل مع جليسه حذو القذة بالقذة . ثم انني نزلت هنا فارغ الجيب . حتى انني قضيت شهراأو أكثر ولا فلس في كيسي . حتى زارتني نفحة بيضاوية أولا ثم حمراوية . فزارتني الحياة من جديد ــ وقد كنت اعتدت في (الحمراء) أن أفضل على غيري غالبا ــ لا أن يفضل غيري عليّ ــ فتجلدت وأظهرت أنني غني مملوء الجيب . الى أن أفضل الله فانتفخ الجيب . بالنفحات الخضرية . فتوسعت في نفقة الاهل . ثم سرعان ما تمشى بينهم انّ قالوا ان فلانا يستخدم الجن . والاّ فمن اين ينفق ؟ ولو كشف لهم الغطاء لأدركوا أن تلك الحضارة هي التي ترشح عليّ . ولولاها لمت سغبا بينهم في بعض الاحيان اول أمري (هذا) مع عدم انكار أيضا لـ(الغ)

حضرت مرة في مكتب (تافراوت) وهو مركز السلطة في ناحيتنا . وقد اجتمع فيه الرؤساء الرسميون كلهم . فصاروا يتجاذبون الحديث . فوجدت لنفسي وأنا ساكت ما يقوم مقام السينما . لو كان في السينما تمثيل

---

١) هذا مكتوب ١٣٥٦ هـ . ونحن اليوم في ١٣٨٢ هـ . وقد تبدلت (الغ) وفكرت وصار فيها التقدميون حتى ان منهم من يعدني أنا أيها المختار جامدا الآن . متأخرا عن القافلة . وهنا موقع العجب .

للافكار . كما مثلتها لى أحاديثهم . فهناك من أولئك الرؤساء فلان . وشهرته كبيرة . رأيت فيه مارأيت . فلما قمنا قال لى الأخ محمد – وهو الذى يشاركنى وحده فى (الغ) فى تفكيرى – ماذا رأيت اليوم وماذا ظهر لك ؟ فقلت لـه من يحضر مع هؤلاء ويسكت ويسمع . سيتمتع بمتـع من مختلف الافكـار الطريفة . لايجدها عند غيرهم . فقال : اننى لا أحتقر نفسى الا حين أحشر معهم هكذا فى الرسميات . ولكن ما العمل ؟ ثم افر منهم واجتنبهم . وقلما اعرف حتى أسماءهم . ثم ان جئت الى ناحية أخرى من مبادلة الافكار فـى المعارف فاننى لأحمد من علمائهم وأدبائهم الناحية اللغوية والاذواق الادبية والفهوم الفقهية . على حسب النمط القديم . واما الابحاث الفقهية التى ألفت البحث فيها على ضوء الحديث والاصول والمذاهب . واختلاف الآراء العالية فاننى اختار ان لا اجارى فيها احدا منهم . على أننى اقر أننى ان وجـدت انسا فـى (الغ) فاننى ما وجدته الا بواسطة أدباء (الغ) وعلمائه . حـين كنت اجتمع معهم . ولكن قيل لى انهم بمجرد خروجهم من عندى يردون الى بينهم سهام النضال . فكان ذلك مما يزهدنى فيهم وفى مباحثتهم . مع أننى استفيد منهم . لان لهم – والحق يقال – يدا طولى فى اللغة والنحو والادب وبعض التاريخ . وقد كنت أحرص وأنا أباحثهم أن لا أخرج عن الميدان الذى ألفوه . وان أجرى معهم المجرى الذى يجرون . والحاصل اننى دائما احدد البصر لئلا أزلق فى نظرهم . فأخرج عما يعتادونه . وأنا لهم فى كل ذلك من العاذرين .

ان هؤلاء العلماء الادباء اليوم فى (سوس) عادوا فى عالم اليوم من الاذناب فى التفكير . وابعد عن المحافل ان كانت محافل . وقد يحتقر بينهم من كان له شأن قبل اليوم . فصار مثل الرجل الفاضل الاستاذ التاجرمونتى يذكر بما لم يكن يذكر به أمثاله فى عهودنا الاولى . مع أنه من الافاضل . وما عيبه اليوم الا أنه من أبناء الماضى . وهى سيئة وجريمة لاتغتفر فى نظر جهال اليوم . وان كانوا يسمون أنفسهم علمـاء . والا كون عمره تخطى ذلك العصر الذى كان فيـه أقرانه من العلمـاء بين هالات الاجلال والاحترام . فاصبح اليوم فى قوم اخرين . والعلم اليوم فى زمان الاستعمار فى(سوس) مسترذل مشنوء . لاتعرف لصاحبه ميزة به . ويكاد كل (المغرب) يكون كذلك .

ان يكن الشيخ اليوسى طابت له البداوة التى وصفها بما وصف من جرى ساقيتين فى وسط الدار . ومن تيسر المئونة . وحضور البقول حيث تتناولها الأيدى . وكانت الحاضرة له بمثل المثابة التى ذكرها . فاننى كما

يرى القارئ على عكسه في كل ذلك . فان كل شيء عندي في الحاضرة محتضر وكل شيء عندي في البادية بعيد المتناول . وقد صرت كلا على اخواني ما شاء الله . فيتولون عني بعض مشاق . ولكن السيدة الحضرية التي ألفت في (الرميلة) بـ (مراكش) ما ألفت ثم عادت الى حياة البادية . لابد أن تقوم بحظها في أشغال الدار . فتحلب البقرة بيدها . وتخضخض لها ما تأكله من نفاية أنواع الخضر والتبن . وتطحن وتسقى من البير . وتطبخ . وقد صابرت ما صابرت حتى أجهضت يوما من كثرة الاعمال . فقمت ازاءها بالواجب . فعزلت محلي عن اخواني على حدة . فاستراحت السيدة من كل عناء . فكفتنا خادم معنا كل المؤن . ثم اننا بالاقلال أولا بقينا كذلك نحو الشهر لانرى لحما . وهذا بعض ما أصابنا في هذه البادية . ولولا المصابرة لكنت أرسل صيحة أخرى غير هذه . فقد نفيت بقرار وزيري . وأرغمت أن لاأغادر قرية (دوكاديr) وانا خاوي الجيب . ولم يدر في خلد هذا القرار المجنون كيف أعيش ؟ أو كأنه يظنني غنيا موسرا . ثم ان الحطب في (الغ) هو علة العلل يوتى به على مسافة بعيدة . وكل المئونات فيها بمنزلة العيوق من الارض . والعلم الذي يانس به مثل لاوجود لرواجه . الآن ما كان من كتب قليلة استدارت بي . فلولا أني اشتغل بجمع تاريخ (سوس) فاستمد من ذلك روحا وريحانا . لاختنقت مما أجد . افبعد هذا يريد ابن العم أن اكون كاليوسي فاحمد البادية ؟

ان (الغ) بلد عصيب شديد من كل ناحية . وأهله أصعب وأشد . فان اثن فيه على أحد فلا أثني الآن على من اتصل بهم علما وفكرا . وهم الأخ سيدي محمد المفكر الوحيد . الذي لا أنسى مواساته واحترامه ومشاركته لي في الوطنية ؟ فقد تشربها الى الثمالة . والاساتذة سيدي عبد الله بن محمد شيخنا . والاديب سيدي محمد والاديب سيدي الطاهر والاديب سيدي المدني والاديب سيدي الحسن والاستاذ ابن العم والاستاذ سيدي بلقاسم والاستاذ سيدي موسى . فهؤلاء من اتصلت بهم واتصلوا بي . فشكرت أحوالهم . وقاموا لي ببعض ما أردت . فكثيرا ما أعانني سيدي الطاهر بذات يده . وكذلك كل اهله الصالحين . فانه كرم جم لأخيهم المنفي . وكذلك اشكر العامة ال (دوكادير) البيض والسود . فانهم كادوا يكفونني مئونة الحطب واما غير هؤلاء فكلهم أمامي نكرات . فليوصد الباب دونهم . فانهم همل لايذكرون . ولا يبكى على عدم معرفتهم . والناس كالحجر ما أخطاك . منهم خير مما أصابك . ان الراحة التي يمدح بها اليوسى مستقره هناك في باديته وهو في علم وفراغ بال وتدريس وكفاة مئونة . وهو شيخ صوفي معتقد .

لايتعلق قلبه الا بالله . وتلاميذه من الفقراء يزورونه ويسترشدونه . ويجد معهم كل طمانينة . هي التي تنقصني أنا في (الغ) واذكر انني وجدتها في (الحمراء) فهناك علم وفراغ بال وتدريس . واخوان صدق . وتلاميذ نجباء . وكتب موفورة . وخزائن مفتوحة . والبعد عن القيل والقال. والابتعاد عن الاقارب الذين قيل فيهم انهم أشد من العقارب . وقد كتب عمر ابن الخطاب الى ابي موسى الاشعري : قل لذوي القربى يتزاورون ولا يتجاورون . ومو كان مثلي ذا عمل فيه مبادلة لاتليق به الا الحاضرة . فهذا يوسف عليه السلام نزل (مصر) فنفع الله به المصريين . وهو الذي قابل خروجه من السجن بمجيء اخوته من البدو . وهو نبي مرسل عرف ما هناك . ولاينطق عن الهوى . وما قوله ذلك الا لانه رأى اخوته يبعدون عن جفاء البادية الذي منه فعلتهم به . اذ القوه في الجب . وفي الحديث : (من بدا جفا) ولا يرسل الله نبيا الا من أشرف المواطن وأحبها الى القلوب وأزينها في العيون .

نعم ! هناك من افرغوا علي كل النعم بأيديهم فاسبح فيها . هم اصحاب والدي الذين بهم وبما يرد علي من (الحمراء) سرا عدت غنيا آكل أفضل ما ياكله الالغيون . فان كنت لا آكل غالبا في (الحمراء) الا الشعير والزيت مع من أوويهم الي من الطلبة الآفاقيين . فانني في (الغ) لا أعرف الا لباب القمح وما اليه من الاطايب . فان كانت مرت بي في أول نزولي في (الغ) فاقة فانما هي سحابة صيف ثم تقشعت .

كنت بـ (الحمراء) على الحالة التي ذكرتها في داري . فقد انزوت ربة الدار عن كل أحد . حتى لاترى ما يستثير شهواتها . فلم تكد تلقى جراتها في (الغ) وشاهدت النساء . حتى صارت تتطلب وتقول : ان عند النسا كذا وكذا من الحلي . ومختلف الألبسة . فيفصح لسان حالها أحيانا بطلبه . وكنا هناك وحدنا في الدار . وهنا خالطنا غيرنا . فربما أطلعنا على ما لاينبغي أن نطلع عليه . كما يطلع منا على ما لانحب أن يطلع عليه . وبهذا أيضا يعرف أن قضية اليوسي معاكسة لقضيتي . فهل يفهم ابن العم ذلك . فتلتوي عني تلك النظرات ؟ فقد تحملت كل ما في مستطاعي لكي تتحلى السيدة . ولكي تلبس افضل مما عند جاراتها . فلم يمض الا قليل حتى صرن يغرن منها . فيتطلبن هن أيضا بدورهن مثل ما عندها . حتى قال الاخ سيدي محمد لهن : لاتطمعن ان تكن مثل الشريفة . فان الفقيه انما يهدى له ولا يشتري . وأنا ان لم اشتر لا أجد .

ومجمل القول ان ما قاله اليوسي جاء كله على عكس قضيتي أنا . فما

كان يحمده في مستقره في البادية التي سكنها . أو القرية التي نزلها . ان لم نرد أن نطلق عليها بادية ـ كما قال اليوسي ـ هذا الذي احمده انا في مستقرى بالحاضرة . وما يذمه في حاضرته هو الذي اذمه أنا في بادية (الغ) ومن أمعن النظر فيما سقته من كلامه . وما حكيته عني يدرك ذلك . ويلمسه بالبنان . والانسان خلق محتاجا . ولا يألف الا حيث يتيسر له ما يحتاج اليه .

ثم انني أقول زيادة على ما تقدم : ان اليوسي صوفي صرف . وشيخ ممن تجاوزوا اذ ذاك الستين . فلا غرو ان يزهد فيما كان يتطلع اليه في عهد شبابه . ومقتبل عمره . كما قال . وأما أنا فاني أديب أريحي . ليس لي في التصوف الا المحبة والاعتقاد الحسن . الذي ليس معه غلو . ولا أزال في شبابي ومقتبل عمري . وأنا الآن كما أدب الى قمة الاربعين . فلو كان قلب الاديب يشيب . لربما قلت انني لابد أن انتظر عشرين سنة أخرى لأكون في برودة اليوسي . لكن قلب الاديب الاريحي الفكه مثل لايزداد على طول الايام الا شبابا وطراوة . فانني يا عباد الله المنصفين الذين يقدرون قدر الادباء . والاريحيين الفكهين . استطيب مثل حياة اليوسي . فهل أنا صخرة الواد التي قيل فيها :

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

انني اعشق المعاشرة الطيبة . والمفاكهة العفيفة . وان أحيا حياة تجمع من متع الحياة . ومتع القلب . ما أحلق به في الجواء . حتى لتتراءاني أعين الجامدين . كما تتراءى أعين عجائز (الغ) طيارة تحلق فوق جبل (أمقنسو) العالي .

انني أهوى أن أسمر بعد مع شيخي الاستاذ الكبير سيدي المدني بن الحسني الرباطي . فأرد من معارفه اللطيفة . ومفاكهاته الطريفة . وطيبات نوادره . ومستعذبات انتقاداته . ما أحسبني به ابن العشرين لا ابن الاربعين واهوى ان أحاضر مرة أخرى أستاذي سيدي السائح الرباطي القاضي . فأحاوره في مسألة أصولية . فيواثبني وأواثبه . ويجاذبني وأجاذبه . حتى تنجلي المحاضرة عن فريدة أزيدها على تلك الفرائد الكثيرة التي كنت استفدتها منه سنة ١٣٤٧ هـ . وأهوى أن اسمع مرة أخرى شيخنا العلامة المفكر المصلح المقدام سيدي محمد بن العربي العلوي يقبل ويدبر بفصاحته في غربلة الاعتقادات . فيميز الحق من الباطل . وهو يورد من الحجج ما لايقدر ابن الباقلاني أن ينقضه لو تصدى لمناظرته .

وأهوى أن أحادث ثانيا العلامة التطواني السلوي . فاكهة المجالس . وعيبة الاخوة الصافيـة . فيطفح علـيَّ بسجل مملوء علما خالصا سائغا للشاربين . أو أجلس عنده أيضا في متجره بشارع القناصل بـ (الرباط) مع ثلة من الادباء . كالاساتذة عبد الله بن العباس الجراري . ومصطفى بن مبارك . ومصطفى الغربي . وابن عثمان المراكشي وأمثالهم . ثم يمر مار بشفع من دجاج . فنلزمه ان يشتريه بماله . فنقطع معه الى ما وراء الوادي على الزوارق . فيغرم أجرة الزوارق من جيبه أيضا . ثم ننزل عليه فـي (سلا) يوما وليلة حتى ناكل دجاجنا . وربما انهلت الامطار فتكون لنا خير عـذر نعتذر بـه عن الارتحال . ثم لانخرج حتى يخرجنا مرغمين بدعوات يرفعها الى الله ان يكشفنا عنه .

وأهوى أن أحاور مرة أخرى الاديب محمـد بن العباس القباج حول فكرة أدبية جديدة فاطاوله البحث الساذج . ويقذفني هو بحجج مقنعة . حتى لا أجد ملتحدا الاّ أن استسلم له استسلاما . ثم يمد يده الرقيقة . فتعلو فـي الآذان تصفيقة صغيرة كنغبة طائر . أو خريرة ماء سائل فـي منحدر حصب .

وأهوى أن أجول مرة أخرى في (باب الأحد) الى شارع (دار المخزن) وفي ضفاف (أبي رقراق) وحول حفريات (شالـة) وفـي ضفاف البحر المستوية وراء باب (العلو) وان أشرب كأسا من مدرسة (الاوداية) وأنا أطل على (سلا) المتبرجة أمامي في غلالتها البيضاء كحمامة ورقـاء . تحت سماء زرقاء . في عشية مذهبة الاصيل . تتراقص فيها أنوار الشمس المتضائلة في غروبهـا .

وأهوى أن أجالس مرة أخرى أستاذنا الكبير العلامة ابن زيدان فـي خزانته . وأنا وهو منفردان . فيفتح لي خزانتين : خزانة كتبه التي أغرق فيها وازداد امعانا في الغرق كالنحلة في خابية العسل . وخزانة قلبه التي لايفتحها الاّ لبعض تلاميذه الاخصاء . فأرى منه ما قل أن يراه غيري مـن أفكار وانتقادات . وابحاث حول شخصيات مغربية . لاتصدر الاّ من مثله الذي لايتكلم الاّ عن انصاف . ثم لايتهيب أحدا .

وأهوى أن ألاقي أيضا الأخ التهامي المعروفي . ذلك الأخ الـوفي . فافتح منه صفحة بيضاء نقيـة . فيلقي عليَّ أيضا درسا خاصا عن سكان بعض المدن . ويتبع لي ذلك باسهاب وتعليقات . حتى كأنه الشيخ شعيب الدكالي حينما يسهب في فوائد حديث الجمل لجابر فـي درسه للبخاري أو حديث الافك فيما يرويه الزهري .

واهوى أن ألج (فاسا) فأرى تلك المعاهد التي لها عليّ أعظم منة . بما هيأت لى بيد بنيها من حياة علمية عالية . ومن تفكير وشعور . بهما أحيا وعليهما أموت . وما قدر التفكير ان لم يمازج شعور الانسان فى حياته وموته ؟ فعلّ ان ولجت (فاسا) ان شاء الله أن لايكون أول ما أصنع ان أقف أمام دار الأخ المخلص مولاى الصديق العلوى الراحل الى عالم البقاء . فاقبل ذلك الجدار وذلك الجدار :

وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

فقد كان أول من عرفته . وعقدت معه من الفاسيين معاهدة التعاون على المدارسة . فكان دائما وفيا الى أن صار من المرموسين . فيالها من ذكرى !

ايه ان هناك أيضا الأخ العابد الفاسي المفكر الكبير الذى اتشخصه الآن يطل من ذلك المنزه الذى يسكنه على ذلك الروض الاريض الذى تنفرج حوله وتحته مكتبته النفيسة . وهو يجعل لها بأحاديثه عن ءابائه العلماء الافذاذ أغلى قيمة . ثم أفاتحه فنتجاذب كما كنا أحاديث طلية معسولة مفتنة ثم اغادره غير مقل ولا مكتفي منه . فاخرج فأزور العلامة عمه عبد الواحد وولده الاديب الكبير النابغة علالا . فاستمتع بأفكار قيمة وأحاديث مفيدة عما هنا وهناك . وان وجدت فى الدار فراغا . والا سلمت تسليم العجلان. ومررت مر الكرام : – والمنهل العذب كثير الزحام –

ثم أعرج على الاستاذ البحاثة أبى المزايا ابرهيم الكتانى . لأستمتع بحديث طلى . ونزاهة وسلامة صدر . وبمجموعة من الصور النادرة . ثم ارى من هناك من الكتاب الجدد . ونبغاء الشباب ما أتذكر به أيام الشباب عصر الجراة . وابان الاقدام على كل شيء . ثم أسلم على الاستاذ المتضلع عبد العزيز بن ادريس . ثم لايفوتنى أن أزور بقية من هناك من أصحابنا أجمعين ثم أصلى فى (القرويين) وأزور ضريح ابن الفاتح الأكبر . واستمع الى دروس العلماء . وأزور الخزانة القروية الفذة . لأتذكر السلف فى آثارهم القائمة فاترحم على أبى سالم المرينى . وعلى أبى العباس الذهبى . ثم من هناك أطير الى (البيضاء) فاذهب توا الى الأخ عبد الهادى مكوار (١) فأقول له : ها نحن أولاء قد التقينا ثانيا . ثم نركب سيارته مع التاجر محمد بن العباس بنانى . فنجول حفافى المدينة . ثم أمر الى (الحمراء) حيث الفؤاد لايزال ثاويا . حيث مناهل الصفاء عذبة الموارد . يردها هناك كل وارد .

---

١) فقدنا هذا السيد بعد مرض خطير . وقد كنت أمام الصلاة عليه يوم دفن فى المقبرة الكبرى فى (البيضاء) سنة ١٣٨١ هـ .

حيث الاخوان الاساتذة عبد القادر المسفيوى . وعبد الجليل ابن القزيز . وأحمد بن الفضيل . ومحمد بن عبد الرازق . وسيدى بريك . وسيدى محمد بن عثمان . فازور هذا وذاك . وأتملى من هنا ومن هناك . والتزم كل واحد بطول الاشتياق . وامر بـ (السمارين) فاحيى الأخ أحمد المنجرة تحية عطرة . وأقول له هيء لنا عشاء حضريا . فقد والله كاد ياتى علينا كسكس (الـغ) وعصيدته . وليحضر معك ولدك سيدى الغالى . فان معى انا أيضا ولدى عبد الله الذى كان يناغيه من (الغ) ثم تتلفن الى الاخ العربى بنيس . فيجرى الينا توا . ثم بعد ذلك القى المفكرين عبد الله بن ابرهيم وعبد القادر بن حسن ومحمدا الملاخ . ثم اظهر أخيرا فى (الرميلة) فاقول : أهذه هى (الرميلة) التى كنت أتشوق اليها أحقابا ؟ نعم هى هذه . ولكن أين أولئك الطلبة الذين زينوها . فانهم لم يبق منهم الا قليل . فاذا انا ارى الاستاذ عبد الرحمن بن فارس (١) والمفكر على ابن المعلم . ومحمد بن القائد ومحمدا الدليمى . ومحمدا الدكالى . ومحمدا الدفالى . وأحمد الزيتونى . فاقول لهم «انتم وحدكم من بقى من ذلك السيل الجرار . آه ؛ آه ؛ فمن بعد يامن عثرات الدهر . والدهر حوّل قلّب لايبقى على حال . ثم استحضر الأخ المؤرخ محمدا الكانونى الذى فرق الدهر بينى وبينه أولا بالغربة . ثم بالموت بعدها . فانشد :

اخيين كنا فرق الدهر بيننا ... الى الأمد الأقصى؛ ومن يامن الدهرا ؟

فاذن تتجلى لى (مراكش) على غير ما كنت أعرف . فاقول اذن صدق من قال:

وما زين الارجاء الا رجالها ... والا فما فضل لترب على ترب

كذلك أهوى أن استمتع قبل أن أغادر هذه الحياة برؤية اخوتى فى الحواضر . فانا ما كنت الا بهم . فلولاهم لم أكن عند نفسى ولا عند غيرى شيئا مذكورا . ثم ان فسح الله فى عمرى . وارادت الاقدار أن تهيىء لى كل منأى . وأن تملأ الكاس حتى تطفح . أجول فى العالم جولة سائح معتبر . قلمه فى يده . فازن كل شيء . وأقيد كل ما رأيت . فارى من رجالات العالم العربى من ملئوا أعينى . واستحوذوا على فؤادى . وكانوا عندى زينة هذه الحياة .

ليت شعرى هل كل هذا الهوى الذى جاش به القلب الآن يتم ؟ ان الله لايتعاظمه شيء (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) . (وما ذلك على الله بعزيز) وهو المرجو أن يتم كل مرام كما نريده . وان

---

١) توفى هذا الاستاذ الجليل نحو ١٣٦٣ هـ .

يعجل لنا كل خير (١) فليس لنا من نطلب سواه . وقد تقطعت بنا الاسباب وأجيفت دوننا الابواب . وغادر الدهر المختار المسكين نسيا منسيا فى هذا القفر . كأن لم يكن قط شيئا مذكورا . كأن لم يجل ذكره فى المسامع، كأنه ليس من الاحياء . كأنه لايعرف الحضارة . ولا يتذوق حلاوة المدن .

كان المختار أمس معرفة من أعظم المعارف . يلج ذكره كل مسمع . ويرن اسمه فى كل مجلس . ثم لم يكن الا عشية أو ضحاها . حتى صار كأنه صوفى يهرب من الشهرة . وينزوى فى مغارة . حيث لايزور ولا يزار . فى بادية (الغ) المقفرة . المكفهرة الجوانب . المغبرة الكالحة .

ما هذا ؟ اننى غير ميت . وشعورى لايزال شعورا حيا طافحا كما كان ولم اكن بذلك المنزوى الذى يريد أن يمضى حياته تحت سدرة واطئة لايشعر به أحد ولا يشعر بأحد . ويقول مع أبى العلاء :

والفتى ظاعن ويكفيه ظل الـ   سدر ضرب الخيام والاوتاد

بل انا رجل حى مدنى . تواق الى كل علياء . متطاول الى كل ميدان علمى . مشرئب الى الطيران فى كل جو تتطاير فيه أبحاث المعارف والافكار الحية . أفيريد ابن العم سيدى عبد الله بن ابرهيم . أن أدفن نفسى هنا فى بادية عبوس متجهمة . وأنا لا أزال حيا أتنفس ؟ لاها الله . فان لم يكن حولى عالم يتحرك بحركتى . ويصفق لى ان أحسنت ويشيد بذكرى ان أنا أديت للانسانية حقا . فانى سأكون ممثلا لذلك العالم من هذه الغرفة الموحشة . بين هذا القلم الضئيل . وهذه الدواة السوداء الجاثمة عن يمينى . فقد رفعت بهما صوتى منذ الآن . وسيسمعه من يسمعه بعد الآن . طال الزمان أو قصر

ان شاء ابن العم أن يموت هو وان يقنع بمثل تلك الحياة فى باديته هذه . وهو غير فاعل بلاشك . وان يهوَ من غيره أن يفعل . فليفعلن بنفسه ما طاب له . واما أنا فانا ذلك الاديب الحى الطامح الشاعر الذى يحس بأن له أجنحة قوية الخوافى والقوادم . فان عدمت عالما أطير فيه . فان عندى فى هذه الغرفة . وان لم أكن فيها الا وحدى . عالما واسع الارجاء . أفسح من فيافى بنى أسد .

كان الوالد رحمه الله أقام مرة للفقراء المتجردين . اثر فراغهم من

---

١) نعم أتم الله كل ذلك بفضلــه . فتملينا بعد بالحواضر . وحججنا ثم زرنـا (الجزائر) و (تونس) و (بغـداد) و « دمشق » و « شرق الأردن » و « بيروت » و « باريس » و « رومة » . وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا . ان شاء الله . كتبت هذا ١٣٨٢ هـ

حصاد الزاوية على عادته حفلة في قبة له كان زخرفها وهيأها للأضياف. وأيام الأفراح. فحين دخلوها - والوالد ليس معهم - اخذ سيدى الحسين ابن مبارك المجاطى مكانه في صدر المجلس. وهو مقدم الفقراء ويعسوب زهادهم تقشفا وانابة واخباتا. فافتتح الذكر للفقراء بهذا الشطر. ولعله من قصيدة لسيدى محمد الشرقي :

تجنّى الليلُ عليّا

فبادره سيدي الحاج يحيا التيمولاى الايفراني. وكان أريحيا حي الشعور حج وكان في (مصر) ما شاء الله. فقال له : أبمثل هذا الشطر وهذا المعنى يفتتح في مثل هذه القبة الانيقة. في مثل هذه الحفلة. وفي مثل هذا الفرح. والزرابي مبثوثة. والموائد مصفوفة. وطيب العود بالغ عنان السماء ؟ فان كان الليل تجنّى عليك أنت فلتذهب الى مسجد خرب من مساجد (أيت وافقا) واما نحن هنا فينبغى لنا فيه انشاد شعر السرور الذى يوصف به نعيم الجنة. ثم انشد :

طابت حياتى وطاب قلبي بذكر ربي جل ثناه

كذلك انا اقول لابن العم : انني لم أخلق لذلك التماوت الذى يريد مني أن أندمج فيه في هذه البادية. لأنني أدركت الحياة. وذقت حلاوة العلم ولذة الحضارة. وان كان هو يقدر ان يعيش ما بقى من عمره بلا أمل علمي في باديته. فاني لا أقدر حتى أن أسمع ذلك. وما أحسب هذا الامتحان الذى وقع لي بهذا النفي الا تجربة لهذه الفطرة مني. ليعلم هل أنا صادق أو كاذب.

ان مثلي لاتليق به الا الحضارة. ولا يصلح له الا أن يحتذي الحضريين. وأن يجالسهم دائما. فان منعه من ذلك مانع كما منعني. فليتصوره دائما بين عينيه. وليحرص على أن يخلد شيئا يأبهون به غدا يوم يراجعهم. فان مثلي ان لم يتجه تلك الوجهة. فانه سيئد نفسه وهو بعد لايزال يمشي على الأرض.

بالله عليكم ما الذى يستهويني في الفكم هذا وما الذى يلفت فيه نظري اليكم؟ فان كان (الغ) المذكور (الغا) علميا ارشاديا فقد كان يوم ازدهار زاويته ومدرسته. واذا انقضى منكم ذلك الاهتمام العلمي. والقيتموه، كم عن رضا أو عن غير رضا كل ما يمت الى العلم والى الارشاد في الدين فقد ذهب الفكم الذى يحمد. وبقي (الغ) مثل (تاكنزا) و (أيت الحسن أوعلي) و «تاحواوات» سواء بسواء.

نزلت بين ظهرانيكم. وقد اكتسبت من الحضارة اهتماما بحسن البزة

وبحسن المظهر فكنت أحرص عليهما . حتى رأيتكم تنظرون الى بذلك شزرا . فصرت أختار لثيابي الصناديق قبل أن اختار لها محافلكم . أمكان يضحك فيه العارون من الكاسين يستطيع قلب مثلي أن يرتاح فيه ؟ ولقد رأيت يوما أحد كباركم تحيّن لبس أدون ما لديه من الثياب يوم عيد . معاكسة للناس . أفيراد مني أيضا مثل ذلك . في الثياب الحسية والمعنوية ؟

نزلت بين ظهرانيكم وفي جذوة تتقد علما وهمة . فرددتها الى احياء مجدكم . وتاريخ بلادكم . فلم تكادوا تحسون بذلك حتى سمعت من بعضكم ما سمعت . من أقوال وتنكيتات . فصدق المثل العامي المشهور : (جاء ليعينه في قبر أمه . فسرق منه الفاس)

نعم نزلت بين ظهرانيكم مرغما . فكنت أجد أحيانا موضع مواساة فاسرب بعض الهدايا أقوم بها جهدي على نحو ما ألفته . ثم لم يزل بعضكم في تمضغ بلحمي وتلقيبي بالمتهور. حتى صرت عند هذا البعض لئيما. اري موضع الاحسان فأراود نفسي على أن لاتفعل . خوف أن أقع منه في مثل ما وقعت فيه . كما تراود البخيل نفسه على نفحة . فلا يزال بها حتى يردها . أفمن كانت بلادهم واخلاقهم على هذه الوتيرة ينبغي لمثلي أن يرتاح اليهم . خصوصا اذا أرغم قهرا على أن يساكنهم ؟

حكي لي حاك أن انسانا من وادي (الاكماريين) كان جاور حينا في بعض المدن . فاستصحب معه لباسا حسنا الى بلده . فصار كلما لبسه يضحكون منه . فتركهم يوما حتى اجتمعوا تحت شجرة . حيث مجتمعهم العادي . فقال لهم : وداعا يا أهل بلد يضحك عاريه من كاسيه . فذهب عنهم الى حال سبيله . وكذلك انا أقول : وداعا يا أهل بلد يضحك جهاله من علمائه . وكسالاه من ناشطيه . ويتمضغ لئيمه بلحم كريمه . فلا حياة في بلد لايغلب فيه الا الجهل والبخل . انني أعرف ما ءاتي وما أذر . وقد قلبت الدهر ظهرا لبطن . وعجمت العيش عجم النابل لسهامه . فلايتوهمن متوهم أنني مغرور . أو ان الدهر قد سلبني عقلي وتمييزي . مع ما سلبني مما يعلمه كل أحد . فوالله لأنا اليوم أحصف مني بالامس .

ثم بعد هذا لايتوهمن متوهم أنني نبزت أهلي . وكشفت عن عيوبهم فان أهلي هنا في (الغ) هم أولئك العلماء المذكورون وحدهم . وأما غيرهم الذين ألوح اليهم . ممن أقصدهم هنا من بني النسناس . فليسوا مني ولست منهم . ولا أبالي ان استثنيت هؤلاء العلماء ان يهلك من يهلك . لأن من باد أني أولى بأن يدفّف عليه ان كان جريحا : (وأول راض سيرة من يسيرها) ولا يدفّف الا على جاهل الذي ارتضى سيرة الجهال .

(وبعد) فهل أدركت الآن يا ابن العم ما وراء الأكمة . وعلمت انى لست لكم بصاحب . واننى حضرى بطبعى لا أمتُ اليكم ولا تمتئون الىّ ؟ وأطلب الله أن يردنى الى بلدى الحقيقى الذى أمضيت فيه شبابى . وتفتحت قريحتى . وامتخضت فهومى . وأبصرت عيونى . فهناك قلوب تنبض ان ذكرت ؛ كما ان قلبى ينبض ان ذكروا . ووراء ذلك كله اننى هناك عامل وأنا هنا عاطل . فلذلك لايصلح لى الا ميدان العمل . فالسلام عليك يا ابن عمى وعلى كل العلماء الالفيين الابرار ؛ لا على الجهال الاغمار :

سلام الله يـا مطر عليها   وليس عليك يا مطر السلام

وهذا ءاخر ما كتبته فى هذه الرسالة تنبيها لابن العم . وان كان لايقرؤها الآن . لأنه لو كان ذا فكرة يصلح بها لأن يقرأها لما كان يحدجنى بتلك النظرات . واستغفر الله ان زلق قلم . أو ظهر منى تعاظم . أو لاحت منى عورة ؛ فما أنا الا انسان . والانسان موضع الزلق . (ربنا ءاتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا) . وآخر ما نطلبـه أن لايرد الله دعوتنا . بأن يفرج كربتنا . ويزيل غربتنا . وان يزحزح عنا ما نحن فيه بما شاء . وان يختار لنا ما فيه سعادة الدارين . والحمد لله رب العلمين .

ءاخر ١٣٥٦ هـ

مع الاخ الاستاذ سيدي ابرهيم بن علي الالغي

كنت كتبت اليه بعدما فرق الدهر بيننا طويلا . منذ نزلت (الـغ) ونزل هو (تطوان) :

انهى اليك يا ابا سالم أن الاحوال كلهـا بخير كثير كمـا تشتهى . الا أن الشوق اليكم فياض . والتطلع الى يوم اللقاء يأخذ بالاعناق تطاولا فى كل حين .

أكتب اليك ونفسى منشرحة . وصدرى فى غاية الابتهاج . وأنا فى وسط نعم شتى . فلولا البين لما قلت الا انني في الفردوس . وما هـذه بكلمة شعرية . ولا بقولة خطابية . بل هى حقيقة ناصعة وضاءة .

ايه كيف أنت فى تلك المنطقة ؟ وكيف حالك ؟ فقد انقطعت الانباء بما كان . ولعل اليوم هو اول يوم تأتي لى أن أكتب اليك توا . وعسى أن اتصل منك بجواب مسهب . والاهل كلهم فى تطلع اليك . والى ما تشتغل به . وقد قيل لنا كنت في (مصر) حينا ثم أبت . فاعطنا خبرك عجره وبجره واسرع على هذا السبيل نفسه . لعلنا نتصل بالاقلام قبل الاتصال الحقيقى. ولتعلم أن صنوك أغنى مما كنت تظن . فلا تهتم بالمادة لترسلها كيفما كنت. فانني فى الأوج والحمد لله . والنجل ـ عبد الله ـ يقبل يد عمه . وأمـه فى سؤال عنك غاية . وقد تصرمت ثلاث سنوات ونصف ولم تقدر أن تغير من عزيمة أخيك شيئا . بكل حوادثها الممضة . فلا يزال على مبدئه . وينتظر الغد ليفوز والدهر مرغم .

دعنى من كل شيء . فلا أريد أن أطيل . وان كنت الآن أشوق الناس الى التطويل . لتلم بكل ما هنا حولى . ومجمل الأمر انني كنت أرفض دائما كل منصب يعرض عليّ من أول يوم بأنفة . ابيا غـير الاتصاف بوصف الطائر الذى يلتقط الحب انّى طاب له . ولعلنا ان شاء الله نحتفظ بهذا حتى نلقاك مع رفقتك التى أتطلب منك تبليغ سلامي اليهم خصوصا الشيخ الناصرى الغيور . وقد أدركنا مقياس العالم . فالى اللقاء . ونحن فى انتظار والسلام .

الجواب مـع الحامل . ولا تقتد بى فى الايجاز . لأن الواجب الايماء وان تعطى كل خبرك تفصيلا .

ثم انه أجاب برسالة طويلة . الم فيها بكل أحواله النفسية والشخصية تلفت بين الاضابير في المكتبة (١). ثـم أجبته بهذه الرسالة التي سميتها : (نوازع الغربـة) وهي :

نوازع الغربـــة

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور . واليه وحده المرجع فـي السراء والضراء . حمد من أصبح في هذا اليوم يوم عرفة ساهرا متذكـرا نفسه واخوانه . حامدا الله على أن وفقه حتى استطاع أن يعيش . وان كان البين دائما يلعب به كالكرة . وظل الشوق يقلقله اليوم على الخصوص من فوق فراشه من الساعة الثانية عشرة الى الضحاء العالي . والصلاة والسلام على من شرع صوم هذا اليوم . ثم شكرا لله على أن وفقني للامساك فيه . ورضي الله عن الصحابة والتابعين . وكل من يفرحون مثل فرحي حين توصلت في هذا الضحاء بما توصلت به من عند شقيق روحي وشبحي حقيقة ومجازا فطالما انتظرت هذه الساعة منذ شهور لأرى هذه الحاجة القارة للعين التي تمثل الآن أمامي . وأتصفحها بعيوني . وأعلي صوتي تلذذا بسماع الفاظها العذبة . فأشكرك يا رب شكرا كثيرا على ما أنعمت به علي في هذا اليوم المبارك السعيد .

ايـه أيها اليوم . هـل تدري ما سقته الي من قرة الأعين . ومنبع المسرات ؟ فقد أذقتني رشفة كنت صديان اليها غاية الصدى منذ سنوات عديدة . وأعدت الي راحة كدت أفقد نفحاتها منذ ضربني الدهر ضرباته العنيفة الممضة . فكأنك يا حجة هذه السنة تحاولـين أن تضمدي جرحات حجة تلك السنة المشئومة . حجة ١٣٥٥ هـ

تلوت ما في يدي مرة ثم أخرى . ثم تضاعفت المرات حتى ضـاع الحساب . وكنت أود لو كانت لي الســن متعددة . لأستلذ كثيرا بالتلاوة بها كلها جمعاء . كما أتمنى لو كانت لي مقل شتى لاستمتع بالنظر كثيرا في هذا الذي أراه بيدي . جامعا لكل منية . سائقا لكل رجاء . واضعا عندي ما كانت روحي تتململ منذ زمن بعيد من لهفتها الى ما يبرد غلتها . ويلقى على نارها المتأججة أشواقا بردا وسلاما . في هيجان مستطير . قلقـة قلما تـذوق معها للحياة في هذا الوجود مذاقا .

عرفت مقدار ما هناك من الاشواق الي . وما كانت عليه قلوب لا أجهل اخلاصا دائما ترفرف بـه نحوي . فأحسـست ما بين جنبي بخفقان قلب

---

١) سنثبت الرسالة ان شاء الله في محل آخر . متى وجدناها

مكلوم . يعلن أن ما يكنه دائما ربما كان أفيض من تلك الاشواق . وأصفى اخلاصا مما في تلك القلوب المرفرفة . فقلت أهكذا قضى على هذا الجسد المسكين أن يطحن ما بين أشواق من الخارج اليه . وبين أشواق من داخله ؟ وهل يبقى كثيرا ما يلح عليه مثل هذا من الجانبين ؟

حقا تساقطت دموعي أيضا تأثرا حين أجلت عيوني فيما في يدى . كما تساقطت دموعك أيضا أيها الأخ تأثرا . فهل يستطيع الأثير أن يحمل بلل ما يجرى من شئونى الى احدى غرفتيك . فيبلل به خديك . ويمزج ما بين جارى جفنيّ وجارى جفنيك فلا تكاد تفتح مذياعك الذى ذكرت انه في احدى غرفتيك حتى تحس بما نحس به . فتبادر الى فوطك اقبالا بالمسح على عارضيك الكريمين ...

تذكر أن خيالك يجول دائما حولى . وانه مصور لبق يمثلنى كما أنا بين يديك يقظة ومناما . فيملك عليك لبك ويستحوذ منك على المشاعر . فقلت أهذا هو السبب الحقيقى حين يقع لى نظير ذلك طوال هذه السنوات فقد صدق اذن من يقول :

(ومن القلوب على القلوب دلائل)

وصفت مسكنك الارضى المؤثث على الهيأة الحديثة . مع سذاجة اضطر لها الوقت العصيب . فذكرت الهاتف والمذياع وءالة الانارة . ومجرى الماء وما الى ذلك من المنافع . فقلت : حياة طيبة ساذجة . تليق بعزب غريب محب للانزواء . لكنك حين ذكرت أن الغزالة – منبع هذا الوجود – فلما تزوره الآن لماما في بعض الفصول . اختلجت في جوانحى شفقة حارة عليك . حين تيسر لك على سذاجته كما تقول . ولم تتيسر لك مناغاة الغزالة في كل أطوار السنة . وذلك ما لابد منه . ولا يستغنى عنه حيّ . سواء كان يعيش وفق تقاليدنا . أو وفق النظام الحديث . ثم لما عرفت أن التقتير ضارب نطاقه حول حياتك . أدركت السبب الحقيقى من مهاجرتك لأمكنة تأتى لتلك الغزالة التى لا يهجرها مثلك الآن اضطرارا . وللضرورة أحكامها المسمطة التى لاتساوم برد كيفما بلغت قساوتها .

ذلك ؛ واننى لاتعجب كيف تساوينى فى هذه الحالة – مباعدة الغزالة الآن لماما – فانى من زمان انعزلت عن الشقيق في مسكن خاص يفوق عدد غرفه البدوية الساذجة غرف مسكنك عدا بكثير . وقد ضم كذلك كل المنافع البدوية . الا انا حرمنا من مشرقة الشمس فى الشتاء . ومن مضجع موافق في ليالى المصيف . التى لايواتى فيها ما تحت السقوف وقعيدة البيت كثيرا ما أشفق عليها من ذلك لو قدرت على شيء . حتى عزمت على بناء سور سطحى يتهيأ فيه ذلك فى الصيف الماضى . لكننى تاخرت خوف

أن انتشب فى البناء ثانيا . بعد ما كابدت منه ما كابدت فى منزلنا الذى فارقناه بـ (مراكش) حجة تلك السنة المشئومة . فهل أدركت أيها الشقيق أننا متماثلان حتى فى عدم الاستمتاع من الشمس بما يستمتع به كل أحد ؟ على اننى أغبطك فى شىء آخر . فاننى هنا منذ أن انطلقت القذيفة الاولى فى السنة الفارطة . وقد عولت على أن أهدأ الى أن تتبدل الاحوال . عمدت الى تهيئة أسباب المعيشة . فادخرت كل ما أعلم اننى سأتوقف عليه الى سنتين اداما وسكرا واتايا ومادة الدقيق والكسوة . ولم تأخذنى هذه الضغطة الحالية بغلائها عن غفلة . لاننى كنت درست أحوال ١٩١٤ / ١٩١٨ م . فنفعنى ذلك هذا اليوم . وهذا ما لا اخالك أيها الشقيق تتمكن منه . لما يحيط بك من المدنية التى تتطلب ما تتطلب كل مطلع شمس . مع قلة الدخل – كما قلت – وهذا ما لابد أن تغبط فيه شقيقك الذى كان منذ سنوات بعد الحرب العالمية الاولى قبل نفيه يجول فى ذهنه أنه ان قام نذير الحرب . أن يأوى الى مكان سحيق مثل هذا . حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . ثم تسابقت اليه الحوادث . فوقع له ما وقع فى حجة تلك السنة المشئومة . ثم لم يزل غير راض بما وقع . حتى فاض البركان فاستقر باطنه وهو يقول :

ولربما سقط الحمـــا   ر فكان من غرض المكارى

ذلك ما يحق لك أن تغبطنى عليه . فبحياتك الدراسية التى تجلو فى كل حين مرآتك . وبما تيسر لك من حياة مستقرة بين اخوان تفضى اليهم بذات نفسك . ويفضون اليك . مع اتصالك بالعالم بالمذياع . واستمتاعك بالصحف ثم ضمك الى ذلك كله ذلك الانزواء المحمود الذى أحمد الله كثيرا حين وفقت له فى هذه الحالة العصيبة . فبمجموع ذلك اغبطك . وحق أن يكون كل من كان نظيرى فى هذا القفر السحيق من الغابطين لأمثالك بذلك . فنحن فى الهوى سواء .

حكيت كيف تقضى نهارك . فتقضى مبكرا لوازم البيت . ثم تقضى واجبك فى المعهد . ثم تعود الى منزواك الذى قلما يزورك فيه الا قليلون . ثم تقاسى ما ذكرته من تحضير الدرس للغد . وقد تشكيت من عدم المكاتب هناك . ثم فى أيام الاستراحة تجول فى الحواضر القريبة حتى تستنبط ذكريات الاسلاف . وتشاهد الآثار الجديدة للمحدثين . ذلك سير حياتك . وانه لسير حسن . نشكر الله عليه كثيرا اذ وفقك اليه . وقد التذذت كثيرا حين أطلعت على ذلك السير ؛ فقلت لأتحفن الشقيق أيضا بسير حياتى الآن ليستلذ بدوره . وان كنا مفترقين فى سير الاحوال . كما اقتضته طبيعتا الحضر والبدو . فانا اليوم بدوى صرف . ولا استمتع من الصحف الا

بـ « السعادة » وحدها . أقيم فى مسكنى مع أم عبد الله . وابنهـا البالغ الآن ثلاث سنوات ونصفا . يقفز ويريد أن يعد له من الآن دواة وقلما وكتبا على حدة . وخادمنا بنت سيدى أبى بكر الفقير المتجرد ـ وقـد كبرت ـ فنحن أربعتنا الأسرة الساكنة على حدة . ولا يخفى عنك قول العرب . أو هو حديث : قلة العيال أحد اليسارين . فتكفينا خبزة . ولا يخطئنا القمح . وقطعتان او ثلاث من شبارق اللحم . وقد تمضى شهور . ولا يغب مائدتنا ـ على خلاف عادة أهل هذه البلاد الذين لاياكلون الا الشعير . ثم لايرون اللحم الا قليلا ـ أبكر فأؤدى دين ربى فى وقته . ثم نتناول فطورنا . ثم أكب على الكتابة الى أن ينتصف النهار . فاتريض فى خارج الدار ماشيا مع الولد ومع أولاد الاخوة . ثم اراجع شغلى الى المساء . ولا شغـل لى الا الكتابة منذ فارقتكم . الا أننى من أول هذه الهيجانات العالمية . قد اشتغل بالى ما شاء الله حتى نبذت الكتابة . وقد استولى على التفكير فى مصيرنا جميعا نحن المغاربة . ولكننى استرجعت نشاطى فى هذا الشتاء . فأكببت على شغلى . وما الذى أكتب ؟ سؤال يتردد فى صدرك قبل أن تصل هذا السطر . ويكون فى امكانك ان تذكرت العهد الذى قطعه صنوك لشعبه حين عاهده أمام الله . أن لايزال قائما بمستطاعه نحوه . ثم قام أمس بما تعلمه منه تعليما على قدر وسعه . وهل تدرك اليوم ما يشغل به حياتـه المنعزلة عن حياة العالم ـ وما تفكيره وما حرارة عزمه الا مما جبله الله عليه لا ما يمده به اليوم العالم الحى من شئ جديد ـ اننى رأيت منذ سنوات أن هذا الشعب محتاج الى جهود من كل جهة . جهود تأخذ بيد حاضره . وذلك ما لم يتيسر لى . وجهود تأخذ بيد ماضيه من احياء ما كان لـه من مجد . وما كان أثله من سؤدد . وما عرفه له التاريخ من حياة علمية . فاذ منعت من السير فى تلقيح الافكار فى الحاضر بلسانى . فلأنفذ وعدى بالاجتهاد فى احياء ماضيه بيراعى . وقد رأيت هذه الزاوية من (المغرب) مجهولـة كثيرا حتى عند المغاربة انفسهم فضلا عن العالم كله . فقلت فى نفسى : لأقم على حسب مستطاعـى بالقاء ضوء علـى تقلبات هـذه الزاوية . فكان ذلك شغلى الوحيد منذ وطئت قدمى هذه الارض . فقدرت رغم قصر يدى فيما يحتاج اليه الموضوع من آثار ومستمدات ؛ أن أكشف سجوفا سميكة عن نواح من حياتها وحياة رجالها . فصدر ذلك فى شكل مؤلفات عدة أدبية وتاريخية . فيها ما يلفت الانظار ويبهر الافكار . وقد كتبت فى ذلك ألوفا من الصفحات فى أجزاء كثيرة . فذلك هو شغل أخيك . ولا أريد أن ينكشف الستار عن ذلك الا يوم ينكشف عنا ما نحن فيه . وبهـذه المناسبـة يجب عليك أن

تكتب لى ما تنتقيه من أدبياتك نثرا وشعرا . تيملأ فراغه الذى تركناه له في مؤلف من تلك المؤلفات (١) ذلك ما فى امكانى أن أخدم به شعبى . ثم لا أزعم أننى أقوم فيه بالواجب المنوط بى . ولكن ذلك ما فى مستطاعى

أثنيت على الاخ المكى وحق لمثلك الثناء الخالد على مثله . وقد عرفت فيه من قديم أخاء ووفاء . واخلاصا في عمله الذى انتدب له . وقد كانت بينى وبينه صلة أكيدة قبل أن يسافر الى الشرق . ثم نزع نازع بوهم توهمه بيننا . فكدت احرم منه من يقل مثله فى النشء من جيله . لكنه سرعان ما تنبه الى غلطه . فاعترف فى رسالة خاصة بأنه وجد ما توجسه أوهاما . وقد كنت ربما أخطأت معه فى الكياسة التى تقتضيها آداب الكتابة . فتجاوزت حدود اللياقة فى المداعبة معه . لكنى مع ذلك حسن النية نحوه . قادر له قدره . عارف له مكانته . وقد ابتهجت اليوم باقترانه من بيت كنون بيت الشرف والطهارة والعلم . فانه ممن يجب أن لايضع مكنوناته الا فى الاصداف الطاهرة .

وقد ذكرت أنك كنت تخاطب بالسير فى طريقه تلك . فتتصف بمثل وصفه . لكنك ارتأيت أن تؤخر ذلك الى أن نتلاقى . فاعلم أن الله اختار لك حين لم تتشبث فى تلك الانشوطة قبل هذه العاصفة الهوجاء فى العالم . ولكن مع ذلك يجب عليك أن لاتنسى أن ذلك تجب عليك المبادرة اليه فى أقرب وقت ممكن . مختارا لك أسرة أصيلة تساندك فى حياتك كلها . ثم لاتكون ممن يتبع ما يسديه بالمن والاذى . فقد تخطيت أنا كثيرات خوطبت من عمدهن . وقد كان لهن شرف علمى ودنيوى . الا أنهن لم تستوفين الشروط التى ذكرتها لك . فلذلك بادرت ففعلت ما تعلم . والبدوية ان أمكن لى أن أعيش معها بطبيعتى . وبما كنت فيه قبل من كثرة الشغل الشاغل . فانك أنت لاتليق بك الا الحضرية . ثم لابد من أسرة نبيهة مكينة فى الشرف الدينى والدنيوى . فان الزواج انما يكتسب منه مثل ما اكتسبته من قعيدة بيتى . من صبر كثير . ودين وصمت وانقياد أعمى . وصون للسر والمحافظة على كل ما تحت يدها . فلا تكاد تخلق حتى ثياب فضلتها . فضلا عما تعده لأيام الزينة . فاستطاعت أن تجمع بكياستها ما يبجر به صندوقها ثم هى راضية حاذقة . فتسربت اليها اناقة الحضارة مع أنها لم تر منها الا من بعيد . وهذا كله وما اليه . مما يجعلنى راضيا شاكرا فى الحياة البيتية فلا ترى مما يتشكى منه الناس من اقتراحات قريناتهم . وعدم رضاهن بما

---

١) فى ترجمة هذا الاخ جملة مختارة من أدبياته فى ٢ من «المعسول»

تيسر . ومن غفلتهن عما يجب عليهن من التأنق فى الطهو وجلاء الآنيـة . وتنضيد الفرش . فهذا ما يقتبس من احد نوعى الزواج . واما النوع الثانى فانه تنكتسب منه نباهة يتصل بها الانسان بسببه . ثم يتمكن مـن ذلـك بالتوصل بما يستطيع به أن يؤدى كلف الزواج التى يقتضيها هذا النوع الآخر . فان وفق الانسان الى أسرة تقاسمه رغبة المواصلة الدائمة بالمروءة والاغضاء - وذلك ما ارجو لك - فانه سيقع على كنز ءاخر من طلاوة المدنية . ورونق الحضارة . وكياسة تتحدر فى التقاليد اجيالا كثيرة . فيحرز على شارة تستوقف الابصار . وعلى حياة منظمة تنظيما عصريا تتصل فيها القلوب بقدر ما تتصل الاجسام أو أشد . وعهدى بالفاسيات وما اليهن ينشأن من بعض الأسر فى دين وعفة وقناعة . وهذه الثلاث الخصال ما يقل من الحضريات . رغم كل ما فيهن من الاوصاف الجميلة . فهن أحدب وأشرف وأحذق وانبـه وأسير مع تقلبات الحياة . فان وفقت الى هذا النوع من الزواج . ثم وفقت الى مصادفة هذه الخصال . كنت أسعد الناس ؛ ثم لاتحتاج الآ الى مركز اجتماعى يدعمه عمل متصل . يسرب الى كاف كيسك ما لابد منه . واذذاك تحمد حياتك وتنسى ما أنت فيه الآن من عزوبة ممضة . ووحدة موحشة . وغربة تلحفك بأوارها كل حين . وسوى هذين النوعين ؛ بملاحظة ما وصفنا به كلا منهما . انما هو عذاب مقيم . يقع صاحبه فى غل قمل . كما تقول العرب . فلا يده انفكت لتحك ما تحس به . ولا غله انحل ليتملص مما هو فيه . ثم سرعان مـا ياتى الطلاق .

ان أهم ما أسديه اليك أيها الشقيق فى هذا الباب . وان كنت ربما تجول فى عقل حصيف لايحتاج الى تنبيهى . ان تعرف أن الخير كثيرا مـا يبتعد من الأسر التى لها سمعة . خصوصا حين دبت هذه المدنية الماحقـة بخمورها وتبرجها . واذ كنت لا تزال محافظا فـى أخلاقك . مصونا فـى شمائلك . تريـد أن لاتنتبذ عمـا ورثته عن ءابائك الشم . وعن عشيرتك المستقيمة . فلابد أن تعرف أن فى النساء المعروضات ما فيهن . امـا من ايثار كبير بما فيهن مما لايعبر عنه وصف جمالا وعفة ودينا وخلقا دمثا وحصافة رأى . فاراد العارض أن يختار لكريمته من يراه يقر كل عـين بشمائله . ويملأ المسامع بفضائله . واما من فساد اخلاق . أو عدم دين . أو حمق بين مستطير ؛ فيحاول راعيها أن ينظر لها معقلا حصينا . وسورا سميكا يودعها فيه . ليبهرج دمامة اخلاقها . وليستتر سفاسفها فى مجتمعها ظنا منه أن مثلك يقدر أن يصونها ويسرب اليها الخير من عنـده . ويصون ما حولها عن الآذان على الأقل . ان لم يتمكن من هديها الى الصراط المستقيم

ذلك ما قد يراه العارض الحسن النية . فيلقى مثلك فى جحيم مستعر . لاتكاد تضع فيه رجلك حتى تسود حياتك ويعمى بصرك . ثم لاتزال تتقلب على الاتون . فلا مروءتك تمل عليك بت الحبل . ولا طبيعتك تقدر أن تماشى الزمان . فتبقى معلقا معذبا . الى أن يذوب شبابك الغض الطرى فوق ذلك اللهيب . أو تبادر بفصم العقدة فتستحيى من نفسك . حين وقعت فيما وقعت فيه . فضلا عن أصحابك وخلصائك . ثم اعلم أن كثيرا من الادباء يجهلون اخلاق كرائمهم . خصوصا ان كانوا من أهل الجيل الماضى . فلا يدرون عن كرائمهم اللائى نشأن فى هذا العصر الحديث ما يعاقرنه . وما يقعن فيه من الهوى السحيقة فى الاسفاف الخلقى . على حين ان الآباء فى مساجدهم أو فى زواياهم أو فى متاجرهم . يظنون بهن لما يبدينه أمامهم من تكلف الاستحياء . انهن درر مصونة . واعلاق نفيسة . وعندى فى الموضوع عن أكبر عالم ربانى محقق صوفى كبير فى (المغرب) اخبار مخجلة فى هذا الموضوع . كما عندى مثلها عن قاض أيضا ممن يدعى أنه عصرى نبيه بل أعرف من بلدة واحدة ثلاثة من أصحاب هذه الاوصاف الكبيرة . يصلح أن يؤلف فى الذى أعرفه عن كل واحد منهم فقط روايات شنيعة . يقدر قلم أحد الروائيين أن يصدر منها مؤلفات . وأنا فى هذه الاسر أوثق بالامهات من الآباء . لأنهن لايكاد يخفى عنهن ما فيه بناتهن غالبا . ولأمر ما قالت العرب فى عكس موضوعنا : (كل فتاة بابيها معجبة) . وكذلك كل أب بكريمته معجب . وكثيرا ما يثنى أب عن كريمته وهو صادق . لأنه يعبر عما يعرفه . والحقيقة أنه جاهل كل الجهل ما فيه أهله وقد يقع بعض الافاضل تحت عرض أمثال هؤلاء الآباء السذج . فيقع على أم رأسه . ثم لايدرى ذلك الا بعد أن يكون الأمر قد قضى . ورحم الله شيخنا سيدى محمد بن أبى بكر السرغينى الذى كان كثيرا ما يملأ دروسه بالحديث حول هذا الموضوع فيسوق حكايات المغرورين الذين وقعوا تحت مثل هذا العرض . ثم انكشف الحال عن شناعات مزرية . وله حكايات فى ذلك لايفتأ يقررها : (ان كل معروضة لايمكن أن يحمد آخر أمرها) غير ان هذه الكلية المبنية على الخطابة لاتعتمد دائما . وان كنت أنا من الذين تمكنت فى أنفسهم منذ ذلك العهد . فرددت من هذا النوع كثيرات . ولا أريد أن أكتب الآن ما اكتشفته من بعض المعروضات على بالبحث والتنقيب . لان بعض من لهم اتصال بذلك ما يزالون احياء الى الآن . ويكفينا ان نستقى من كل ذلك عبرة لاتزال تمثل بين أعيننا .

أخالني أطلت فـي هـذا الموضوع . مع أنه موضوع ينبغي أن يفرد بالمؤلفات . لانه أساس الحياة الزوجية . ولانه يدل على أن كثيرين من المغاربة الحضريين شرعوا يلقون حبال ذوات بيوتهم على غواربهن . فيوقعنهم فـي مخجلات لاتزال تتكاثر . وهذا اليوم في المدن الراقية بالحضارة والرفاهية أكثر منه في غيرها . على أن البلاء اليوم تدفق حتى الى البوادي . غير أن هذه مكشوفة لايكاد ما يجرى فيها يغيب عن الاعين . بخلاف الحضر .

اختار الله لك ما تقر به عينك . وينشرح به صدرك . ويبتهج بـه فؤادك . وتستقر به حياتك في المستقبل (١)

وتذكر أنك كنت متهيئا الى ما تستتم فيه دراستك . غير ان هذه الحرب الداهية دهمت عليك بعدم امكان ذلك . حقا ابى الله الا أن يقع لك مثل ما وقع لصنوك . فانني دائما انتظر فرصة التحق فيها بتلك الجبهة . لذلك القصد نفسه . وقد كان ذلك قويا فى نفسى حتى فى الايام التى ترانى فيها مندمجا فى تلك الاعمال . غير أن الاقدار تابى المساعدة . وهذه احدى مساوى الفاقة . ورحم الله سحنوننا القائل : (قبح الله الفقر ؛ لولاه لأدركت مالكا) لو كنا مثل غيرنا لامكن لنا أن لايفوتنا ذلك . ولكن الأنفة تمنعنا دائما من اظهار احتياج الى غيرنا . فهذا الاخ المكى الناصرى قد كان زارنى قبل سفره الى (مصر) فاكد علىّ فى صحبته . فاعتذرت له بالوفضة الخاوية . فقال : اننى ساتخذ وسائل حتى أدرك اعانات من أناس . فقلت له هذا ما لم أقدر أنا عليه وان كنت أحرم استتمام دراستى . ثم أقدم هو فادرك كل ما اراد بتلك الطريقة . ولازمت أنا ما تعرف . الى أن كان الآن منى ما تعرف . وما أنس لاأنس عبرات سكبتها يوم رأيت زملائى ءاخرين يتوجهون لتلك الطية فيعوزنى ريش أطير به معهم . كسيدى محمد بن عثمان وسيدى عبد الرحمن الدكالى . وكانت ساعة شديدة عنيفة وقفت لى فى مفترق الطرق فى حياتى المستقبلة . فلم يزل بى بعض الاساتذة الاكابر الذى ءانس منى هذه الزفرة المحرقة . حتى برد بعض ما بى . ولكننى مع ذلك لا أزال أحس بضياع ما ضاع . والامر لله . ولا حول ولا قوة الا بالله . وما المجاهدة التى ثابرت عليها بعد تلك الساعة . الا بنت تلك الحرقة . لعلنى استدرك البعض . ولكن الزحف بالركب . لايساوى دائما الطيران بالاجنحة الخفاقـة . فلك اذن بى قدوة فى تحمل الصدمة التى صدمتك . وان الامر كما قيل : (المصيبة اذا عمت هانت) غير ان المطالعة المنظمة . والدراسة الدائمة فى

---

١) الحمد لله الذى اختار للاخ أفضل سيدة مثالية فى (المغرب) جميعا صيانة وثقافة وسراوة أسرة .

نوع من العلوم ـ لايعدو واحدا أو اثنين ـ قد تسد هذه الثلمة من مثلى ومثلك فلنتيمم ان لم نجد متوضئا .

وتقول انك تونس أحيانا موارد الثروة فى تلك الحاضرة مفتحة الابواب وميادين العمل الحيوى رحبة توتى أكلها لكل من جارى فيها . فكنت قد تعزم على تولية وجهتك لتلك القبلة . لولا أنك مفطور على ما فطر عليه كل رجال أهلك من العزوف والانفة . من ان تنزل الى مثل ذلك . وتذر الميادين العلمية شاغرة .

انى عجمت كلا العودين . وفحصت بتجاربى الشخصية كل ما هناك فأصحاب العزوف دائما بتضحياتهم يتمتعون بسمعة حسنة . وعقبى محمودة مغبوطة . ولكن لابد مع ذلك من طمور الحظ الدنيوى من أيديهم . لأن الحظ لاينزل الا على كاف الكيس وحده . ومن أختار هذا السبيل . فليهيىء دائما جلبابا سميكا للاحتياج ؛ وخصوصا حين تميل شمس شبيبته الى الافول . وحين يرى أولاده يحبون بين يديه . ولذلك يجب أن يعلم ـ بعد الاستيقان أنها سبيل الانبياء والصالحين والفلاسفة وأهل العزوف ـ ان سبيل الحظ الدنيوى لابد من المشى فيه وان بمقدار . وهذا هو سبيل الاسلام نفسه . وقد قال ابن عمر : (ما من حالة أحب أن تجدنى فيها منيتى بعد حالة الجهاد فى سبيل الله . كحالة الضرب فى الارض ابتغاء فضل الله . أقطع الفجاج . وأجوب الطرقات) وفى الحديث : (نعم المال الصالح للرجل الصالح) . وقد كنت أنا أسلك طريقة العزوف دائما من نشأتى . فلا أرضى أن أتنازل عن هذه المرتبة فى أى وقت . فكنت أسير فيها بما كنت أنت به جد عارف ولولا أن أسرتنا لها هالة تفيض الى أفرادها كثيرا من ذات اليد . لما كنت اعرف كيف تكون حياتى مع هذا الخلق الذى رسخت فى عروقه . وقد كنت فارقت مسقط رأسى الى المدينة الاولى التى نزلت فيها . فوجدت من ذلك ما هو الكفاية وفوق الكفاية ؛ ولو كنت أمشى فى كل ما يدخل يدى بتؤدة وسطى لأمكن لى أن أؤثل من ذلك مالا غير قليل . لكن الاريحية واللذة التى أجدها فى الافضال تحولان بينى وبين ذلك . ثم لما ارتحلت الى المدينة الاخرى التى كنت معى فيها . كاد دولابى يقف . لولا أن أحد من ينضافون الى هالتنا رتب لنا راتبا شهريا استطعنا ان نقيم به الاود . ثم لما انتقلنا من تلك المدينة الى الاخرى حاضرة البحر . كانت الحالة تتمشى على تلك الوتيرة . ثم لما وجهت وجهتى لما تعلم كان ما يدر من ذلك ومن هنا وهناك يمسك الذماء دائما . وقد كنت وقعت فى ذلك مسوقا بمحبة الزيادة من المعارف . متناسيا كل شيء . ثم لايمكن أن يصرف كل ما دخل من هناك الا فيما دخل من أجله

(١٠)

والامانة لاتفسح ان يقتصد فيه . فدارت سنوات . ثم وقع لى ما وقع . ولم أصاحب معي الا ستة فرانك لاغير . ثم مضى ما مضى ولانزال ببركة تلك الهالة نتمشى . وقد دخل في اليد أكثر مما تظن . فربما يكون مجموع ما مر في اليد هنا زهاء ٤٠٠٠٠ فرنك . منذ ذلك اليوم الذى هو أول النفى الى الآن . فلو لم نجد كل هذا بفضل الله كيف تكون مع هذه الحالة التى يمثل فيها العزوف دورا هاما . واذ كنت أنت فى فجر حياتك . متعاليا ان تجد لك مستندا من الاسر . فلا تنسى أن لاتقدم حتى تتمكن فى أداء الواجبات هذا مع أننى اعلم أن كل احوالك الماضية لايمكن لك معها اقتصاد . خصوصا بعد هذه العاصفة الهوجاء . ولكن يجب عليك على الاقل أن لاتبادر لذلك حتى تعد له عدته . على أن المستقبل كله بيد الله . والاتكال عليه من افضل الذخائر (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى مع الاستعداد بكل ما فى الامكان . ولا اخفى عنك أننى أجد فى نفسى شيئا مدهشا . وهو كثرة الرزق من حيث لا أحتسب . واما من حيث احتسب . فكثيرا ما أخيب منه . فطالما تسببت فى اقتصاد . ثم اقدمت على أعمال يدر مثلها على الناس مالا . ولكن سرعان ما يضمحل ذلك . ثم لاينفعنى الا غيره . وقد اخبرنى مخبر عن أحد الافاضل الكبار . وهو شيخى سعيد التنانى رحمه الله . انه قال : ان فلانا لايطمعن ان ينجع فى تأثيل مال . ورزقه الكثير ياتيه من حيث لايحتسب دائما . كما أخبرنى كثيرون عن الوالد أنه كان صرح كثيرا باننى فائض الرزق . يقول ذلك من جهة الكشف . وهذا ما وجدته صحيحا . وان كنت لا اتكل على ذلك . فاحاول دائما أن اتكسب وادخر . وخصوصا اليوم حيث اصبحت خفيف الحاذ . أجد جوا يمكن لى فيه ذلك . فلذلك اقتصدت من مجموع ما تقدم قليلا اعول عليه للمستقبل بحول الله . وانوى أن أرصده لطبع مؤلفاتى يوم تنكشف الغمة . ولعل ذلك تكون فيه البركة ان شاء الله ليجده ولدى ليستعين به على دراسته التى لانجهل ما تقتضيه فى هذا العصر العنيف .

ذلك ؛ واحسب أن مجرى رزقك لايسير طبق هذا الذى ذكرته عن نفسى . ولذلك يمكن لك أن تنتظر ما يوافقك . فالمرء فقيه نفسه ؛ وكلما امكن لك أن تجمع بين العلم والمال فان ذلك من الواجبات عليك والراتب من عادته أن لاتكون فيه البركة والنمو من طبيعة الحال . ويمكن لك أن تجد طريقة تجمع بها بين السير فى طريق العلم . وبين ما يمكن أن تستغله . وتنتظر منه فائدة . على أنى اختار لك بعد أن تسكن هذه العاصفة ان تتسبب فى وظيفة أخرى أوسع رزقا . وافيح مجالا . واسمى جاها . وأرقى سؤددا .

ولا يعوزن اذ ذاك مقامك فى التعليم من يملأ فراغه من شباب جديد مثقف ثقافة حديثة . بل ربما كانوا اليوم أقرب الى أداء المطلوب منك . كما كنت ايضا أسد سهما منى فى ذلك . وكذلك يترقى الفكر المغربى شيئا فشيئا . كل جيل أعلى مما قبله . هذا كله من آثار فكر ينظر اليك من بعيد . ولا يعزبن عنك ان الحاضر يرى ما لايراه الغائب . والغاية معروفة فليسلك اليها اى طريق .

لاتنسين أنك ولدت فى مختتم رجب ١٣٢٨ هـ . وانك اليوم فى الثانية والثلاثين من عمرك . كما ان صنوك ولد فى صفر ١٣١٨ هـ . وانه اليوم فى الثانية والاربعين . فبين تفكيرينا ما بين عصرينا . فانت أغض أهابا . واشحذ عزيمة وأعرف بمحيطك . وأقوى على كل عمل تريد أن تملأ به فراغ مستقبلك . لكنني – على بداوتى وكثرة تباعدى من الحضر منذ سنوات – اكثر ادراكا لحاجات الدرهم التى لاتزداد مع هذه المدنية الحديثة التى نلتحف بها الا الحاحا وكثرة أنواع . فلا بأس أن يكون لفكرى حظ ولو قليلا ازاء فكرك الوقاد . فان للفكرة التى يولدها الاشفاق . والنظر المبنى على التجارب مقياسا واسعا . وهذا ما للشيوخ . وذاك ما للشباب .

أواه لو عرف الشبـا ب وآه لو قدر المشيب

كان الله فى عونك . واخذ بيدك الى الاوج الذى نرشحك اليه منذ زمن بعيد

ذكرت أنك قلما تجد اتصالا مع أصحاب « البهجة » فاعلم انني اتصل كثيرا بصاحبك (١) ومعينك فى الادارة . فى تلك الايام المعسولة . فقد توصلت من قريب بخبر عنه . يذكر أنه فى فراش مرض . وذلك فى ١٠ – ١٣٥٩ هـ . ولكن ربما أبل اليوم . لان الكتاب ابطأ فى الطريق . وهو وأولاده بخير لايزال فى محله . وهو ممن يريشون دائما صنوك بكل شيء . فلا يغفل طرفة عين . وقد كان الوحيد الذى أمكن لى أن أتصل به . وقد ذكرك ملما بما عنده عنك . واعدا أن يبلغنى عنك ما يتجدد . ثم كان ان علمت عنك ما لم يعلمه والحمد لله .

الأهل كلهم سعداء مرتاحون . والشقيقة لاتزال ملحة بالسؤال عنك . وكثيرا ما تقترح أن أكتب اليك لتزورها . ظنا منها أنك ذو حرية فى نفسك . وتتمنى أن تراك قبل أن تغمض عينها . وليت شعرى متى يتيسر لك ذلك ؟ واما الأخ الأكبر فانه لى هنا الانيس الوحيد . فمعه فقط أجول فى انحاء العالم . ومعه أتتبع أحوال الانقلاب العالمى . وهو طيب لا استروح منه الا كل خير . وأنا كما تعهدنى كتوم عن كل أحد . الا ما لابد منه معه . وهو

---

١) مولاى أحمد المنجرة

يمد من ذات يده من قبل ارادته فقط ما يمده فينة بعد فينة . وانا لا أزداد الا عزوفا . فما جاء فمرحبا به . وما لا فالى بعد . ولا أمد عينى الى أى شئ لأملكه . ولا أسأل أحدا . بل الكل يرونني هنا أغنى منهم والحمد لله .

تذكر أحوال العالم وما ينتظر منها لهذه البلاد . فاعلم أن المستقبل بيد الله . فكثيرا ما أسهر حول هذه الفكرة . وأوازن وأضع المقاييس . ولكن لا أكاد أتذكر قول الشافعي : (ما حك جلدك مثل ظفرك) . حتى أرى الاظفار في مجموعنا أقل مما ينتظر . وما الاظافير المحدودة التى طالما حوول قصها وقلمها مرارا . الا قليلة الى الغاية جدا . مع ما أصابها من تمزع هنا وهناك . وقد سقط الى خبر محاولات تحاول اليوم من هذه الاظافير . وانها تحاول ان تحك من الجلد ما تقدر عليه . ولكن ليس هناك الا الوعود . ومن ذا الذى ينسى وعود ١٩١٤ / ١٩١٨ م . فيثق بمثلها اليوم . حتى ان صاحبكم « فرانكو » خاس بعدما ملأ لكم السماء والارض مواعيد . ولهذا العجز الذى نراه من كل جهة منا . ولكل ما لايزال يجيش به هذا الغاصب من جديد . رجعنا الى الله ان يهيىء من فضله ورحمته فرجا ومخرجا بما يريد . وهو اللطيف لتهيئة كل ما يريده . حتى ليستخرج الزلال من الصفا . والعسل المصفى من الزقوم . وهذا ما كان يجب علينا لو كنا نرجو معه وراء عمل منتظر منا ما نرجوه . وكيف لا ونحن كالغريق الذى يتعلق بكل عود . وان كان سابحا مثله على الامواج . أو كالخافى الوقع الذى يحتذى كل ما يجد . ودهماء الناس في غفلة عن كل هذا . وأصحاب المراتب انما يتخوفون من انزالهم عنها . ولو ضمن لهم البقاء فيها لابتهجوا . وان لم يبق لهم من الامر الا تصفيف العمائم. وارسال الاكمام. وأصحاب التمييز ـ وما أقلهم ـ تعوزهم الثقة بالنفس . والتضحية الكبرى . ولولا شباب قليلون لما أبه الله بهذا الشعب المنكود .

(وبعد) فلندع ما لانملك فيه حولا ولا طاقة . طالبين ممن له الحول التام والطاقة المحيطة . أن ياتينا بفجر منير . انه بالاجابة جدير . وهو على كل شيء قدير .

انني أكتب اليك والناس معيدون . والكباش في نزع . والناس مغتنمون الفرصة فبالغوا في تناول اللحوم بعدما أذاقهم الغلاء حوله وحول كل شئ ما أذاقهم . والغلاء سائد في كل شيء . خصوصا في المستوردات من الخارج . والكتاتين كادت تفقد . فالابيض منه نحو ١٠ فرانك أو أزيد لنصف المتر ـ الذراع ـ والاسود منه ١٢ فرنكا ونصف لمثل ذلك. والقميص الابيض يناهز ١٠٠ فرنك . ولاباس بالغالى ان كان موجودا . غير ان فقدان

الملابس من ذلك قد عم بغتة . والسمن للكيلو بنحو ١٦ فرنكا . والعسل مفقود . والزيت ١٥ فرنكا لليتر في الرائج . والحكومة سعرت بما هو أقل . ولكنه لايوجد الا بذلك . والاتاي دب اليه أيضا الغلاء المفرط . فهو للكيلو ٧٠ فرنكا وزيادة . والسكر في هذه الجهة بخمسة فرانك ونصف للكيلو . وهذا كله عندنا في هذه الزاوية لايزال رغم كل هذا رخيصا ان قيس بداخلية القطر . وأما الحبوب فان القمح بـ ٣٧ فرنكا للعبرة . أو ينقص أو يزيد قليلا بحسب الجودة والرداءة . وأما الشعير فهو لايزال محصورا عن الغلاء بجهود الحكومة . وهو للعبرة من ١١ فرنكا ونصف الى ١٥ فرنكا . باختلاف الاسواق المختلفة بالجلب منها واليها . وهو في خارج هذه الزاوية أغلى من ذلك . واللحم بـ ١٠ فرانك وزيادة . وفي الداخلية أكثر وأكثر (١) ونحن هنا لانزال نتمتع برخص نسبي . ورؤوس موارد المعيشة الاهلية موجودة بكثرة . والاسر كلها لايزال تحت أيديها ما يوصلها الى وقت الحصاد . وقد نزلت الامطار اخيرا . وانبعث الرجاء من وراء الفلاحة ونحن هنا في زاوية بعيدة عن العالم بكل اعتبار ؛ فلئن كان ذلك مما يتجهم له فكر متنور . فانه من جهة المعيشة نعمة سابغة . ولله في خلقه شئون . وكل ما تنتجه البلاد فهو كثير موجود . رغم كل هذا الغلاء . وانما أعبر عن هذه الجبال فقط . وأما الداخلية فيصلنا عنها خبر الضيق الشديد الى الغاية والله يلطف بعباده . فما كنا نجده هنا مجانا كالوقود وما اليه . يحتاج اليه هناك . ثم لايوجد الا بغلاء مفرط . والحكومة ساهرة على كل ما فيه مصلحة العامة . والحق يقال . غير ان الاهالي جهال لايقدرون قدر ذلك . ولايكتنهون كنه الاسعار التي توجبها اليد العليا . وايا كان . فنحن في نعمة شاملة . ان قويسنا مع تلك المنطقة . ومع كل الجوانب التي تصلى سعيرا . فلئن أتت الصابة في السنة المقبلة . فلا بأس عند هذه الناحية . والغنم موجودة . فاستطاع الناس أن يرجعوا الى الصوف في كل شيء . حتى في العمائم والسراويلات . كما هي عادة الجيل الماضي القريب . لأن اللباس هو ما يتهددهم بدوره فقدانه ان فقد الكتان . والفرج عند الله منتظر - اشتدى ازمة تنفرجي - وقد قال الله تعلى : (ان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا) ولن يغلب عسر يسرين . وثياب الصوف في قمة غلائها المفرط . فالسلهام البدوي الساذج بـ ٥٠٠ فرنك . وكذلك الجباب . فضلا عن الاردية . ولله الامر من قبل ومن بعد .

انني أكتب اليك في عين المحل الذي هو مسقط رأسك . وقد أتعمد الجلوس فيه . ليأتيني الاثير المواج بذكرياتك . وفي طرفي النهار كنت

---

١) ليقس القارىء هذه الاثمان ١٣٥٩ هـ بأثمان اليوم ١٣٨٢ هـ

اجلس فى المطبخ الذى تعهده فى طفولتك . فكنت أتحين ان أجلس حيث كنا نستدير بالوالدة رحمها الله . واجرى فى خاطرى سنوات ١٣٣٢ هـ . حين كنت لاتزال طفلا صغيرا بساما . ضحوك الوجـه . طلـق الاسارير . تلحفك غرارة الصبا ببردتها اللماعة . فكنت اذذاك ربما أعمد اليك لكثرة ما أناغيك . فاقول لك دعنى أنفخك كما تنفخ أمنا الوطب عند مخضهـا . فانفذ ذلك . وأنت تقهقه ابتهاجا ومرحا . ثم تلحظنا الوالدة فتعاتبنى على فعلتى . وهل تريد أن يكون فقيهها ـ كما كنت تنادى به وأنت لاتزال طفلا ابن سنوات قليلة . ألا تزال تذكر ؟ ـ وطبـا ينفخ ؟ وكثيرا مـا أجالس الشقيقة اليوم هناك . فنذكرك ونذكر صنوك أبا القاسم ثاوى (البهجـة) وكل تلك الذكريات العذبة . فتمضى لنا ساعات مفعمة آمـالا وأمانـى ان نتلاقى ثانيا . وربما أعمد الى البنى عبد الله الصغير الضحوك الذى يشبهك فى سنك اذ ذاك تمام الشبه . فأداعبه بمثل تلك الدعابات الحلوة ما شاء الله . الى أن يحين المضى الى مضاجعنا . أو الى مسارح أعيننا . فننفتل عـن المطبخ المبارك .

عمدا سقت اليك هذه الذكريات عن صباك لأحرك منك ما كان ساكنا والمس كهرباءك لتنفتح لك عيون تلحظ بها ما مضى وما نحن فيه اليوم . فبينما أنت فى بيتك الاوربى العصرى . وأنابيب الماء تنفجر . والكهربا تستنير . والهاتف يرن جرسه . والمذياع يأتيك برنات عبد الوهاب ونغمات أم كلثوم . ان كنت لاتزال تتصل بالحانهما بالاثيـر . أو يتحفـك بخطب السياسيين الذين يتوددون اليوم الى العروبة بالحاح . اذا بنا هنا فى (الغ) فى بيت بدوى يجمع دورين أعلى وأسفل . تفتحت فى أوساطهما أقـواس صغيرة فى الدورين معا . وقد رش كلا الدورين بالجير . فاستطعنا أن نتمتع بالبياض . وبنور يزداد سطوعا به . وازاء ذلك كلـه دور آخر فيه باحـة وسطى انفتح فيها المطبخ المعهود عندك ؛ تصطف ازاء جدارها الغربى قدور الماء . وعن جنوب المطبخ فى الباحة درج تطلع الى الدور الأعلى فى مسكننا المذكور قبل . وما تحتها يؤدى الى مكان فى أقصاه رحى يدوية تمدنا بمـا تمدكم به الارحاء العصرية . ومن تلك الناحية اسطوان سفـلى يـؤدى الى الباب الخارجى الكبير . وهذا المسكن بنى من جديد قبل انتقالى من (مراكش) بسنتين على هياة ما يسمى فى عرف هذه البلاد (الدويرة) ـ تادوايريت ـ وقد قاسى فيه الشقيق الحبيب البانيه مشقات . ثم لما استتمه كما يريده . اذا به من حظهذا الغريب المنفى . وهكذا يجىء العجب . فما بنيناه فـى (مراكش) وصرفنا فيه زهاء ٤٠،٠٠٠ فرنك . قد غادرناه وراءنا . وما لـم

نصرف فيه درهما واحدا قد أتيح لنا . ومن هنا يظهر ان حياة المرء كلها عبر تبعث التوحيد من أعماق القلوب . وتعلن أن هناك يدا غائبة تدير كل حركات العوالم . وتهيء برحمتها لكل انسان ما تهيئه من حيث لايحتسب. فقد تجرده مما بذل فيه جهوده ؛ وتاتيه قبلا بما لم تنله فيه أدنى مشقة . (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)

(أما بعـد) فسلام عليك سلام مشتاق أشواقا تطفح بها الجوارح . ويفعم بها ما بين الارض والسماء . ممن يستودع الله دينك وخلقك وعلمك حتى تكون مصونا من كل سموم هذه المدنية وادرانها . واسفاف عقليتها . حتى ألقاك كما فارقتك غيرة على دينك . وتشبثا بالعفة وحسن الخلـق ؛ وربما كان هذا اللقى أقرب مما نتوقع . وما ذلك على الله بعزيز .

هذا ونحن الآن ننتظر نسمة مولود جديد ان شاء الله . وحاول أن تحافظ عـلى هـذه الرسالة لتدخر للتاريخ . ولاسيما ان كان جوابها على نسقهـا . ٢٦ ـ ١٢ ـ ١٣٥٩ هـ

ثم أجاب بعد زمن طويل حفظه الله بما يلى ـ وذلك بعد ما أبيح لى وزرت الحواضر ١٣٦٢ هـ ـ :

أيها الاخ الكريم الذى أغنانا اجلاله وتكرمته عن أسمائه وصفاتـه . فان الشمس اذا بهرت الأعين . أغناها ذلك عن النعت والتبيين . والعلـم الشامخ الذى لايطاول يكفيه شموخه عن التشهير بـه والاشهاد . وعليكـم سلام لو حملته ريح الصبا لكانت المقول فيها :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقـد زادنى مسراك وجدا على وجد

أو لو هتفت به حمامة ورقاء لكانت المقول فيها :

أحمامـة الوادى بشرقـى الغضا ان كنت مسعدة الغريب فرجعى
انا تقاسمنا الغضا فغصونه فى راحتيك ونـاره فى أضلعى

أو تنفس به نسيم الصباح لكان المقول فيه :

ويا نسيم الصبا بلـغ تحيتنـا من لو على البعد حيا كان يحيينا

(وبعد) فان الشوق اليكم ألهب الفؤاد . وأضنى الجسد :

لا سكن الله قلبـا عن ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقـا
لو شاء حملى نسيم الريح حين سرى وافاكم بفتى أضناه ما لاقى

لا أدرى هـل لليالى ثار علينا . فراحت تثأر وتمعن فى الانتقام . أم تاخذ البرىء بجريرة الغير . ولكن متى كان الدهر منصفا فى صروفه ؛

وعادلا فى أحكامه ؛ حتى يتطلب منه الانصاف والتحرى ؟

ومكلف الايام ضد طباعها　　متطلب فى الماء جذوة نار

فلقد أقصانى الدهر عنكم أيها الأخ الكريم وأقصاكم عنى . حتى باتت الاضلاع تتصدع من فرط ما بها من الجوى والشوق المبرح . فهيهات أن يخفف عنها ما ترسله من التأوهات . أو ما تلفظه من الزفرات ؛ فان فوهة البركان الزافر تضيق عن شهقاته واختناقاته ؛ فلابد له أن يتزلزل يوما ؛ وينفس من ذات صدره . فالى متى ونحن مكبوتون مضطرمون شوقا . دون أن نجد متنفسا ؟ والله يعلم انى أكابد ما تنوء الجبال ببعضه . وأتحمل ما ينفطر الصخر الأصم لثقله .

أتدرى أيها الاخ الكريم ما الذى جعلنى أبأس خلق الله فى هذه البلدة هو اننى أفرح ولا أجد من اقاسمه فرحي ؛ واحزن ولا اجد من أفضى اليه بذات صدرى . وأمرض ولا أجد من أشكو اليه أوصابى ؛ واغتم وأكدر وأتعب ولا أجد الشجاعة الكافية لأفرض على اى انسان أن يهتم بى . أو يعير لى أذنه على الأقل ؛ وقد حاولت ذلك مرارا ؛ وكنت أختار أعز أصدقائى . وانتهز منه الفرصة فى بعض الاحيان ؛ لأقص عليه من امرى ؛ وأبثه حزنى ولكننى لا أكاد أفعل وأذكر بعض الشىء ؛ حتى يقاطع كلامى كرها ؛ ويشرع هو فى الشكوى . ويرغمنى على الاستماع والامعان . ويأبى الا أن يضيف أحزانه الى أحزانى ؛ وبلواه الى بلواى . فصرت أقول : ما أشبه الناس بالغرقى ؛ لايتماسكون بل يتجاذبون ؛ ومرجع ذلك فيما أرى الى هذه الانانية الطاغية . التى صارت من الاخلاق الرئيسية فى هذا العصر . فلا تكاد تجلس الى الانسان حتى يتحذلق . ويوهمك انه محور الدائرة فى هذا الوجود . وان له الأخذ والرد فى كل الشؤون ؛ وانه منبع الذكاء والفطنة والفهم . ينتقد الى أقصى الحدود . ويتذمر غاية التذمر ؛ فان غضب حسب الناس كلهم غضابا . وان رضى ـ وقلما يرضى ـ زعم أنه المجدود وحده دون سائر العالمين . فهذه أخلاق الناس اليوم . طغت فيها الانانية ؛ واعمت الابصار والبصائر ؛ وذهبت بالايثار والفضل والتواضع والتقدير. فهذه أسماء أصبحت لامدلول لها فى أوضاع المجتمع ؛ وانى لا أحكم على الاوساط البعيدة . وانما أعنى هذا الوسط الضيق الذى أتخبط فيه الآن ؛ ولولا معرة الغيبة لأطنبت ؛ وذكرت شواهد شخصية تقضى بما أقول . والله على ما نقول وكيل ؛ ومن ثم قل الصاحب ؛ وعز الصديق . لان من شروط الصحبة الايثار والافضال والتجاوز والاغضاء ؛ فأين هو هذا الصاحب الذى يغضى ويتجاوز ؛ وينسى نفسه أحيانا ارضاء لصاحبه ؟ ورحم الله

الحكيم القائـل :

فصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

نعم أيها الاخ الشقيق ؛ قسا علينا الدهر ؛ فابعدك الى الجنوب . كما أبعدنى الى الشمال . وانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ؛ اذ جعل لك من الهم فرجا ؛ ومن الضيق مخرجا ؛ وأبعد عنك يد العسف والجور . ونقذك من هوة الغربة الى دار القرار ؛ وأدناك من الحواضر التى تشتاق اليك أضعاف اشتياقك اليها ؛ وانى لأرجو أن يكون المنقلب خيرا . والعود أحمد . لامنة فيه لمخلوق . ولا قيد فيه ولا شرط ؛ فتلك عقبى الصابرين ؛ وان هذه لابشرى السارة التى طالما انتظرناها ورجوناها قد طرقت اسماعنا منذ خمسة أشهر فازيد ؛ ولم يكن لدينا ما يؤكدها حتى ورد علينا فاضل من أهل (البهجة) واكد لنا ذلك ؛ وذكر انه اجتمع بكم شخصيا . فحينئذ تضاعف السرور ؛ وعمت البشرى . وتبادلنا التهانىء ؛ ثم ورد علينا من يخبرنا أنه اجتمع بكم فى (الرباط) وانكم نلتم شرف المثول بين يدى صاحب الجلالة محمد بن يوسف أدام الله عزه وتأييده . فعلمنا حينئذ ان الهدى بلغ محله ؛ وان المياه رجعت الى مجاريها . ولكننى انا شخصيا لم اطمئن كل الاطمئنان لأنى لم أتلق شيئا مكتوبا فى الموضوع ؛ يحتوى على التفاصيل. وعلى حقيقة الأمر ؛ حتى يطمئن الخاطر ويهدأ البال ؛ وعلى كل حال . فلقد استبشرنا كثيرا . وعددناها من الايادى البيضاء . ورجونا الله أن يلم الشمل ويجمع الكل ؛ ويقر العين بالعين .

ما أقدر الله أن يدنى على شحط من داره الحزن ممن داره صول

وانك يا أخى العزيز ؛ لتحسن وتسىء الى معا فى وقت واحد عندما أتسلم منك كتابا . تحسن به الى . لأنك تلقى الى دررا من حر الكلام ؛ وتسدى الى نصائح لاتوجد الا فى أصداف العقول الحصيفة . ثم تسىء الى اذ تبث بين ثنايا كتابك لواعج الاشواق . وحرارة الفراق . فاجدنى وانا الغريب النائى فى بحر لجى من الاشواق القديمة والمتجددة . فتبعث فى انعطافات الى الماضى . واعتبارات بالحاضر . واشفاقات من المستقبل ؛ فيسبح الخاطر فى بحر اللانهاية ؛ ويغوص ويطفو ؛ ويدبر ويقبل . وييأس ويرجو . وما يزال كذلك حتى يصطدم بصخرة العجز والضعف . فيقع على أم رأسه خائبا خاسئا . وتحسن الى اذ تذكرنى بعهود لنا سلفت فى تلك الديار ؛ حيث عرفنا نعمة الوجود لأول مرة . ودرجنا بين أتراب لنا واخوة . وعقلنا ما نعتز به الآن من عقيدة وكلام وأدب . ولقد كنت ماهرا جدا فى تصويرك لى مراسم بيتنا ؛ وحتى الاثافى والقدور ذكرتها . فيالك

من مصور بارع تعرف كيف تثير العواطف الكامنة . وتهيج القلوب الساكنة حقا انك رميتني فاصميت . وسددت الىَّ فاصبت ؛ وتلقيت ذلك كله بشيء من الجلد المصطنع . وتحملته شأن الرجل المستمسك . ولكن الشيء الذى لا املك نفسي عنده ؛ ولا أقدر على تحمله ولو كنت جبل رضوى . هو ذكر الوالدة المرحومة ؛ والاخت الشقيقة . فهاتان تبلغان مني ما لا تبلغه النار من الحديد . وتفعلان في قلبي مما لايفعله اللهيب فى الهشيم ؛ رحماك يا ربي متى ترحمني فاسكب وابلا من مدامعى على قبر والدتى ووالدى ؟ ومتى ترحمني فأعفر عارضي خدى بتربتهما الطاهرة ؟ ومتى ترحمني فاطوف بذينك القبرين اللذين يضمهما ذلك الشاذروان خارج بيتنا العزيز ؟

ولا تزال صلاة الله دائمة   على دفينيه لا تحصى بتعداد

فلنمسك العواطف ولنتجلد . ولنترك الدهر وتصرفاته . وأقص عليك أيها الشقيق بعض أخبارى الخاصة . وأرجو أن تقبلها وهى موجزة دون تعليق . مثل ما تعمل الصحف اليومية ؛ اكتب اليك هذا الكتاب فى المدينة التى أقطنها ؛ وفى بيتى الخاص الصغير . الذى ليس معى فيه أحد الآن ؛ ونحن فى صبيحة اليوم الرابع عشر من شعبان المبارك عام ١٣٦٢ هـ ولا شغل لنا فى هذه الايام اذ نحن فى العطلة الصيفية التى تمتد الى ما بعد العيد الصغير ؛ ولقد كانت لاسنة الدراسية الماضية مليئة بالاشغال الى حد لايطاق ؛ لان كثيرا من المدرسين انقطعوا عن العمل . لأسباب شخصية وأصبحت واجباتهم ملقاة على كواهل الباقين ؛ ولقد انفصل عنا سائر الشرقيين الذين كانوا فى معاونتنا ؛ فانقلب بعضهم الى بلده . والبعض يعمل للحكومة هنا . والمسألة مسألة حساب ومرتب ؛ وكم ؟ والتلاميذ أنفسهم بدؤوا يقلون تحت وسائل الاغراء والترغيب والترهيب . ويتضح لك السبب عندما تعلم أن المدارس الابتدائية فى هذه المدينة تتجاوز الست والثانوية أربع . ومجموع التلاميذ الأعلين والادنين أقل من الألف بكثير ؛ لايتجاوزون الستمائة . وذلك ان ثمرة التعليم هنا قليلة الجدوى . لاتنيل صاحبها من المكاسب والمناصب ما يقوم به أوده وحاجته . فترى اغلب الشبان منصرفين الى التجارة والحرف الاخرى ؛ وهناك سبب اخر ؛ وهو أن الطموح والمغامرة والتنافس الادبى متعدمة هنا بالكلية . فالشهوات والبهرجة والقيل والقال هى الشغل الشاغل لسائر الشباب وحتى الشيوخ فكم من شيوخ هنا يشار اليهم بالبنان واستطار ذكرهم فى البلدان ؛ تراهم فى الشوارع يتصابون ويتهتكون ؛ انا لله وانا اليه راجعون :

اذا كان رب الدار للطبل ضاربا   فلا تلم الصبيان فيها على الرقص

وهذا ما جعلني متضايقا هنا جد المضايقة . وارجو الخلاص من هذا الوسط الموبوء . صباح مسا . وطالما رجوت انتهاء الحرب لا لشيء ؛ وانما لأشرق او أغرب عن هذه البلدة ... علاوة على الافلاس السياسي الذي بان عواره منذ بعيد ؛ ولقد كنا منذ سنوات منقسمين الى احزاب . تتناوش وتتهارش. اما الآن فقد بلينا بما هو أدهى وامر ؛ فلقد انشعبت الاحزاب نفسها . ولم يبق داخلها فردان اثنان يتعاونان على مصلحة الوطن ؛ وانما هي مصالح شخصية . تغتنم فرصة هذه الدولة أو تلك . وان هذا الكلام ليدمي القلوب ويسجل علينا الخزي والعار ؛ وياليتني لم أدونه .

قلت ان السنة المنصرمة امتلأت بالاعمال . وهي فيما يتعلق بي أسعد السنوات في حياتي كلها على الاطلاق ؛ اذ انجزت فيها ولله الحمد ـ زيادة على أعمالي المدرسية ـ اخراج مؤلفات مدرسية . لا أكون مباهيا اذا قلت انها تسد فراغا كبيرا فيما يتعلق بمبادىء الدين واللغة العربية . ولقد استغرقت في انجازها ثمانية أشهر كاملة . بلياليها وانهرها ؛ وانقطعت فيها عن المعاريف والاحباب ؛ ولازمت كن بيتي ؛ وانكببت عليها بكلي وجزئي حتى أكملتها في الشهر الماضي وقدمتها الى ادارة المعارف المغربية ؛ لترى رأيها فيها ؛ ولم تظهر النتيجة الى الآن (١) وذلك ان الحكومة أصدرت منهجا رسميا تسير عليه الدراسة الثانوية. ودعت المثقفين الى وضع مؤلفات مدرسية تطابق ذلك المنهج . فاتكلت على الله وعلى ما حررته في السنوات السالفة . واخرجت مؤلفا في الدين يتكون من ثلاثة أجزاء . حسب السنوات الثلاث المطلوبة . ومؤلفا في قواعد النحو والصرف من ثلاثة أجزاء للسنوات الثلاث نفسها . ومؤلفات في تاريخ الادب العربي من ثلاثة أجزاء كذلك لنفس السنوات على هذا الترتيب :

– الادب العربي المعاصر للسنة الاولى

– الادب العربي المغربي والاندلسي من الفتح الاسلامي الى قبيل النهضة الحديثة للسنة الثانية .

– الادب العربي في مختلف عصوره من العصر الجاهلي الى ما بعده من العصور للسنة الثالثة الثانوية .

ولاشك أنني وجدت عنتا شديدا في اخراج هذه المؤلفات في شكل يلائم الاسلوب الحديث . ولاقيت دونها عرق القربة . وبالاخص المؤلف الاخير الذي يحتاج الى اطلاع واسع وصبر عظيم ومراجع لاتحصى .

---

١) نعم انها كلها مقبولة . ويدرس بها رسميا . يوم يعتنى بالعربية هناك وحدها قبل الاستقلال ؛ وأما بعده فـ . . .

ولا أدعى انني أتيت من ذلك كله بالمطلوب . ولكن (فوق جهدك لاتلام)

ولقد ألف بعض الاساتذ فى نفس الموضوعات . وتقدم بمؤلفاته أيضا الى ادارة المعارف . ولا أدرى من سيكون نصيبه القبول أو الرفض . فبضاعة أخيك كما تعلم مزجاة . فزوده بارشاداتك الغالية . واما بقية المواد المدرسية فقد تقدم بها الاساتذة الشرقيون والبلديون .

فهذا ما يستحق الذكر . ولنمسك عن بقية الاخبار الى فرصة أخرى وتحياتى وأشواقى الى سائر الأهل والاخوان ؛ وقبلاتى الى انجالكم الاكرمين والى سائر أبناء الاخوة . والسلام عليكم من أخيكم الغريب .

(أقول) : قد نال كتابه فى الأدب رضا وزارة المعارف فى (الرباط) بعد الاستقلال .

مع الاستـاذ سيدي المدني بن علي الالغى

كتب الىّ يوما هذا الاستاذ ما يلي ؛ وقد تأخرت عنه بنات يراعى ؛ وقد حاول أن يلقى عنه السجع الالغى ـ وذلك قبل أن يرسل الىّ التهنئة بولدى عبد الله وقد تأخرت عن محلها ـ :

أخانا الاستاذ الاعظم ؛ الكبريت الاحمر الافخم ؛ زينة الدهر ؛ ومقر كل تكرمة وفخر . سيدى محمد المختار الموافق وصفه اسمه فتعادلا .

(اما بعد) فنهدى اليكم أذكى السلام . ثم نسالكم عن كنه الاحوال . كيف البرد القارص الالغى الذى أخنى علينا فى هذه الايام . بل كيف هذا الثلج اللماع الذى صقل مرآة الارض . حتى كأنها مرآة حسناء غريبـة ؛ فقد كان البرد والثلج الالغيان يشتاقان اليك أيضا اشتياق كل هذه النواحى منذ فقدت منك أحد من نشئوا بينها . فلا باس أن تحس اليوم بهذا التاثير منهما ؛ كما يحسان أمس منك بتاثير الغربة والتشوق ؛ فانما هذا تاثير العناق المتلاحم الذى يكون بين المتنائين يوم يلتقيان .

ايه سيدى ؛ ما هذه المقاطعة التى ربما تؤدى الى المهاجرة ؛ فالمدعم خير من المنهار . فلان تدعمنا وتتفقدنا أحيانا ؛ أولى من أن تدعنا حتى ننهار انهيارا لايبقى معه حجر على حجر ؛ على ان التعهد والترميم ربما يستجد بهما . والمحافظة على ما كان على كل حال ؛ خير من تركه والاقبال على تأسيس جديد لايدرى أيتم أم لا ؛ ثم ان ابناء (الغ) أبناء أعمامك . ودمهم دمك ؛ وهم منك وأنت منهم ؛ فكيف تنفض منهم كفيك . وتصعر عنهم خديك ؟

أما التهنئة بالاخ الاديب الصغير عبـد الله فلابد منها ؛ فافض اليه بذلك سرا عنى لعله يهدأ باله . فيقر قراره ؛ وقل له عنى ان قصيدتك وقعت منى موقعا عظيما . وستنتج خيرا كثيرا ؛ فربما كان لى عذر فـى التاخير مقبول .

واما حامل الكتاب سيدى موسى بن الطيب ؛ فهو عندنا بياض النهار وقد كلفته حمل الرهونى عند درس المختصر . فاعتذر بالبرد . وقد قال لى سرا اعتذر عنى للاستاذ اذا تأخرت عنه اليوم ؛ واعلمه انى عندكم طول اليوم ؛ عـلى أن مواخذته بهذا لاباس بها ان كان لسرد كتاب ؛ أو كتابـة شىء ؛ لأنها مواخذة محمودة العاقبة ؛ والسلام

٢ ـ ١١ ـ ١٣٥٦ هـ

فأجبته بقولي :

سلام على قطب الدراسة في (الغ) ومن عنده للطالب العلم ما يبغي

سلام محب طالما كان طالبا من الدهر لقيا منه لكنه يبغي

وبعد فقد وافت رسالتك التي تلقيت منها نفثة المفصح البلغ (١)

فقبلتها الفا فاجعلها على جبيني أحيانا وحينا على صدغي

فلله أنت من أخ مخلص به تطيب حياة النازلي ساحتي (الغ)

(وبعد) فيأيها الاستاذ الكريم ؛ الذي يستحي الغريب أن يشتكي غربة في جوار مكارمه ؛ أو يتطاول الى موانسة غيره ؛ وكنفه الرحب ؛ وشمائله الدمثة تنادي بلسان حالها : انه فريد المؤانسة : دائم الاخلاص في المعاشرة .

أما البرد والثلج فقد وجدت لهما من الدفء والكن ؛ والفرش الوثيرة دواء لايبقي معه داء ؛ وما برودة (الحمراء) القارصة بأدون مما نلاقيه هنا في هذه الايام ؛ فعهدي بأرجلي ومعاصمي تتشقق دائما هناك ؛ على أنها هنا لاتتشقق ولا تتأثر . ولعل ما كنت أبكر اليه هناك من الدروس عند الغلس ثم هذا الانحياش هنا في الصباح . والاستذراء بلا شغل كذلك الشغل هناك لعل هذين هما السبب الوحيد حتى لا أحس هنا من قارص القر بما أرى الناس يرسلون به زفرات . على أنني يوم الثلج وجدت من نفسي وأنا أتمتع به غبطة وسرورا وبشرا قلما يكيف ؛ مما ألممت ببعضه في القصيدة الهمزية (٢) كما ترون فيها ؛ وأما اشتياق البرد والثلج الي ؛ فما لي يا للناس يدان بمصادمة مصيبتين في آن واحد ؛ صبارة الخصر . وهذه الغربة التي أنا فيها ؛ فلولا يراعي لكدت أذوب اشتياقا الى هنا وهناك ؛ وأما المتاركة التي أوما اليها سيدي الاستاذ ؛ فمعاذ الله أن أتعمدها أو أقصدها وأنا من صنع كله وفاء دائما لكل من جرى معه أدنى تعارف . فكيف بأقرب الناس وأدناهم الي ؛ ومن هو بمنزلة المقل من عيوني . والفؤاد من ضلوعي

وأما ولدك عبد الله (٣) فقد وكل قضية التهنئة الى أبوتك التي تقدر قدرها ؛ وتعرف ما للولد بها غدا من التطلع الى المعالي ؛ لكن حق الادباء في القضية حق عظيم قلما يقبل من سموك عذر معه ؛ لان قصد الادباء هو رواج

---

١) البلغ ؛ بفتح الباء : البليغ

٢) توجد في ١ من (المعسول) وقد تقدمت الاشارة اليها في الجزء ١

٣) في الجزء الاول قبل هذا كل ما يتعلق بذلك الولد ؛ وقد استأثر الله به بعد في (الحمراء) عند العشاء ليلة السابع من ربيع الثاني ١٣٦٨ هـ

الادب عند كل فرصة ؛ ولدى كل سبب ؛ فاستفت سيدى قلبك . فانه قلب اديب خفاق لما يخفق له كل قلوب الادباء .

اكتب اليك الآن هذه الجمل ؛ فاذا بالولد يجهش بصوته . واسرعت الى سد اذنى خوف ان يفضى الىّ بقصيدة اخرى من قصائد الصبا الهائجة فاقع بها ايضا فى سوء أدب مع أديب (الغ) الكبير . والسلام عليك بدءا وعودا .

٦ ـ ١١ ـ ١٣٥٦ هـ

مع الاستاذ سيدي الحسن بن علي الالغي

كتب الىّ هذا الاستاذ بعد نزول مطر كثير وثلج بيض كل سهول (الغ) وجباله :

الاستاذ المقصود ؛ مولانا المختار المحمود ؛ على جلالتكم أفضل السلام. وازكى التحية والاكرام ؛ (هذا) ونهنيكم بما نهنى به أنفسنا بحلول هذا الخير الجسيم . المشعر ان شاء الله بكل نعيم . وقد رحبت به بشبه أبيات احببت سردها على مسامعكم ؛ فان كدت أجيد فيها فببركتكم . والاّ فعذرى مقبول لديكم . وهى :

اهلا بوفد الخصب وفد سماء نالت به الغبراء كل بهاء (١)

(وبعد) فالغاية القصوى منكم سيدى أن ترشد هذا العبيد الحقير الفقير الى الصواب . وان تنبهه على ما اخطأ فيه ؛ فانه فى هذه البضاعة الادبية صفر اليدين . قصير الباع ؛ ولكنه كثير الرجاء فى أن يلج الباب وراء ارباب هذه الصناعة .

ثم ليعلم سيدى أن قصيدة (العصيدة) (٢) قد أخذت بمجامع لبى ؛ وحال تاثير بلاغتها بينى وبين مضجعى . فعددتها انسى ؛ وموضع تاملى ؛ أنزه فى محاسنها كل ليلة مقلتى حتى صارت عندى بعضا من كل ؛ لكثرة اهتبالى بها وعظم غبطتى . حتى ناجتنى نفسى بان أوشحها بشرح مليح يبدى محاسنها للعيان . ويجلو ما فيها من بلاغة البحترى ؛ ووصف ابن الرومى الذى يزعمون انه ليس له فى الاجادة فى الوصف ثان ؛ بهذا ناجتنى قرينتى ولكن أعظمت الأمر . واكبرت ما خاطبتنى به النفس ؛ فاعتذرت اليها منشدا قول القائل :

---

١) توجد كلها فى مقدمة (المعسول) . ٢) كذلك هناك .

هى الشمس مسكنها فى السما ° فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعو د ولن تستطيع اليك النزولا

فاصرت على طلبها واقتراحها . وأبت الا أن أنهلها ثم اعلها من راحها ؛ فصارت تلح على الحاح الصبى على أهله . فقالت لابد أن تخوض فى حزن ذلك وسهله ؛ وانا محاول الاقالة . وهى لاتقنع الا بأن أجيبها لتتملى بمن تحب وصاله . ولسان حالها ينشد :

استعمل الجد فى أمر تحاوله فان سلمت فما عليك من بأس

فاذذاك أسلست لطلبها مرغما . وان كنت أنا أيضا لرشفها فاغرا فما ؛ فتوكلت على الله متوسلا بالنبى الأواه . متبرئا من الحول والقوة الا بالله فافتتحت ذلك بما ياتى :

(الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ؛ والشكر له على ما جاد به وأنعم . والصلاة والسلام على أشرف الأنيم(١). المنزل عليه (لتسئلن يومئذ عن النعيم) وعلى ءاله وصحبه ذوى الفخر الصميم . من وجبت محبتهم على كل جليل وعظيم . ورضى الله عن ورثة الانبياء العلماء الراشدين الخ) وسميته : (الدرة الفريدة فى شرح مقراة العصيدة) . واليك أسررت هذا . فاخبرنى بما ترى . والسلام على صنونا الجديد ابى محمد عبد الله . انبته الله نباتا حسنا . ولداته الصغار أجمعين . ٤ ـ ١١ ـ ١٣٥٦ هـ

الجواب:

الاخ الاستاذ الشاعر الحسن بن على :

ايه أيها البليغ ايه . لقد القيت عنى القوافى ظهريا منذ اواخر رمضان . واقبلت الى مراجعة ما انتسخته من اشعار الالفيين . فاسترسلت فى ذلك استرسالا ملأ هذا الشهر . ثم طرقتنى قطعتك الثلجية . فحركتنى واذكرتنى ذلك النهار الابيض الذى اختالت فيه (الغ) فى ملاءتها البيضاء وقد خرجت صباح ذلك اليوم عند اشراق الشمس . وقد القت أنوارها المتلألئة على ذلك الميفص . فكان فتنة للناظرين . يملأ الصدر بهجة . ويغمر القلب سرورا ؛ فكنت عزمت على أن أصف تلك الجولة الممتعة . وتلك الروعة التى ءانستها . فاذا بى اندمجت أيضا فيما أنا فيه . فنسيت حتى ذكرتنى قطعتك أمس . فطاف بى طائف الوحى الشعرى ؛ فقلت هذه الهمزية على روى قطعتك . فلك الفضل لان الفضل دائما للمتقدم .

---

١) لغة فى الأنام

ثم قبل أن أخط لك القصيدة . أذاكرك فى قصيدة العصيدة التى سعدت منك بلاشك بمن كساها من الاجلال والاكبار ما ليس لها من استحقاقه عشر المعشار . ولكن عين الرضا عن كل عيب كليلة . ثم انك يا سيدى سمتها ذلك الشرح الذى تتجلى به مهارتك البيانية . وابداعك فى ميدان البراعة . فليعنك الله يا سيدى . وليجازك بكل خير على هذا الاهتمام الكبير بالادب ؛ فلا حياة الآن بالادب . وستزداد مرونة بمثل هذا العمل . وستفتح لك به أبواب . والمستقبل كشاف . على أننى احب أن لاتقدم حتى تتوصل بنسخة منقحة على ما استقر عليه الراى فيها اخيرا . فعهدى بتنقيحات جديدة دخلتها ولاباس أن تزورنى نهار يوم عند ضريح الوالد الذى هومستقرى نهارا . لتعرف ذلك التنقيح :

فتنة الرائى

ماذا راى من لم يكن بالرائى ... ثلجا يشع بنوره الوضاء (١)

الى أن قلت اخيرا :

يا (الغ) مالك لاتصبح دائما ... نفسى ببشر هكذا وصفاء
أو ما دريت باننى ذو فكرة ... صواغة السراء والضراء
يا طالما أصليتنى هما به ... ارسلت مثل عواصف النكباء
ألحفتنى نارا فجشت بقولة ... من مرقمى كاللفح من رمضاء
فاليوم اذ انهلتنى وعللتنى ... بمنى تطيب برشفها حوبائى ٢
أوسلت أيضا قولة معسولة ... تحظى من الادباء بالاصغاء
يا (الغ) لى أيضا حقوق تقتضى ... من بهجة تسلى ومن سراء
اذ الحقوق جميعها كيما ترى ... منى بشكرك أبلغ البلغاء
فانا وفى شاكر ما مد لى ... شكر الرياض لديمة سحاء (٣)

السبت ٥ ـ ١١ ـ ١٣٥٦ هـ

مع الفقيه سيدى موسى بن الطيب السليماني الالغي

جالست هذا الاستاذ يوما مجالسة قلت فيها :

جلوس أبى عمران خير جلوس ... ولاسيما عند احتساء كؤوس

---

١) القصيدة كلها فى أول (المعسول) الا القطعة الآتية .

٢) الحوباء : النفس

٣) أتممنا هذه القصيدة ولم يذكر فى (المعسول) الا غالبها

تجالس منـه من يفيض ببهجة تطيب بها والله كل نفوس
فماشئت من خلق فسيح وحكمة وراى يحل المشكلات نفيس
اذا لم يفاوضك الجليس بقلبـه فليس وان أبدى الصفا بجليس

وهى بنت تلك الجلسة قيلت بديهة كاقتراح منه ـ ٢٢ ـ ٣ ـ ١٣٥٩ هـ .

وكتبت اليـه أيضا . وقـد كان عندى قبل ذلك اليوم . واقترح أن يقيم اتايا جديدا . فباسطته بأن حملته على أن يكتفي باتاى كان باقيا فـي البراد من الصباح . ثم لما تشاححنا على ذلك استهمنا . فاذا به من المدحضين ولذلك كتبت اليه أن ياتى لياخذ ليومه وأمسه . وقد كنت انتظرته فلم يبكر فكتبت اليه ارتجالا دون رجع النفس :

ما ذا التخلف أفضل الاصحاب يـا من اذا يـاتى أتت ءارابى
فمن الصباح ترقبى متطلعا أنوار وجهك بعد طول غياب
أسرع الىَّ الآن أسرع اننى مترقب قدام ساحة بـابى
فالمـاء فى المقراج يهدر فاشربن منه كما تختار خير شراب
فاشرب لأمسك ثم يومك كيفما تشهى بلا حصر وغـير حساب
فالكل دونك يـا أبا عمران فى عينى وفـى حكمى نظير سراب
فيك اقتراحي كله مستجمع من بين كل الاهل والاصحاب
قد كنت كل مناى يا موسى وهل ارتـد بعض مناك والآراب
فانا نهارى كله فى وحدة سوداء زحزحها باثر كتابى
طربالجناح ان استطعت فماكفىالآ جولان فى صهوات جرد عراب ١

٢٦ ـ ١٢ ـ ١٣٥٩ هـ

وأرسلت اليه فى يوم دجن مكفهر السماء . يكاد المطر فيه يرجحن . فصادفـه الرسول وقـد رمحته بغلة . فالقته على أحجار محددة فشجته . فارسل معتذرا . وفى اليوم الثاني استقدمته ثانيا بهذه المنظومة الارتجالية التى يقبلها جو (الغ) وان لم يقبلها الجو الادبى العالى :

أبا عمران ان المـاء غال فصلنا عاجـلا بفراغ بـال
ودع عنك الشجاج وما اليها وفارق عنك مزدحم البغـال
فما شج الجبيـن بوجـه موسى ولكن ذاك فـى وجه المعالى
تحمل كى ترى انسا يشى مجالسة الخمول لـدى العيـال
فعبد الله يدعـو ؛ لبدَّ حينـا دعـاء غليِّم مثـل الهـلال
على مثواك خير سلام حب ترقب ان تجيء بلا مطال

وكان الولد عبد الله ينادى باسم المرسل اليـه ـ سيدى موسى ـ حينما كنت أكتب الرسالة ؛ وبسبب ذلك جاء ذكره فى البيت الخامس .

---

١) باضافة جرد لعراب

ثم اجاب بما نصه :

أتيتك عاجلا يا خير جال ... موافقة نداك بلا مطال (١)
فمذ لبيت ذاق العظم روحا ... بما قد مس من شج البغال
بصرت بما توالى لى ادكارا ... برسلك ما التفقد بالتوالى
فدم يا سيدى فى مثل هذا ... تر العجب العجاب ولا تبالى
ترى يا سيدى وكذاك اهل ... لديك كما نشطتم من عقال (٢)
فبالاخوان تحلو لى حياة ... لتلك رغم خصم ؛ عِنْ ؛ قالى ٣
عليك تحية منى اليكم ... تحف مدى النهار وفى الليالى

ولما وقف عليها الفقيه سيدى المدنى ؛ كتب قطعة مطلعها ؛ وهى اطول من هذا :

أبو عمران مشجوج فوال ... دموعك يا صفى على التوالى
فما موسى أصيب الوجه منه ... ولكن من أصيب هو المعالى
الا أنظر منه وجها مستنيرا ... متى ما اعتم يبدو كالهلال

مع الاستاذ سيدي بلقاسم بن محمد السليماني الالغي

كتبت بديهة الى هذا الاستاذ أبى القاسم السليمانى الالغى استدعيه ما يلى :

أرى المقراج يرسل مثل ذيل ... من الشهباء تجرى اثر خيل
فهل لك أن تشاهده لكيما ... تنال بما تشاهد خير نيل
فاسرع حيث تقضى خير يوم ... يدوم به السرور لوسط ليل
عليك تحية يزكو شذاها ... كزهر الروض ينفح اثر طل

فاجاب :

على الندب المجرر خير ذيل ... وموثر صحبة بجزيل نيل
تحية وامق لبى نداه ... ليحظى من مكارمه بوبل
فها انا قد اجبت نداك حقا ... لأسبح فى مكارم مثل سيل
فضيفك فى سرور وابتهاج ... من الاسفار حتى وسط ليل

---

١) من جلا عن بلده ارتحل . قال انك جال عما تحبه من بلدك (الحمراء)
٢) يعنى الرجوع الى (مراكشنا) المحبوبة
٣) من وعى يعى. وأكد الامر منه بنون التوكيد الثقيلة. هكذا فسر مراده

ادر لى من مذاكرة كئوسا تزيح بريها أصداء جهل
فانت مفيد من بفناك ثاو وانى لازم كلزوم ظل

١٤ - ١٢ - ١٣٥٦ هـ

مع الاستاذ سيدي احمد بن زكرياء البعمراني

كان الاستاذ سيدى أحمد بن زكرياء البعمرانى مرابطا فى مدرسة (الغ) للاخذ . وكان يجول فى الادبيات فيكاتبنى . فمما كتب به الى فى اواخر ١٣٥٦ هـ :

الأخ فى الله الأرضى . الاجل المرتضى . الشهم اللوذعى . واللبيب الالمعى . الاستاذ الجامع . والاريحى اللامع . الاغر الابر الارفع الاسمى . من سمى بمختار الاسماء . أديب حضرة (الغ) الجهبذ البلغ . من بيده ازمة العلوم . منطوقها والمفهوم . وبذهنه الثاقب يحل عقال المشكلات ؛ وتعلى قنن العلوم النقليات والعقليات . العالم الهمام . وصالح العلماء الاعلام الفقيه العلامة . الدراكة الفهامة . من كفاه فخرا بين العجم والعرب . ان كانت بيده اليوم الراية التى ينضوى اليها أهل الادب ؛ سيدى محمد المختار ابن الشيخ الامام سيدى الحاج على المقدس باختيار الله المختار . اطال الله بقاءك . وأعلى علاءك . وأبد فى مراقى السعادة ارتقاءك . وسلامه الاطيب الازهر الاعبق الاعم . يعم جنابك الافخم . العالى بالله الاعظم .

(هذا) والغاية القصوى من جناب سيدى الدعاء لعبده الغريب بصلاح حاله والمئال . وليعذره سيدى أتم العذر . فان شرح حاله يفضى الى الاطناب وليس افشاؤه الا بالمشافهة بالصواب . واقبل منه هذه الكلمات . فهيهات له ان يتشبه بالرجال . أو يقفو اثر اقدامهم والرحال . لانه ما تلا كتاب ادب تام قط . ولذا لايومن عليه العثار اذا ما خط . فما عنده من يعتنى به . ولا من يتلو عليه ولو سطرا أو سطرين . ولو فى شهر أو شهرين . فاى رونق يكون على كلام من لم يتضلع بما للادباء . فهل يكون الا من الاغبياء البلداء . فلا ياتى الا بالمسخ متى فرى فريا وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فوالله لولا محبتك التى قادتنى بغير زمام . لحلفت أن لا أتعرض لضم كلام الى كلام . فهل تتصدر بين المجامع الاماء . وهل من يفقد الكنائن يتقدم للرماء (١) ثم ان هذا الحرج النغل (٢) الذى احمله

---

١) قبل الرماء تملأ الكنائن . مثل معروف . والرماء مصدر رامى يرامى والكنانة جعبة السهام . والمقصود أن على الانسان ان يستعد قبل العمل
٢) نغل الجرح كفرح فهو نغل بالغين : فسد فكثر فيه القيح والورم .

فى صدرى . لم يطلع عليه غيرى . الا ما كان من الفقيه سيدى محمد بن على . فانه خليصى فى المناجاة . لانه وحده فى هذا البلد الظهير لى والولى . فكان متى أفضيت اليه بعجرى وبجرى . وألقيت اليه هذا الامر الامر الذى طال به سهرى . يشير علىَّ بالاناة ؛ وان المستعجل لا يأمن العثرات . فكان ذكره الله بالخيرات . لايفتأ يوالى علىَّ النصائح . كلما أحس أننى بالهم طافح لانني أنزل منه منزلة النور من القمر . وأثوى منه مثوى السمع والبصر . كما صرح هو بذلك فى قوله فى ليلة فضية الاهاب . صقيلة الجلباب :

أسامر فى ضوء النجوم وفى القمر — محبا ثوى قلبى وسمعى مع البصر
نناجى باسرار خفت عن ضميرنا — الى أن طوينا الليل أجمع بالسمر ١
فقلت له ان النعاس مرنق — بعينى فقال لى نعاسى هو السهر
وكنا كفرقدين فى كبد السما — نناوب فى أحدوثة كيفما الخبر
فما راعنا الا المؤذن موذن — بان الدجا يطوى الذى الصبح قدنشر

(وبعد) فما رأيك يا سيدى فيما ترى . فمثلك من يهتم بنظيرى من الورى . فأنت لى والد ثان . ومن عقدت على أنه أنصح الناس للناس البنان .

ثم انهى لسيدى قضية عويصة . ما اعتامتها فكرتى الا انتشبت فى شركها قنيصة . وذلك اننى بقول الشعر مغرم . لهج بالاشتمال بثوبه المعلم على اننى كثيرا ما أخر فيه لليدين والفم . لان الوزن قلما يفلتنى من عثراته ولا أزال أعجب ممن يأمن من زلاته . فما زلت والوزن فى مجاذبة شديدة . من مدة مديدة . وألسنة النقاد تنهشنى هنا وهناك . حتى كررت عليهم فأصبحت معهم فى عراك . ولم أنشب أن أعلنت اليهم بهذه القصيدة النونية فليسمعها سيدى لعلها تكون عنده سنية :

أسير أقول الشعر والناس كافة — يشينون شعرى للقوافى وللوزن
ولولا رجائى من الاهى لقلت لا — أقول مدى الازمان شعرا لذا الشين
فلا تدخلوا بينى وبينه انه — خليل صديقى لو تنحى عن المين
فسوف يرى منى بسيلا علا على — قرينه أخاذا بثار من القرن
هو الوزن حقا لو لدى الوزن مقلة — لصرت لها قذى أجول على الجفن
ولكن هو القذى الحقيقى صار فى — جفونى فتبا للمفاعيل من وزن
ولكن جزاه الله بالخير والبقا — جزاء كريما اذ يشحذ من متنى
فلا أبصرتنى بعدها (بعمرانة) — او اصبح لا أمضى لدى المنتدى منى
فان تنكروا فى اليوم وزنا ففى غد — ابزكم فى النزع واللفظ والوزن
فلابد فى المد حاض من زلة لمن — يكون نظيرى فى ابتدائى وفى سنى

---

١) خفى كتعب . ولغة طىء تجعل مثله على وزن مضى وقضى . فتفتح العين

ثم ان أخي الاستاذ محمد بن علي المذكور كتب الي بعدما سمع هذه القطعة التي أعاتب في بعضها الوزن . فانتصب عن الوزن وكيلا . فاسمعني صليـــلا :

وكـل الوزن من يقـول فيبدي للأديب الأريب أحمد قـولا
انني ان أردتني طوع كفيـ ـك ؛ فمرني أطعك قولا وفعلا
لا تقـل انني لوعر وحزن حين اني الفي لمن قاد سهلا
ان ترد ان تفوز بي فاقصدن علـ ـمي تر الشعر ان تزاوله جزلا
فـأداة الأمور لابـد منهـا أترى دون أن ترى القطر سيلا
أوترى الزهر دون نبت أو النو ر سوى ان هيات زيتا وفتلا
فلديك الفراغ فاستعملنه في عروضي لكي ترى لك طولا
فسلام عليك ما دام صب يرتجي قلبه من الحب وصلا

ذلك ما اوصله الى هذا الاديب الذي توكل عن الوزن . فحين ايقنت أن لاشعر الا بوزن كما لانظر الا بعين . نكصت عن قوله منذ ايام كثيرة ؛ لان يدي والحق يقال في العروض قصيرة ؛ فالآن أريد أن أعرض القضية عليك لعلك تفتي بما رأيت . فأنت جذيلها المحكك ؛ وعذيقها المرجب (١) فقد طعنت طعنة نجلاء، من هذا الوكيل الذي حظر علي بمغزى كلامه في قطعته هذه . أن لا أتصدر لقول الشعر بعد ؛ حتى يكـون لي من مناهل الوزن ورد . فاقض بيني وبين هذا الذي أثر في بمقاله . حتى نكصت عن النظم خائفا اترقب . فان لم تفصح لي يـا سيدي فـي قضيتي عن المراد . لأرفعنها بعدك الى قضاة (مصر) أو (الشام) أو (بغداد) فلا يعوز الحق طالبه ؛ والمحق لابد أن يغلب صاحبه . وهاك ياسيدي قطعـة جشت بهـا جيشان المهضوم الجناب . ولا أدري هل أنا فيها وفي زنة أبياتها على الخطأ أو الصواب :

من لي بشعر كاد سحر بيانه يقضي على قلبي بعضب لسانه
مازلت نشوان الفؤاد بما حوى نظم يحـاكي الورد فـي أفنانه
أو انجم الجوزاء في لمعانها أو روض زهر فاح عن ريحانـه
وافى فايقـظ فكرتي فتضلعت نفسي بِشرب زيد في اتقانه (٢)

---

١) مثل قاله الحباب بن المنذر يوم السقيفة . فالجذيل تصغير جذل بفتح فسكون . وهو أصل الشجرة الغليظ ؛ وكانت جربى الابل تتحكك به . فاذا لم يكن قويا انكسر . والعُذيق : تصغير العذق : وهو النخلة الصغيرة تحاط بحاجز . وذلك هو الترجيب فتكون في مأمن مما يمسها ؛ والمعنى : أنت مجرب للامـور .

٢) الشرب بكسر أوله : حظك من الشراب

من مغلق قاد العلا وسما الى أوج الكمال يريك رفعة شانه
فطن له فكر يحلق فـي السما نحو العلا يفتن فى طيرانه
ويغوص فى بحر البلاغة ءاتيا منه بدُر الشعر من احسانه
يا أيها المختار ياشمس الضحى وفريد هـذا الشأن فى ازمانه
انى اليك أحاكم الوزن الذى ان قلت شعرا جار فـي ميزانه
حتى اذا أرنو اليه معاتبا ياوى الى اكناف خير زمانه
السيد الشهم البليغ محمد فغدا يباوبني بحد سنانه
ومحمد مـن لا اقاوم حجـة منه ولا استطيع طعن لدانه (١)
فانا اذا قاومته قاومت من انى نزيل جنابـه ومكانـه
هل أنت تحكم بيننا بشريعة الـ ـمختار ؛ يا مختار من اقرانه
أولا؛ فانيرافع الدعوى الى (الـ ـحمراء) أو للشرق فى بغدانه
فعليك خير تحية ما مزهر غب الحيا يفتر من بستانه
وعلى بنيك ذلك النجل الأديـ ـب تحية يسمو بها من ءانه (٢)

هذا ما سمحت به القريحة . وان كانت بمـا عرفت أو لـم تعرف قريحة ؛ فليعذرنى سيدى ان قصرت ؛ فلابد من أن تقع فى مزلات رجل وان تبصرت ما تبصرت . على أن سيدى ان يصلح من نظمها ما وقع عليه . فذلك من الواجبات على نظيره ان وقع مثل هذا اليه ؛ والسلام

٢٦ رمضان ١٣٥٦ هـ

الجـواب:

الروض بالازهار لا افنانه والشعر بالافلاق لا اوزانـه
والمرء بالروح التى فى جسمه لا بالوسامـة لا ولا أردانـه
من كان يعرف فى القريض عروضه لا غـيره من رائعات بيانه
فالخمر قطعـا عنده القدح الذى يلتاح للعينـين من لمعانـه
والورد ذاك الكم فليقنع به شما متى يبدو على افنانه
لالا؛ وحق الذوق ؛ ماالشعرالبليـ ـغ سوى المحلق فى سما طيرانه
شعر اذا ما جال فى الاسماع طا ر بسامعيه بناطقات لسانه
مستحوذا برواء روعته على فنن الشعور فيستثير لآنـه
فترى الجبان المستكين يثور من تأثيره فيـه لنحو سنانه
أوليس ذا التأثير ايضا فى النثـ ـر اذا ترفع فى ذرى تبيانه

١) جمع لدن بفتح فسكون : الرمح
٢) يعنى ولدى عبد الله الذى كانت قواف الغية دارت حوله

كل تثير المرء روعتـه اذا ... طافت بلاغته على اذانـه
فلذاك يوقن ان وزن الشعر غيـ ... ـر الشعر والمكنون غير صوانه
لكنما الاوزان ألحـان تزيـ ... ـد الشعر احسانا الى احسانه
أو ما رأيت الحلق يغمر صوته ... حسنا اذا ما مد في ألحانه
لكـن ذاك المد ليس بذلك الـ ... ـستخار من صوت لدى ارنانـه
مهلا عليك أخا الخليل فان ما ... قـد قلته مـا نحن في نكرانه
حقا اذا ما المرء مـا زار العرو ... ض يزل منه الشعر في أوزانه
ما فهت الا بالحقيقة والمحا ... مي من ينص الحق في برهانه
لكنه ما الشعر وزنا وحده ... الا اذا كنا لـدى وزانـه
اما اذا كنا لدى بلغاء أهـ ... ـل الفن من رشفوا رحيق دنانه
أمثال كل الالفيين القائدى الـ ... ـشعر البليغ المنتقى بعنانه
فالشعر بعد الوزن عندهم شعو ... ر المرء يطفح من سواء جنانه
فيض يطم على الندى كأنما ... فاض العباب الغمر في طغيانه
تترنح العذبات من انشاده ... ويجيش فكر الفدم من جيشانه
ويهز أوتـار القلوب كأنـه ... نغمات معبد جس من عيدانه ١
حتى ترى من كان كزا عاد في ... اكرامه كالمزن فـي فيضانه
ما الشعر الا ما يهز سماعـه ... أهل الندى بسحره وبيانه
هذا هو القول الجدير بأن يقو ... د جميع من سمعوه في ارسانه
ايه أبا العباس انك فائز ... حقا بدر الشعر أو عقيانه
في كل يوم وثبة ترقى بها ... أفقا يكل سواك دون عنانـه ٢
دم للبلاغة والفصاحة شاعرا ... يتفجر الافلاق تحت لسانه
في ظل أستاذ بـه نلت الذى ... يعلو بـه المحظوظ فـي أقرانه
فعليك مني نفحـة عطريـة ... كنسيم روض ماس فـي ريحانه

الاخ الاستاذ أحمد بن زكرياء البعمراني :

لاتواخذني يا أخي ان تأخر جوابك فوق شهر . لانني منـذ العيـد زججت نفسي في أشغال مهمة تراكمت عليّ في رمضان . اذ كنت فيه ممن أصيب بكسله المعتاد ؛ فحين طرقتني أمس همزية الاخ الاستاذ الحسن بن علي الثلجية . هاجت مني مـا كان كامنا ؛ فتركت هذا اليوم للحقوق التي جعلت حق جوابك في راس قائمتها ؛ فهاك القصيدة على نحو ما تيسر ؛ وقد

---

١) يمنع الصرف للوزن في لفظة مَعْبَد . وهو اسم المغني العربي المشهور من قديم .

٢) العنان بالفتح: عنان السماء ؛ وهو مايبدو لك منها مرتفعا اذا نظرت اليها

ألمت فيها برأيي في الشعر ؛ فلعل ذلك أيضا يصادف منك ومن الاخوان قبولا ؛ وهاك أيضا لامية جواب الاستاذ ابن علي الذي صارت وكالته حقا . وكان الاتباع للحق أولى ؛ فقد وعدت عنك ان تتقن الخزرجية ؛ فلا تخس عهدي . ولا تذرني في ذلك الوعد في قاع صفصف ؛ فالكريم من يعد عنه صاحبه فيفي ؛ والسلام عليك أولا وءاخرا . ثم ان ما ذكرته من عدم المعين؛ فربما كان ذلك أشحذ للهمة . وأحفز للنهوض ؛ وأعظم سائق الى الاتكال على النفس ؛ فما حك جلدك مثل ظفرك ؛ فتول أنت جميع أمرك . كان الله في عونـك .

وهذا جواب لامية الاستاذ محمد بن علي على لسان هذا الاديب :

سيـدا كان بالمحامـاة أولى ... وأخا الصدق ان تيمم قولا
أنت نعم الوكيل حقا لان ار ... شدت نحو السداد من كان ضلا
ها أنذا اخوض نحو المفاعيـ ... ـل الى أن أعـود بالوزن أولى
سوف أبقى بذلك العلم أيا ... ما الى أن أحوز فيه المعلى
فأكون الفريد وحدي بهذا الـ ... ـعلم ان جبت منه حزنا وسهلا
علني أن أفوز بالشعر موزو ... نـا وبالقـول فيـه أمتن جزلا
يوم أبـدو لديكـم خزرجيا ... أقتل الوزن بالتبحر قتلا
وبليغا أجيء في الشعر والأفـ ... ـلاق فيه بما تعذر قبلا
فانظروني كي تنظروني كما تشـ ... ـهون مني أجيد عقدا وحلا
فعليكم مني سلام كما قد ... فـاح ورد الرياض اذ شم طلا

يوم الاحد ٦ ـ ١١ ـ ١٣٥٦ هـ

مع الاخ سيدي عبد الله ابن الشيخ الوالد

كتبت اليه ارتجالا وقد تأخر عن اجابة رسولي وقت افطار ؛ لانه يعلم أن ليس عندنا الآ بسيس (١) وأتاي ؛ وهو لايقنع بذلك وحده :

يـا ليت لي خبز السميـذ ... يا ليت لي العجـل الحنيـذ
فتصحب الرسـول تجـ ... ـري جري طفل للفنيذ (٢)
امـا البسيس فهـو عنـ ... ـد الاخ متروك نبيـذ
مـن يالـف الراح المعـ ... ـتقة هل يرضى النبيذ ؟

فاتي سعيا .

١٨ ـ ١١ ـ ١٣٥٧ هـ

---

١) البسيس كلمة عربية . ويقصد بها عندنا ملتوت السويق بسمن وعسل

٢) الفنيد أو الفانيذ بالذال المعجمة أو المهملة : كلمة عربت واستعملت من قديم .

وكتبت اليه منبها ذات مرة :

ان كنت قد أنسيت ما بيننا فافتتح الوصلة لله
أو كنت لم تنس فماذا الجفا أو ينفع التذكير للساهى

قرب الغروب يوم ١١ ـ ١٢ ـ ١٣٥٦ هـ

مع محمد ابن الاخ الحبيب

الذي ضيعت منه (الغ) ما كانت افادته (الحمراء) فاستوجب مني زفرة اسف

كاد محمد يرى عالما غطمطما فى علمه زاخرا
لكن ما قد كان حصله أوله ضيعه آخرا
والذنب كل الذنب من بيئة كان لديها الجاهل الفاخرا
هذى جناية لارض غدا عود العلوم عندها ناخرا

٢٠ ـ ١٢ ـ ١٣٥٨ هـ

مع الفقيه سيدي الحسن العفياني التيزنيتى

هذا الفقيه صهر لأخينا الأكبر ؛ وقد كان زارنا فى (الغ) فخاطبته بما يلى :

ازدهرت (الغ) وحق لها ؛ لما رات طلعتك ؛ الازدهار
طلعت فى آفاقها طلعة كالشمس اذ تشرق وسط النهار
فاشرق البشر وازهرت الـ ـأفراح سرا بالمنى والجهار
كانما يخضل روض الربا بسوسن ونرجس وبهار
كنا على الشوق الشديد الى اللـ ـقيا على جرف من الصبر هار
حتى أتتنا بالمنى كلها فى وقتنا هذا ظهور المهار

مرحبا بالنفس الزكية . والطلعة البهية . من خالطت بشاشة محبته ثنايا أفئدتنا ؛ ومن هو منا بمنزلة السويداء من قلوبنا ؛ الفقيه سيدى الحسن العفيانى التيزنيتى :

سلاما سلاما سلاما وألف سلام والف تحية
عليك أيا سيدا كله صفاء وود واخلاص نية

مرحبا بك أيها الضيف الجليل على ما قال الشاعر حقيقة لا ادعاء :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وقلت على لسانه بطلب منه ليقدمها الى الخليفة السلطانى بـ (تيزنيت) مولاى الحسن بن يوسف صنو مولانا صاحب الجلالة محمد الخامس أبد الله ملكــه :

ذكرك فى الافواه معسول يا من هو المنية والسول
كانما مدحك بين الورى زهر على الاغصان مطلول
يميس من يثنى عليك كما يميس من بالراح معلول
خليفة السلطان يا حسن الـ ـعوصاف من ثناه معسول
انتم بنى يوسف ءال العلا جيل تلاه فى العلا جيل
كل بنى يوسف زهر الدجا سيف على الاعداء مسلول
من الملوك الصيد نشاتكم والمجد ما ينميه تاصيل
لكن تحوز أنت من بينهم خلقا لـه الى الندى طول
والمجد برداك ويعلوك من شرفك الوهاج اكليل
وانت كالمزن الهتون ندى يا مكرم أغر بهلول
ترتاح للمجد كانك من يدنو له من الجدى سول
قد ايقنت (تيزنيت) مذ جئتها بأن كل المحل مقتول
واليت من كفيك فى أهلها ما كل فرد منه منهول
فى المدح تعريض ومثلك من يتم للعافيه تنويل

اواسط ربيع النبوى ١٣٥٧ هـ

مع الاستاذ سيدي ابرهيم بن احمد

ابن العــم

طالت المكاتبة بينى وبين هذا الاستاذ منذ الخطوة الاولى الى المنفى ثم امتدت ما شاء الله الى السنة التى انحلت فيها العقدة فراجعت (الحمرا) وربما يقع الفتور فى المكاتبة . ولكنها لم تنقطع بالكليــة . وسيسطر القلم الآن ما كان بيننا على تواريخه .

هذه هي الرسالة الاولى التى افتتح بها ما بيننا ؛ كتبتها اليه والى الاخوان من تلاميذى وأصحابى ؛ اثر النفى ؛ وبها عرفوا الى أين ذهبت بى سيارة الحكومة .

١ - (ايغرم) ؛ ظهر السبت ؛ فارقتكم في الوقت الذى رأيتم . فاذا بسيارة أمام دار الباشا مع عبدين له. فامرت بالركوب . فخرجت بنا السيارة من (الباب الجديد) وأنا اظن أننى الى المطبق ؛ فاذا بالسيارة تميل يسرة ؛ واذا بنا نسلك طريق (تارودانت) بعد أن فارقنا طريق (أمزميز) ففهمت كل شيء ؛ وعرفت الى أين يصار بى ؛ وان حظ (الـغ) من المختار ستفتح صفحته من جديد .

امضينا الطريق مع العبدين ؛ والسائق وزميله أحاديث ؛ الى أن وصلنا (تارودانت) فتسلمنى الكومندان هناك كضيف . فامر بي الى دار الاضياف؛ فوجدت بيتا جميلا ؛ وعرصة نفيسة ؛ وخرير ماء . وزقزقة عصافير فكنت أبقى مرتاح البال ؛ لو كان معى كتاب يونسنى ؛ ولكن سبق القدر ففرطت فى صحبة الكتاب ؛ على خلاف عادتى المعهودة ؛ وليس بيدى الا عدد : ٣٨ من المجلد الثانى من مجلة (الرابطة) ؛ فلا تسأل عما لقيت من العزلة والانفراد وجلاوزة المركز لم يعلموا من أنا ؛ ولكن واحدا منهم وهو صاحب الحراسة تلك الليلة ؛ فقير من أصحاب سيدى احمد التيجانى ؛ فكان - لما رآنى فقيها - يطارحنى بعض مطارحة فى الكلام ؛ مع خوفه وذبذبة لسانه ؛ فاعلنت له من أنا ؛ واننى لست بسارق ولا طرار ولا جان ؛ فأسلس بعض اسلاس . وراودته على أن ينظر لى مصحفا ؛ فاعتذر بالخوف فعذرته ؛ فبت أتململ كأننى على جمر الغضا ؛ من عدم كتاب مونس ؛ فما طرق النوم عينى الا نحو الحادية عشرة ؛ ثم أفقت فى الثانية صباح الجمعة ؛ وأنا اتقلب على حسك السعدان ؛ فصليت ؛ فاتيت بالقهوة والحريرة والاتاى - كعادتهم مع الاضياف - كما أتيت قبل بأفضل عشاء . ولو كان معى اى كتاب يقطع عنى التفكير ما أحسست بشئ ؛ فظللت يوم الجمعة كله ؛ أتمشى فى الحديقة الى العشي . فأرسل الى فقيل : ما أخرناك الا لتأخر الاوراق التى تتعلق بك من (مراكش) فها هى ذى الآن كما جاءت ؛ والآن ماذا اجترحت من (مراكش) فقلت : لا أدرى . فقيل لابد من سبب لاخراجك . فقلت : لعل السبب هو اننى لما اشتغلت بالتعليم ؛ وكثر الواردون والصادرون ؛ فوجد الحسدة ما يقولون فى ذلك . ثم كان بينى وبين مخاطبى اخذ ورد . ثم اعلمنى بأننى سأسافر صباحا الى (ايغرم) لألتقى هناك مع الأخ سيدى محمد يوم الأحد فرجعت فبت فرحا ؛ بما غمرنى من أمواج السرور والخيال ؛ فقد تصورت

انني منفرد لعشرات من المجلدات الضخمة التي طالما كنت مشتاقا اليها . وطالما تطلبت الانفراد لها قبل فلم أجده ؛ وها هو ذا المأمول أمامي فتملكني من السرور ما سامحت ذنوب الزمان كلها به ؛ فكذلك بت خير بيات . وفي أعظم حبور . كأنني بشرت بانني ساقضي حياتي كلها وأنا أتملى بين الحقول والحدائق الانيقة ؛ والذين اتلقاهم يتلقوني دائما أحسن اللقا ؛ ويضفون علي جوانبي التقبيل والاجلال ؛ لما علموا من أنا ؛ وانني من كانوا يسمعونه علما واجتهادا في بث المبادىء العليا ؛ فسبحان الله ؛ فما أعظم شأن الدين في القلوب . وما أحمق أولئك الذين يستهينون بالدين وبمكانته في امتلاك الشعور ؛ والاستيلاء على العواطف . فكان يوم السبت يوم نزهة تامة عندي طالما أتمنى أمثالها ؛ فقد وصلنا (ايغرم) عند الحادية عشرة . فحللت هناك عند فقراء سمعوا بي . فطاروا فرحا لما بصروا بي بين ظهرانيهم ؛ فهناك وجدت أن أقول ما أشاء ؛ وتيسر لي أن أكتب اليكم هذه الرسالة ؛ لتطمئنوا اطمئنانا تاما يا اخواني .

(وبعد) أفليس هذا يا سيدي ابرهيم حلا لطيفا من الله ؛ وقد عرفت المركز الذي كنا فيه أخيرا بـ (مراكش) حين أصبحنا كأننا على جذع تتقاذفه العواصف بين الامواج . فهناك أفكار مختلفة ؛ وآراء تتناطح ؛ وما كنا ندري ما نصنع وحتى أنت قد أصبحت طوال هذه السنة ـ وقد عرفت ذلك ـ لاتدري كيف تفعل . والآن طوى الله تلك الصفحة ؛ وفتح لنا أخرى ؛ فلنستقبلها بسرور .

كنت أتعجب كيف أمضي هذه السنة ؛ وكنت تحملت ثقلا عظيما كاد بسببه يفلت زمام عواطفي وثباتي من يدي ؛ وما يوم زوبعتي نحو الطلبة في المسجد الا من ذلك . يوم ثرت فيهم ابالتعنيف العجيب ؛ حتى رأوا مني ما لم يروه قط .

تقول كيف تمضي حياتك بـ (الغ) حقا ؛ ذلك سؤال ألقيته على نفسي فصرت أقلي آرائي ؛ وأعجم أعوادي حتى تراءى لي أن انفرد هناك الآن وحدي لكي أتفرغ للمطالعة . ولئلا أتحمل ثقل المؤونة وأنا صفر الراحة . لا أملك الآن الا ٣ فرنكات ونصف ؛ والزوجة تبقى عند الاخ سيدي عبد الله في (ايداوتنان) لتقرأ شيئا ما هذه السنة ؛ ريثما ننظر ما يكون ؛ وأما النظر الشزر من الالغيين فمما لابد منه ؛ ولذلك الآن فبمجرد ما تصلك الرسالة ؛ لبدوا العجاجة بلطف . وقد استودعنا الله كل الطلبة كبارا وصغارا . وليبقوا في ذمة العلم وعهده . فقد عرفوا الطرق فليسلكوها ؛ وسننت لهم السنن فليتبعوها ؛ والنتائج أمام ؛ وما اجتمعنا أمس الا لنتفرق اليوم .

الا ليظهر عمل كل فى مساعيه غدا ؛ فالى العلم الى العلم ؛ والى العمل الى العمل .

أودعكم وأودعكم جنانى ... وانثر عبرة مثل الجمان
ولو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الزمان

فأنتم يا اخوانى أمام عينى دائما ؛ ولن أنساكم :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا ... وأذكره لكل غروب شمس

ان آسف على شيء هناك فانما آسف عليكم يا أولادى . ويا حشاشات كبدى ؛ فانتم طريفى وتليدى ؛ وأنتم مفاخرى فى اليوم وفى الغد .

أنا أعلم أن هذا الفراق سيؤثر فيكم تاثيرا كبيرا . وان نأى استاذكم الذى هو عندكم كل شيء . سيبلغ منكم مبلغا عظيما . ولكن ما دمتم تقومون بما عليكم ؛ وتؤدون لشعبكم ولدينكم ما هو فرض عليكم . فان هذا الفراق كلا فراق . لابد أن نفترق اليوم ؛ لان الظروف اقتضت ذلك ؛ ولابد أن نفترق اليوم ؛ لان الظروف اقتضت ذلك . ولابد أن نجتمع غدا لان هذا الحال لايدوم ؛ وحذار حذار أن نلتقى غدا . فاذا بالبعض يدير عينيه فى حجاجيه . كالزئبق فى اليد الشلاء ؛ فان كان من لايجعل المعالى امام عينيه فنحن جميعا منه براء . أوليس كذلك أيها الاخوان ؟

وآخر وصاتى لكم أن كل من رأى منكم استعدادا لاتمام معلوماته على اى كان ؛ وفى اية كيفية ؛ وفى أى وسط تيسر ؛ وعند اى أستاذ كان . كل من فيه ذلك الاستعداد ــ وما كل رجل منكم الا فيه ذلك الاستعداد ــ ثم لم يستتم فهذا آخر معرفتى به .

وآنف من أخى لأبى وأمى ... اذا ما لم أجده من الكرام

والسلام عليكم ورحمة الله .

(أقول) ذكر لى أن هذه الرسالة أثرت فى الطلبة غاية فابكتهم احر بكاء لما قرأوها مجتمعين فى (الزاوية) .

٢ — (وكتبت اليه اثر الاجتماع الذى كان فى دار الباشا الأكلاوى وقد حضر فيه أناس يحاولون حلّ قضيتى . فكتب الىّ الاستاذ ابن العم يبشرنى فاجبته بما يلى :

الاخ الذى هو الاخ حقا سيدى ابرهيم بن احمد ؛ وعليك السلام ورحمة الله وبركته .

(أما بعد) فقد توصلت برسالتك ؛ والحمد لله على براءة الساحة . والانف أشم ؛ والعرض موفور . وأما هؤلاء الناس فلم يفاتحونى فى ذلك

الى الآن ؛ غير انهم امس ؛ ذكروا انهم قرأوا فى الجرائد الفرنسية أن وفدا توجه لفض النازلة . ذكروا ذلك للاخ ؛ لعدم ذهابى لما علمته من أن القضية قد انفضت كما اعتقد . وقد جاءنى ذلك فى طريق سرى مامون . فى الجمعة الماضية . غير هذه التى هى : ٧ من ٥ ـ ١٣٥٦ هـ ولاشك أن القضية ان شاء الله على وشك الاختتام والقلب هادىء ؛ وانما المصيبة العظيمة وفاة الاخ احمد فى ٩ ـ ٥ يوم الاحد من الاسبوع الماضى . فلا تسل عما وقع . واذا كان لك رأى فى التعزية فلا باس ان تقدم . وان كان الاولى ان تلزم مكانك حتى نلتقى هناك . وانما الذى يجب عليه القدوم : الاخ ابرهيم ؛ فان اخواتـه يتشكين كثيرا من انقطاعه . فموسم الفقراء امام ـ فليتهيا لذلك الوقت ـ واما انا ففى الوقت الذى أسرح فيه آتيكم مسرعا . والحقائب بجر بفوائد عظيمة من تاريخ (الخ) ولا أنتظر الموسم ولا غيره ؛ والاحوال كلها بخير . ولا أدرى ما اكتب اليك وراء كل هذا ؛ الا انى مشتاق الى اخوانى اشتياق الصديان الحران ؛ للماء النمير السلسبيل . فمتى أراهم ؛ بسلامة وعافية ؛ واما الكتابة فلم يعلن الى من جهتها شىء الى الآن فيها ؛ ولذلك تركنا ما كان على ما كان والسلام

ثم اننى انبهك على أن تحافظ على كل الرسائل ؛ فربما نجمعها فى الغد بحول الله .

٣ – وكتبت اليه ايضا :

اننى اكتب اليك الآن ؛ وانا فى هذه العلية التى الفت أن آوى اليها منذ تسعة أشهر . فامضى حياة هادئة ساكنة ؛ واخشى أن أقول لذيذة لئلا يطفر الفؤاد من الاضلاع . ويصيح صيحة تصك الآذان ؛ وتشق الجو ؛ ويقول: لا لا لا اننا ما ذقنا من لذة بعد أن فارقنا اخوانا علينا أعزة ؛ وأساتذة هم منا ونحن منهم بمنزلة الارواح من الاشباح ؛ لايقوم بعضها الا ببعض .

اخى . . كل ما اقوله لك : اننى اليك فى اشواق وأشواق ؛ هى كلها ـ والبين أعظم شاهد ـ حقائق لاتمت الى المجاز ولا يمت اليها ؛ وقد انقطع عنى كلامك . وآخر ما رأيته لك ليلة ؛ وقد ناولنى مناول . ولا ادرى من هو الا بعد . وقد حملت الى تلك البشارة التى تملينا بها زمنا ؛ كانما سقتنا بها ليلى على ظما بردا . ولكن جاءت أواخر رجب بما جاءت به (١) من الفتكة بالاخوان . ولا عتب على القدر .

كنت كتبت اليك منذ شهرين . ثم منـذ شهر . ولا ادرى أتوصلت بالكل أم لا ؛ واليوم اريد ان تعى منى . لأقول لك ما فى ضميرى :

---

١) وقعة (مراكش) التى اعتقل فيها اخواننا الوطنيون .

انني هنا في سكون في الظاهر . ولكنني في الباطن كما قال الله : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) لاتظن انني بذلك في جزع مقلقل وهم فادح . فقد علمت مني مـا علمت من الصلابة والاباء . حتى ان العظم لينشر بالمنشار . وانني على تجلد أظهر به كأن لم يمض على الرزء حكمه . وذلك بتوفيق الله لي لا غير .

انني وجدت في قلمي من الايناس والصبر الجميل في أنامل . مايفتح لي أبوابا كانت قبل عني مرتجة . حتى انها ما كانت أبوابها لتنفتح لي على مصراعيها لولا هذه الصدمة التي ارجو ان يجد الادباء في آثارها مما سيشاهدونه بعد دررا يغبطون بها أخاهم المختار . وقد أوفيت الآن عـلى اتمـام جزء من (الالغيات) وفيه ٢٠٠ صفحة أو أزيد . وقد احتوى على كل القصائـد التي قلتها هنا . وعلى كل ما خوطبت به من الادباء الالغيين . وما أجيبهم به ؛ فاما هذه القصائد الاخوانيات . فهي في الغالب مما لاتبتهج به النفوس غالبا ؛ من النمط الكثير التداول في هذه النواحي . وعلى هذا المنوال جاءت أجوبتي لولا بعض علو قليل . ولكنني لما حببت الي الكتابة للتاريخ وللأدب معـا . صرت أكتب كل ذلك . فما لم يصلح للثاني يصلح للأول ؛ ولكن بين ذلك طائفة من أفكاري الثائرة متى تذكرتكم ؛ أسطرها شعرا أو نثرا ـ هي على ما اخال ـ مما سيتلقاه الادب المغربي الجديد الحي ـ ان أغضى عن بعض ما فيها ـ بكلتا اليدين . ولولا بعض صفحات لما تمتلئ من الجزء . ولولا انني اريد مراجعته لتبيين حروفه . ولانتقاد ما يمكن انتقاده . لأرسلته اليك اليوم ولكن سياتيك ان شاء الله عن قريب . ثم هـذا الجزء فيه أيضـا مذكرات تخللته ؛ بحيث جاء الجزء لمن قرأه كأنه يصورني أمام عينيه من كل النواحي ثم هناك تآليف أخرى كنت ذكرتها لك قبل . . . فهذا ما أمضي به أيامي ؛ فكنت اذا قلت قصيدة أكررها وأتصور الاخوان يسمعونها مني . فالتذ سلفا بذلك التذاذا كبيرا لا يدرك عندي لولا ذلك .

ثم انني يا أخي سمعت بواقعة (الحمراء) التي احتوشت من احتوشت ممن يعزون علينا ؛ ثم ليس عندي من التفصيل الآ اسماء الـذين زجـوا بـ (ردانة) لا غير . ثم لم ادر ما وقع لهم بعد . غير اني سمعت انهم بعد ان كانوا يستخدمون كعملة ؛ أعفوا من ذلك . وأما غيرهم فلم أعرف من سجن ولاتفصيل ما وقع ؛ وانما الذي نفض الي بذلك هو الأخ لما كان هناك . وهو لم يستقص الخبر . بل هو بنفسه من أولئك الذين كانوا اسرع الناس نسيانا وزد على ذلك أنه لم يعلم الاسماء ؛ ولا كان على تفصيل من الاخبار الداخلية التي أثارت ذلك . ثم سمعت بأنه نفي أناس من (مراكش) من الفاسيين .

فهل هذا صحيح ؛ ومن هم ؟ ثم وصلت رسالة الطلبة حين فتحت الزاوية . فاعتذر الاخ عن الاجابة بانه لايدرى كيف يجيب . لان الحكومة كانت طلبت منه عند نقل ان يعين من يقوم بالمحل . فقال : انني لا اعرف أحدا . ثم قال ماذا أقول اليوم للطلبة . هاهم في المحل ؛ ولو كان هناك مسؤول بعينه . يتحمل مسؤولية المحل لكاتبته . والآ فلا أدرى ما اصنع . وقد حكى لي متشكيا انه التقى مع الاستاذ ابن فارس . فسأله هل لطلبة الزاوية مدخل في الذى يجرى . فصرح له بأن لا . قال : وذلك في (الرباط) ولم انثبت أن رأيت في اليوم بعينه . او في اليوم الثاني ان ابن فارس من المندوبين من (الحمراء) للاحتجاج عند الاقامة . والمراجع الرباطية . وقد كرر لي حديث ابن فارس متألما من أنه يشك فيه . حتى ليخفى عنه الواقع . وقال أيضا : انني سمعت في الزاوية اناشيد بحماسة . وكنت أحسب لها الف حساب ؛ لان الجو مكفهر . وهذا كله يحكيه لي خبرا لاغير . كما حكى لي أيضا عن الاخ ابرهيم أنه شاهد من عنده جماعات تقيم ضوضاء بحماسة يخاف عليه منها . وقد ذكر انه رد عليه الزيارة بعض اوروبيين زاوه . في داره ؛ فانخنس الاخ ابرهيم عن الزائر . وقال : ان الرجل ينبغي له أن يثبت أمام كل احد ويثنى على الاديب الحسن البونعماني . الرجل الصريح الذى لا يتململ .

(هذا) ما كان يحكيه لي . لكنه لايقصد به الآ انتقادات حرة لاغير . وقد حمد الله حين لم يكن في الزاوية وقت اغلاقها . لئلا يمتهن في محله . وذلك حق بلاشك ؛ والاخ هذا لم أر منه الآ خيرا واحتراما عظيما لي منذ كنت هنا ومراعاة فوق كل مراعاة ؛ فجزاه الله خيرا . واما مسالتي فليس له فيها يد . وانما تحاول الحكومة أن تجعله فيها درقة . لما أعوزها عذر نفيي .

ثم اطلب منك أن تحث الاخ أبا القاسم ليصلني في اقرب وقت ممكن؛ لأستفيد منه كل الاخبار ؛ والجو عندنا هنا هادىء كل الهدوء . ولا يتوقعن الاخ في ذلك شيئا . ولابد ولابد أن يصاحب الكنانيش التي هناك . والورقات التي قلت لك انها عند الروداني . وهي رسائل لسيدى الطاهر وغيره . وكذلك ورقات فيها اشعار لسيدى محمد بن عبد الله الالغي . وقد كنت ذكرتها لك . وقلت لك ان لم تكن عندك ولا عند الروداني . فانها عند أحد الاسفيين ؛ لانها لسيدى عبد الله بن محمد أستاذنا الالغي . وانما هي عندى وديعة . وقد سأل عنها مرارا ولا أريد بكل وجه أن تتلف ؛ وكذلك كناش قصائد التلاميذ الذى عند سيدى سالم الرحماني ؛ وكذلك رسائل بيني وبين القباج . وهي التي حملتها من طاقة الدار . فالكل لاينبغي أن لايفرط فيه . لأتوصل به لأجمعه في المذكرات . وكذلك رسائل اخرى بيني وبينه بخطي

فان لم تكن عندك . فعند سيدى الحسن الشاعر ؛ وكذلك الكراسة التى كتب فيها ابن مسعود المعدرى من أخبار سيدى سعيد المعدرى . فعهدى بها عند الاخ الكانونى . فارسلها الىّ ؛ وأطلب منك أن تستقصى كل الاخبار الواقعة هناك بـ (الحمراء) والمقياس الذى وصله الضغط وكل ما فعل . ولا تفعل مثل ما تفعل دائما فى الاختصار . فقد خرجت من (الحمراء) وجهلت كل ما وقع بعدى على التفصيل الذى أريده . ونحن فى الحقيقة لاينقصنا الاّ الخبز لا غير . وأما الشغل الذى به تطيب الحياة . فنحن أوجدناه لأنفسنا . وهذا أخوك الذى يقدم عليكم عنده كل الخبر . وأما الولد عبد الله . فقد ازداد عندنا ٢٣ شعبان . وأما اليأس من الرجوع فلم يستول على الفؤاد . وأما هذا الانتحار الذى نحن فيه حتى تقاطعنا فمما لاينبغى تماما . فاننا لسنا بمجرمين ؛ حتى يصل بنا الحال هذا . فيجب عليك أن تتصل هناك مع بعض المعاريف . ممن يعرف أخاك هنا . فتتكاتب معه ؛ ومعى بواسطته . وقد ذاكرته فى ذلك ؛ وخبر الطلبة لا أدرى كيف هو . ولا ما وصلت اليه حالتهم فاما شوقى فقد سمعت انه ذهب الى (تونس) وان أخاه ممن احتوش فى الواقعة عرضا ؛ واما الروداني الاديب . فقد سمعت انه فى مدرسة بـ (البيضاء) كما ان الشاعر التنانى فى مكتب جديد بـ (الحمراء) وأما الاخ سالم الوفى وسيدى ابن فارس . وسيدى ابن المعلم . فهم بالزاوية ؛ ولا أدرى أكثر من هذا ؛ ولا أدرى كيف سيدى عبد الله المسفيوى ولا سيدى محمد بن الطالب الدكالى . ولا ابن القائد ولا البزيويون ولا عرفة ؛ ولا عبد القادر بنانى ؛ والدفالى ولا الزيتونى والتيزكينى والدكالى الاخير . وكل الطلبة . فاننى لا أدرى ما جرى لهم ؛ ولا الطريقة التى سلكوها . وكذلك لا أدرى ما حال الزاوية بعد فتحها . أرجع اليها التلاميذ كلهم ؛ وذلك ما استبعده . أو البعض .

ثم ان الديون التى علىّ من كل ما كنت قيدته لك أول يوم . لا أدرى هل تادى الجميع أو البعض ؛ لانك لم تبين لى قط (١) وقد رأيت أن الاخ الكانونى يطبع كتابا . فان تم فخذ لى منه نسخة ؛ كما أريد أجزاء تاريخ القاضى المطبوعة على سبيل العارية من الخزانة التى فى الزاوية .

وأما حالتى المالية فعلى خير ؛ وقد تمشيت دائما باقتصاد ما أمكن . ويمكن أن يبقى عندى الآن احتياطى لابأس به ؛ والقدر الذى قدرته يكفينى لكل أسبوع ٢٥ فرنكا ؛ فيكون مثل ذلك فى أسابيع الشهر الاربعة : (١٢٠) هكذا ولا أدرى كيف يمكن لنا تيسر ذلك ؛ ليطمئن البال . ولا أدرى

---

١) كانت الديون خمسمائة ريال ؛ فاكتتب لها الاخوان فقضيت اثر نفيى.

كيف أنت والاخ ابرهيم ؛ ومن اليكم ؛ هل يمكن لكم ذلك ؛ وكثيرا ما احب أن ياتى ذلك على يد ذلك الذى فى (البيضاء) وعلى كل حال انتم أدرى ؛ ثم احب منك أن تذاكر سيدى (فلانا) هل يمكن أن يحرث عبرة او عبرتين ؛ ثم يشترى له ذلك بكل ما امكن . بل لاباس أن يتذاكر مع الذين أحرث معهم حين كنت هناك ليحرث كل ما تيسر له بلا تكليف ؛ ولا أدرى كيف الشويهات عند عم سيدى سالم ؛ وهل ماتت بهذه السنة أو بقيت ؛ وكذلك عند الفقير سيدى بريك فى (الصهريج) فى (المنابهة) ولو كان ذلك لايزال بعضه باقيا لكان أولى أن يباع منه بعض فيحرث منه على انفراد ؛ هكذا بلا ضوضاء ؛ ومن غير أن يعرف ذلك ؛ ولكن مع كل هذا ؛ فالشاهد يرى ما لايرى الغائب ؛ وأسلم على سيدى عثمان المطاعى أتم السلام ؛ وأبشره بتمام المراد من تلميذه ابن الحبيب فقد أتم السلكة الثالثة ؛ وصحح سوره عند طالب نجد ؛ وساشتغل معه فى العربية والدروس الاخرى . فتكلها ارامها ولدا ؛ وليسأل أيضا هو بدوره عن بعض رؤوس من الغنم عند (فلان) فى بلده ؛ أمات الجميع أم بقى البعض .

(وبعد) فلا أدرى الآن جو (مراكش) وأطلب منك أن تلاقى مولاى الحسن بن عبد الحفيظ ؛ وتسلم منى عليه سلاما طيبا عطرا ؛ وتنوب عنى فى التعزية فى أبيه ؛ وان تتلاقى مع صهره الباشا ادريس منو ؛ وتسلم منى عليه . ولتساله عن الحالة ؛ وعما يمكن أن يفعله هو الآن ؛ ولكنك أنت لم تبين لى ما كان قال الباشا الاكلاوى فى الجلسة التى وعد فيها برجعى ؛ وما هى الذنوب التى ينسبها لى ؛ لأننى لا أعرف أفكاره من جهتى على الحقيقة ؛ ولذلك أسأل المذكور عن كل هذا ؛ وخصوصا بعد أن سجن الزعماء ؛ وبكل أسف لم أعرف عنهم الا ما نشر فى عدد ٢١ شعبان من (السعادة) وهذا شهر او اكثر ؛ وليس عندنا من خبر عما كان ؛ والزعماء حقا هم الذين ينبغى أن يتاسف عليهم . وأما مثلى . فحاله سهل . ما على مثله تتأسف الامة .

(وبعد) فالاهم الاكيد أن ياتى أبو القاسم ليصلنى ؛ اذ ازداد عندى ولد ؛ ولابد ؛ ولابد ؛ ولابد . وان ياتينى بالكنانيش المتقدمة . وبما ذكر . وبالاخبار كلها . وليصنع كما كان صنع قبل ؛ بحيث لايعرف أحد أين ذهب ويعلم الله شوقى اليكم ؛ وكثيرا ما اجتمع معكم فى المنام . وان كتبت الى فاكتب لى بالتفصيل التام ؛ واخبرنى عن كل أحد ؛ حتى (فلان) وشماتته حين وقع بالاخوان ماوقع . وعن الكانونى . وعن الفاضل ابن الموقت . فانه رايته وطنيا . فقلت عجبا ؛ آذكر لى كل شئ ؛ ولاتترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصيتها ؛ ولا تياسوا ان نرجع كما كنا :

وما انا من أن يجمع الله شملنا على خير مـا كنا عليه بـآيس فواشوقاه الى ذلك اليوم . ووداعا أيها الاخوان وداعا . وأسلم على الأخ : ابرهيم ؛ والاستاذ الشاعر ؛ وكل من اليكـم ؛ والعاقل لايكره المصائب . لان فيها من جلاء القلوب ما فيها . افدنى أخبار سيدى السعيـد الفاسى ؛ ومولاى أحمد المنجرة . وجميع أمثالهما .

ليلة : ٢٢ ـ رمضان : ١٣٥٦ هـ

٤ – وكتبت اليه أيضا حوالى هذا التاريخ :

لازائد على ما تعهده من الانتظار . ولعل هذه العطلة التى التحق فيها المستخدمون بالمصطافات فى (أوربا) هى التى اخرت الامر . ولكننى مع ذلك استفدت من هذا التأخر ما لاتحلم به من الفوائد الجمة . وستقولون غدا ان الحكومة تستحق الجزاء الأوفى على هذا النفى الذى أحيا موات (سوس) وأظهر منه أفذاذا كانوا مغمورين فى غفلة التاريخ . على ان أعظم من يغتبط بذلك : المؤرخ الكانونى ؛ الذى يقدر التاريخ قدره ؛ ولذلك أوه هذه البطاقة وأوصه بالكتمان حتى يتم الامر . وهاك قصيدتين ؛ اقرأهما انت ومن اليك ممن يطوى ذلك اليوم ؛ وليس ما فيهما من التحزن الآ اتباعا لمسلك الشعر فى هذا المقام . والآ فاننى فى بهجة وسرور ؛ وان كانت بعض نوبات تقع فى من كثرة الشوق الى اخوانى وأصحابى وأودائى ؛ فبكائى كله انما هو لذلك وكفى ؛ واسلم واسلم . وحذف المعمول يوذن بالعموم ؛ وهناك قصائد أخرى . والى اللقاء ان شاْ الله . فان الشاعرية قد راجعتنى من جديـد ؛ حين غربت عنى الفقهيات الثقيلة . وان كانت شاعرية غير سارة .

فى كل ليلة أكون لديكم فأرى اخوانى ويروننى . وأشاهد من زملائى ما أتصوره فى اليقظة ؛ ولم أنس أى واحد من كل من عرفته . سواء مـن الطلبة ومن غيرهم ؛ وهذه الليلة التى مرت بى ؛ والتى أصبحت عن اليوم ؛ رأيت كأنى ناقشت فيها الاستاذ سيدى عبد القادر ؛ وسيدى عبد الجليل ؛ وسيدى محمدا الكانونى وآخرين . وليت شعرى أيكونون فى المنام كما أنا ؛ أم اكتفوا بجهودهم فى اليقظة . وقد قرأت كل ما نشر عنى أو غالبه الى ما يقارب شهرا أو شهرين ؛ ثم لم أر شيئا بعد . والاخ محمد قد تأثر حين راجع الطلبة الزاوية بغير اذنه ؛ وقدم ذلك الى الحكومة خوف أن تتهمه بمد يده الى ذلك ؛ ويا ليت الطلبة اعلموه بذلك حين المراجعة ؛ ومركزه هو هنا صعب . خوف أن ينزلق مع الحكومة . أو تظن به ذلك ؛ وانى لمشتاق الى مولاى عبد الله وشاعر الحمراء الجديد عبـد القادر ؛ والملاخ وجميـع اخوانـى ؛ والروداني ؛ وابن فارس ؛ وكل واحد واحد . ولا أحتاج الى أن أتتبع أسماءهم

واما شوقى المغربى فحدث عن البحر ولا حرج ؛ وقد ابطأت عنى الاخبار ؛ وربما سمعت أن الاخ محمدا سيتوجه الى تلك الجهة ليصاحب ولده عليا الى (الرباط) فليعد له الطلبة جوابا ملائما ؛ وليعتذروا له ؛ بانهم يظنون ان الامر لايحتاج الى استيذان ؛ وليقابلوه بملاطفة ؛ ولا يتهموه بشيء فانه لايد له فى كل ما كان الآ انه مهتم من غير شيء ؛ وان أمكنك انت ان تتملص منه ادبا معه فذلك أولى ؛ والسلام

٥ – وكتبت اليه أيضا فيما يقارب هذا التاريخ :

وعليك أذكى التحية وأطيب السلام ؛ وقد قرأت رسالتك كلها من أولها الى آخرها ؛ فاجيبك بان المقيم لم يرسل الىّ الى الآن ؛ وانما أرسل الىّ يوما فى أواخر صفر المراقب الذى فى (تافراوت) فسألنى بلطافة متناهية عن أعمالى ؛ فبينتها له بكل جراءة وتثبت ؛ مع مراعاة المقام ؛ فكان مما قلت له : اننى لا اقوم الآ ببث العلم ؛ ولا أشتغل بما سوى ذلك ؛ فقال لى : أتعرف علالا ؟ فقلت له نعم : انه كان قرينى فى الدراسة ؛ كما كان غيره من العلماء المنبثين فى (المغرب) فبينى وبين الجميع معرفة . فمنهم أساتذتى ومنهم قرنائى . وأنا لست بنكرة فى (المغرب) لما لعائلتى أولا ؛ ولما لى ثانيا؛ فقال : أهذا اذن هو سبب هذه الصيحات الصارخة من الجرائد الوطنية . فتجاهلت فقلت له : كيف ؟ فقال : ان هناك صرخات حولك ؛ فقلت له : وماذا يقال عنى ؛ فهل اشتغل بغير ما أقول لكم ؛ وهل هناك من الوطنيين أو غيرهم من صرح بأننى اشتغل بغير ما اقول ؟ فكان الجواب : ان الباشا لايمكن أن ينفيك لو لم تصنع شيئا . ثم ضحك المراقب . وقال : أو انك لاتعطى للباشا الدراهم ؛ فقلت له : حتى الباشا لم أسمع عنه قبل عنى الآ خيرا . وكل ما هنالك اننى ارسل يوما الىّ فنفيت بغتة . ثم دارت الاحاديث مع تبسمات ؛ فكأن الجلسة ليست برسمية ؛ ثم قال لى : ان الكولونيل يطلب منك أن تقيد له فى رق ما كنت ذكرته له فى (ايغرم) فذهبت الى مكتب . فحررت انه لاشغل لى الآ العلم فقط ؛ ومنذ أن مهدت طريق مستقبل ؛ عزمت على قصر عمرى على بثه . وهذا عملى فيما مضى ؛ وهو أيضا العمل الذى أنوى أن امضى عليه مستقبلا ؛ هذا مضمن ما كتبت

ثم أرسل الىّ أيضا ؛ فتلاقيت هناك مع الكولونيل الذى كان بـ(تارودانت) وهو أكبر ممن فى (تافراوت) فدخلت عليه وحدى ؛ فقال لى : كنت أنوى أن تكتب حين امرت بالكتب ذلك النهار ما كنت قلت لى فى اليوم الاول من انك لاتمشى الآ فى طريق الحكومة ؛ فقلت له حقا ؛ قلت ذلك ؛ وقصدى أن الحكومة التى تبث العلم . وتحب الهدوء . أسير أنا فى طريقها ؛ فهذه

سريرتي ؛ وهذه أعمال علانيتي ؛ ثم وجدت المقام لائقا بتقديم شكواى . لكن باللفظ فقط ؛ فقلت له : انني لا أقدر على هذه البلاد بأى وجه ؛ وأنا تربيت في الحضر . وجميع لوازم حياتي هناك ؛ وداري أيضا التي بنيتها بيدي . ثم قلت له : بالله ماذا تطلب مني الحكومة . ومن أى قانون تجد أن تعمد الى رجل هادىء مثلي ؛ يشهد العالم ؛ وكل من يعرفه أنه لايد له فيما ترميه به ثم تنفيه هكذا ؛ فقال : أنا لم ارتكب شيئا ؛ فالباشا والوزير فقط هما اللذان فعلا هذا . ثم نافثته ما شاء الله ؛ ووجدت مقاما أرد به ما كان قابلني به أولا في أول مجلس في (ايغرم) حيث وقفت أمامه وهو يملي كأنه يملي على ابن عبد الكريم ويعنف ؛ ويقوم ويقعد . وسمعت منه ما سيعلمه التاريخ ولكنني سكت ؛ فقلت له أخيرا : أنا لا أكذبك ولا أكذب الحكومة في كل ما قلت . ولكن المستقبل كشاف ؛ ذلك كله بفظاظة وغلظة ؛ حتى كأنني أحسب أن كوجي ومن اليه وصوه علىّ ليقتص مني . ولكنني اليوم في هذه الجلسة الاخيرة ؛ برزت أمامه كما أنا . والذي فهمته من أحاديثه أنه يدور على أن أقبل التوظف مع الحكومة ؛ فتنحل المسألة بسلام ؛ فيزج المختار في غمار الشياه البلهاء التي يقودها الجزار . وهي تسلس له الى حيث تزهق أرواحها وهذا كل ما طرأ علينا ؛ وهذه ثلاثة شهور مضت . ولم أدر الى الآن ما موقف الباشا من المسألة ؛ أهو يناوئني مناوأة عنيفة أم لا ؛ وايا كان أرى أن الاولى أن يترك الامر لله وحده . ففيه الكفاية . والشاهد يرى ما لا يرى الغائب

ثم ما حثثت عليه يا سيدى ابن العم من الاشتغال بتاريخ هذه البلاد فابشر بانني جمعت في هذه الشهور ؛ ما سيحمد القارىء معه هذه الغربة ؛ ويعلم ان الله ما أجرى هذه المقدمات الا لتلك النتيجة . حتى أصبحت أخاف ان يؤذن لي في الرجوع قبل أن أشبع نهمتي من ذلك ؛ وما ذلك لحرصي على البقاء وراءكم ؛ ولا انني أهوى أن استبدل بكم غيركم . فتيقنوا أن المختار مختاركم . والمحيا محياكم ؛ والممات مماتكم ان شاء الله ؛ ولكن فوائد العلم لها ما لها . والفرص تفوت . والواجب انتهاز الفرص دائما .

واما مسألة الاقتصاد . فانك تعلم أخاك من أنه اذا تعشى لايهتم بالغداء ؛ واذا ملك الغداء . لايسأل عن العشاء . فالله هو الكفيل بالرزق و (السبعون) قد وصلت . وستكفينا ان شاء الله شهرين فاكثر ؛ ان لم يفرج الله ؛ ولكن عسى أن يكون الفرج قريبا . والاخوان جميعا أراهم دائما في كل منام . وأما هؤلاء الذين أنا معهم ؛ فبيني وبينهم ما بين السماء والارض . الا ما كان من المظاهر . فانهم يجلونني ويحترمونني ؛ خصوصا حيث أعليتم لي هذا الشأن الذي بلغ صداه هذه الجبال .

(وبعد) فاعلم أنه لاينبغى ان تطلع على هذه احدا الا ما كان من مولاى عبد الله والمسفيوى والشاعر الجديد عبد القادر والملاخ؛ بشرط ان لايتعرضوا للكتابة حول اية نقطة من نقطها فى الكتابة ؛ فان ذلك كله سرى . ولاينبغى أن يخرج ؛ ومتى خرج فانهم يعرفون ان ذلك منى ؛ فنقع فيما لايحمد . وطالما سئلت ؛ الى يد فيما يكتب عنى ؟ فأقول لهم الحقيقة التى هى : اننى لا أدرى من يكتبه فضلا عن أن تكون لى يد . والسلام عليكم ورحمة الله .

٦ - وكتبت اليه فى : جمادى الاولى ١٣٥٧ هـ :

لا أدرى كيف ابث اليك أشواقى ؛ ولا كيف أصور لك ما تنطوى عليه أضلاعى من لواعج اليك تلهبها . وخوالج مستكنة انت قطب اهتمامها .

تطلع الشمس وتغيب ؛ وتتعاقب الانهر والليالى ؛ وتمر شهور فشهور وما أضمه لك ولكل الاخوان الذين تضمهم معك البهجة . لايزداد الا شدة اوار ؛ وتزايدا يتموج كما يتموج حباب الماء ؛ يوم تختلف الاعاصير بالدأماء وقد أكفهر الجو . وازبد العباب . وتلاطمت الامواج بالبحار .

ايه ستة عشر شهرا مضت . وهى مظنة تراجع الفؤاد . ممن كان وده عرضا لم ينبعث عن شعور حار ؛ ولا تبجست به الاعماق . ولكن فؤادى أبى عليه اخلاصه الذى جبل عليه . الا أن يستديم تلك الشعلة التى اندلعت منه بغتة يوم اقلتنى السيارة ضحى يـوم ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٥ هـ ثم ما زادته تقلبات الاحوال من رجاء الى يأس . ومن يأس الى رجا . الا لهفا لايدرى صداه انقشاعا ؛ ولا يجد اليه التناسى من سبيل .

اننى أعلم أن كثيرين مـن الذين كنت لهم وكانـوا لى هناك ؛ لابد ان يتحولوا بعد هذه الاحوال المتغيرة طرائق قددا . فتجد منهم من نفض يده من اخلائه ؛ والقى امسه وأصحابه فيه دبر اذنيه ؛ ثم أقبل على حياة جديدة فى يومه . يستجد لها افكارا جديدة . واخلاء واصحابا جددا ؛ فانساه ما جعله اليوم نصب عينيه تلك الصحبة الماضية ؛ وأولئك الاخلاء الذين جعجع بهم الدهر ؛ فكسف أنوارهم ؛ وآفل اقمارهم . وجعل محافلهم والمنتديات التى يعتادونها كأن لم تغن بالامس ؛ فهذا ما لابد أن يصير اليه فريق ممن خلفتهم ورائى ؛ وما أكثر هؤلاء الاخلاط الامزاج من بين من يصبحك ويمسيك ؛ ممن يدعون أخوتك . ويملأون ما حضرت بثنائهم مسامعك . ثم سرعان ما ينسونك ان فارقتهم لحظة ؛ ويكون ازاءهم فريق آخر ؛ ياليتهم يجعلون الانسان نسيا منسيا مثل هؤلاء . فيريحون ويرتاحون ؛ ولكن يأبى لهم ما جبلوا عليه من الخيانة الا أن يتقلبوا مع الدهر عليك . ويحولوا من صفاتك ما كانوا بالوداد الماضى تلمسه أيديهم باعجاب واجلال . كما يلمس الحاج استار البيت الحرام

الديباجية باعجاب واجلال . فيتتبعون ما كانوا يعرفونه منك . ويخلصون اليه من ذات نفسك ؛ تتبع الشحيح المسيك جوانب الطريق . وقد ضاع فى تربه خاتمه . وربما كان ما يستنبطون به اليوم لك منه المثالب . هو بعينه ما كان أمس موضع اجلالهم لك ؛ ومستنبط عبقريتك عندهم . ودليلهم الوحيد على انك من أفذاذ زمانك . وما أكثر تقلب الاخوان يوم ينقلب الزمان .

وأما الفريق الثالث الذى يعرف كيف الاخلاص ويكون لأخيه فى غيبته أكثر مما يكون له فى حضرته ؛ ويعض بالنواجذ على الاخاء يوم يمسك الدهر بصرفه . كما كانوا أو أشد ؛ يوم يلحظك السعد بطرفه . فهم لعمر ابيك فى كل جيل كبيض الانوق ؛ وكالابلق العقوق ؛ ولكن ما دام هذا الفريق يضم أمثالك وامثال الخانجى (١) وابن عبد الله بن عمر (٢) وأبى زيد (٣) الراجع الى مستقره . وأبى الغالى (٤) وصاحبه (٥) العجمى . وافراد امثالكم ممن تأبى لهم اصالتهم الا أن يبرهنوا على أنهم ممن خلقوا من الوفاء المعلن والمكنون . على حين أن الناس كلهم من الحما المسنون . مادام هذا الفريق يمثله نظراؤكم المصطفون الاخيار . فان فى الزوايا خبايا . وان فى فم من يزعم أن أهل الصفاء قد انقضوا التراب .

منذ ليال لا أنام الا معكم . فنهارى هنا . ولكن لا أكاد أغمض عينى حتى انفتل الى مصافحتكم . فارى فلانا وفلانا . فهذه حالتى . فلينظر كل واحد منكم حالته فى مثل ذلك الحين ؛ ليعلم : أيجارى اخلاصى وتعلقى ووفائى؛ أم اننى على كل حال من السابقين .

عيشى هنا أخضر ؛ ووقتى فسيح ؛ ودفاترى تتكفل لى بمناجاة مختلف طبقات من أجيال وأعصار ؛ فلولا ما ينتاب قلبى من الذكريات ؛ لقلت : اننى أبو عبادة البحترى فى منبج ؛ القائل فيه :

لا أنسين زمنا لديك مهذبا وظلال عيش كان عندك سجسج
فى نعمة أوطنتها وأقمت فى أفيائها فكأننى فى منبج (٦)

ولكن لى قلبا حيا طفارا ؛ لايعرف التسلى بغيركم ؛ ولا يرى فى التفكر فى سواكم حلاوة . يستمد منها طلاوة الحياة .

ان الدهر قلب ؛ ودوام الحال من المحال . وما فاز بالعقبى الا من تدرع بالصبر . وصادم حوادث الدهر بقلب من فولاذ . فكما ان تلك الحال التى اغتبطنا بها ثمانى سنوات لم تدم . كذلك هذه الحال نحن فيها الآن أيضا

---

١) على بن المعلم ٢) سالم بن يعيش ٣) عبد الرحمن بن فارس
٤) المنجرة ٥) العربى بنيس ٦) منبج : كمجلس

لاتدوم . ولئن عشنا لنلتقين يوما ما ان شاء الله . ولكن اذا أضاع انسان منا هذه الايام ؛ ولم يزدد فيها ما كنا تعارفنا بسببه من المعارف . فما اكثر خجله يوم نلتقي غدا بحول الله .

لا أزال أتذكر ما كنت كتبت به بعد مغادرتي اياكم في تلك الرسالة رقم ١ ما معناه : (اننا اليوم لابد ان نفترق . وفي الغد ان شاء الله لابد أن نجتمع ؛ ولينظر كل واحد ما يقدمه في ذلك المنتدى الذى سيجمعنا غدا بحول الله . من معارف مستجدة ؛ ومآثر خالدة . فان الخيبة كل الخيبة لمن لاقيناه ولاقانا . حين تنكشف الحال عن رسوبه . وعن خلو يده من هذه الامنيات التى هي ما يتمناه السعداء)

الحوادث للاحرار . كالمشاحذ للصوارم . فكما ان الصارم لايزداد بالمشحذ الا صرامة على صرامة . كذلك الحر الأبى الذى يعرف من أين تؤكل الكتف . لايزداد بالحادث الا مضاء وعلو همة . ومعرفة تحمله على أن لايفرط في أية لحظة من لحظات دهره .

الله موجود . وقدره وحده هو الذى يدير دولاب الاكوان ؛ فما للعبد وان أوتى ما أوتى من حصافة ومقدرة . الا أن يعترف بذلك ؛ وان يجعله نصب عينيه . ثم يقبل على مـا يجعله القدر من متناول يده ؛ وكان ممكنا . فيفرغ فيه جهده ؛ مقدما للاقرب فالاقرب. فلايتطلب البعيد ؛ فيذهب بلاشك سعيه هباء . ولا يتعلق بالمحال - وان كان عاديا - فيصطدم وما تنهال بـه أمانيه في ساعة ؛ وربما يكون ممن يقضي عليهم اليأس . فيرتكس في الحافرة فيشك في كل شيء ؛ حتى يشك في عقله أولا . ثم في خالقه ثانيا ؛ وهـو لو تأمل ما أتاه ما أتاه الا من عدم تعلقه بالممكن الاقرب ؛ وتطاوله الى الأبعد أو الى المستحيل . فطالب العلم لاينتظر منه دائما الا ان يكون صاحب علم أولا ؛ مع كل ما لذلك من اخلاص وشجاعة أدبية . ثم ان كان بعد ذلك في جبلته شيء آخر ؛ ومقدرة أخرى . فستستولى عليه هي بنفسها ؛ فتدفعه الى ميدان آخر . قد ينجح فيه ثانيا ؛ كما ينجح أولا في ميدان علمه ؛ وقد يخيب . ثم لاملامة عليه في خيبته . واما ان ينفض طالب العلم يده من استثمار معلوماته ؛ خصوصا بعدما شدا فيها . فانها والله من أول رزايا الامة . وما هي أعظم الرزايا اذا لم تكنها خيبة الامة في أبنائها المستعدين لخوض المعارك ثم لم ينفعوها باستثمار معارفهم ؛ وهل تنتفع الامم بغير المعارف ؟

فكرة جرت اليها البراعة . يحملني عليها أنني أعرف هنالك من كانت لهم مقدرة في أن يستثمروا ؛ ثم فترت هممهم . فاندمجوا في الجاهلين الذين لايدرون ما وراء الاكمة ؛ فيعيبون على شاب اليوم ان يجلس الى شيخ امس

ثم يلهج بلكنته وعدم اتقانه . ولايعرف المسكين : ان الانسان اذا كان لك معينا فهو على ذلك وحده مشكور ؛ وان العاقل يتبلغ بما تيسر كيفما كان . وفي المثل العربي : (كلّ الحذاء يحتذى الحافي الوقع) ؛ وفي مثلنا اليوم : (الاعمش خير من الاعمى ؛ والابقع خير من الاسود كله)

ان قلبي ليتفطر على ابنائي هناك ؛ أكثر مما يتفطر على ما جرى لي ؛ لأنني - ولا أكذب الله ؛ ولا أكفر نعمه - في بلهنية عيش ؛ وظل ظليل من الهدوء ؛ فلئن حرمت مواصلة اخواني - وهي كل مصدر الاماني - فانني صابر محتسب . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

اما أنت فكيف أنت . واما أنا فقد التزمت هنا الانزواء أكثر مما كنت فوجدت في ذلك راحة وطمأنينة ؛ وقد حملني على ذلك حوامل ؛ بعضها من المراجع العليا - وذلك لا بأس به - وبعضها ما اخترته لنفسي ؛ وربما يطرقك من الأفواه كلام حول ذلك . فلا يهولنك ؛ فما ذلك الا انني سئلت عمن الاقيه ويلاقيني . ثم قيل لي : ان ألسنة أهل هذه البلاد طويلة .. وربما ان اكثرت ملاقاتهم تتقول عنك ؛ فان استطعت الانقباض فهو اولى . هذا هو كل ما كان فبنيت انا على ذلك ؛ وقد كان في نيتي ان لا التقي بعد بأحد . لامن الواردين ولا من الصادرين . فوجدت رحمة كبرى ؛ لان الناس كالحجر . ما اخطاك منهم أحسن مما أصابك ؛ ولا ينبغي أن يفشى هذا هناك . وكذلك المكاتبة معي . واما ما كان مع الصنو فقد وصل ؛ ومعه تاليف الخانجي . وكذلك ما مع أخي الاخير (٤٠) وكذلك ما في ذيل كتاب أبي الغالي . لأعدمنا ذيوله (١) فقد كشفت اذذاك غمة أية غمة ؛ وأنا اسلك سبيل الاقتصاد . وان خطر عندك صنوك فاصحبه بالقلم العجر والبجر . وليدعها هنا عنده ؛ حتى يعرف كيف يمكنني منها ؛ فانني اخترت ايضا أن لا أتوصل بأى شيء الا تحت طرف خفي جدا ؛ ومجمل الخبر انني ما دمت مالكا ما أنفق فلا بأس ؛ واما من هناك فالاولى أن لايعرفوا من تفاصيل ما عندي شيئا ؛ وذلك هو الاولى واجتهد في ذيل الكناش المعلوم في ادراج كل ما راج في القضيــة ؛ ومتى وجدت أمينا فوصله اليّ . ولا أخالك تجد مثل صنوك . متى ورد عليـك . ولكن وصه ان يكون من يده ليدي ؛ فليذكر لمحمد بن الحبيب ذلك ؛ فانا أعرف كيف أصنع ؛ واياك ان تتشوش من جهتي ؛ فانني بخير كثير ؛ وولدى عبد الله بخير . واياك أن تؤخر عني كتابتك الطويلة مع صنوك . فانني الى الآن لم أعرف كيف أحوال كل من هنالك . خصوصا من زاروا المطبـق ؛ أما الخزانة في الزاوية فالاولى أن لاتفرطوا فيها بما ظهر لك . وينبغي أن تأخذ آراء من كانوا شاركوك في أمرها يوم قالوا ما قالوا . فان كتب التاريخ

---

١) دس أوراقا مالية في أحد دفتي الكتاب .

منها قد توقفت عليها جدا ؛ فلا مونس لي سواها .

لابد أن تخرج نسخة من الكناش جيدة ؛ ولا يطلعن عليه مطلع . لان العيون عندكم ؛ كما هي في الحقيقة علي هنا .

أنا محتاج الى آثار لك أدبية اما وصفية أو غيرها لأجعلها في ترجمتك كما احتاج الى مثل ذلك للصنو ابرهيم ؛ فقسم الالغيين في الكتاب قد خرج كله في مجلد ضخم جدا . وأنا الآن في أشياخهم ؛ وقد يسر الله من ذلك ما فوق الحسبان ؛ وأمره لايزال سرا ؛ بل ذلك أولى الى ان تنفرج الازمة . لان الحساد دائما ما أكثرهم . وبسببهم انزويت لا غير .

وهاك جواب سيدي ادريس منتو ؛ ونبهه على أن لايعرف أحد بـه . واخبره بخبرنا ؛ وان رأس الخيط هناك ؛ وان من هنا انما هم مستخدمون . ومتى سمعوا مني شكوى يا مروني بالصبر ؛ والامر في الحقيقة ليس في أيديهم ؛ وهؤلاء يسيئون بي الظن ـ كما يظهر لي أكثر ممن هناك ـ على اننا لانتطلب الفرج الا من الله . وانما الاسباب لابد من تعاطيها .

٧ - وكتبت اليه أيضا في ٢٦ ـ ٧ ـ ١٣٥٩ هـ :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم   رب ذكرى قربت نزحا

الاستاذ المحترم الجليل ابو سالم الذي اعتنق التجارة المادية ؛ في الحاضرة العلمية ؛ عوض ان يعانق فيها التجارة العلمية . عليك من السلام مقدار ما في ضميري اليك من الاشواق .

ايه ؛ ألم يئن ليراعك ان يتحرك نحوي بعد . فقد مضت سنتان ونيف وانت ملق ظهريا الالتفات ؛ كأنك تنفذ فعلا ما يتمناه الدهر الخؤون من شت الشمل . ونسيان ما لايمكن أن ينسى أو تناسيه على الاقل ؛ فقد زرت مرتين صنوك سيدي محمدا في (حاحة) وكان في الامكان ـ لو شئت ـ ان تحرر ما تشاء كما تشاء ؛ وكنت الى ذلك في أشواق طافحة . ولكن لم تفعل . واعيذك أن لايكون لذلك الا عذر قوي . لايغض معه البصر . ولايتلجلج عند التحدث به اللسان . والحق ابلج والباطل لجلج .

كان يجب أن لاتدع فرصة الا وكتبت فيها ؛ كما يفعل غيرك ممن تعرف ؛ كأنك لاتعرف ان للقلم أثرا لايجهل في توطيد ما كان ثابت الاساس وما الاقلام في الحقيقة الا امثال الاقدام . لاسيما في مثل هذه الظروف .

كنت دائما أتتبع حركاتك وتنقلاتك . وما كنت أجهل بعض الاعذار التي ستدلي بها أمام هذه الدعوى التي ترفع عليك ؛ ولكن أوكل عذر مقبول ؟ فقد فقدنا كل شيء مما نستمد منه قوة العزيمة . الا ما كان من سطور نقرأها

من بعض أمثالك ؛ الاخوان المخلصين الذين كان اخاؤنا معهم غير مبنى على جرف هار .

ما أشد فرحي حين لم يمسك ما مس المبعدين عن (القرويين) من الطلبة الذين كنت منهم قبل أن تتجر ؛ وقلت ان لطف الخفى لايفارق الانسان فى كل أحواله . وهو الرحيم الشفيق ؛ والآ فكيف يكون الحال لو تكرر ثانيا بك ما كان دوره ممثلا بى منذ سنوات .

ان يوم اللقاء لعله أقرب مما نظن . فقد زال الكابوس عن الصدور . وتبدت تباشير الفرج . وما الفرج الآ تيسر لقياك ؛ ولقيا كل الاخوان البررة الذين لن أنسى لهم ما يقومون به نحوى ؛ من كل ما فى طوقهم . واذذاك اظفر برؤية الحاج ابن داود (١) المخلص الذى هو ما هو عندى بين كل سكان تلك الحضرة .

ثم أنهي اليك شيئا يسرك الى الغاية ؛ وهو اننى فى اتساع حال دائما منذ فارقتكم ؛ فقد انفتحت أبواب وأبواب ؛ حتى كنت فى حالة ورفاهية فوق ما تظن . بين قوم يتوجسون اننى استخدم الجنة .

(وبعد) فما أعظم فرحي يوم أقرأ منك ما يدل على أنك تضرب الرقم العالى ؛ فى الوفاء لأخيك الذى يعقد دائما الخناصر على أنك بلا ريب منه فى طليعة الوافين . وآلاف السلام على جلدة ما بين العين والانف (٢) ؛ وشريكك ابن أبى سليمان وقل له : لم يبق الآ أن يهيىء لنا عشاء طيبا . فربما ننزل عليه عن قريب ظنا ـ فقط ـ لا رسميا

لا أزال متمسكا بمبدأى . ومعرضا عن أى قيد وان كان مذهبا ؛ ولا أزال منتظرا ما رأس عنانه ربما كان من تلك الجهة ؛ ان اقتضت الفرصة طلب ارجاع امثالى ؛ وهل أنا الآ منهم . وان لم أكن ذا عمل معهم يراه الناس فأنا مسلم وطنى لاسياسى وطنى ؛ فوطنيتى من اسلامى . لا ان اسلامى من وطنيتى. فليفهم التاريخ أن المختار للمعارف والهدوء لا للسياسة والعراك .

٨ - ثم كتب الىّ :

لئن كان هذا البين منذ زمان ... فللقلب نحو القلب أى تدان

---

١) رزئنا هذا الاخ فى هذه السنة ١٣٨٢ هـ بصدمة من سيارته فى (فاس) رحمه الله .

٢) سالم الذى قيل فى سميه :

يديروننى فى سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والانف سالم

انتى لفى شوق عظيم الى اللحاق بكم . لولا ما يحول بيننا وبين ذلك من مهامه فيح ؛ ولولا ما أوعزت به حتى نضج ما نضج . وفرش ما فرش . وكان ما كان ؛ من أكواب موضوعة ؛ ونمارق مصفوفة ؛ وزرابى مبثوثة (١) فهل لابن نبى الله (٢) ان يحظى. ولشبله زين العابدين الذى يشنف أسماعنا فى كل عشية بنغمة طفيلة بريئة من شعركم :

الحـــق حـــق وفيـــه أحيـــا والقى الحمـامـا
فـان اعش فمحـــق وان أمـــت فـلامـا
ومـا أبـالى اذا مـا حسنت ربـى الختـاما

ان يفوز بالمثول امام شخصيتكم . وان ياخذ بحظ وافر من أدبكم الفائق ؛ ومن دروسكم التى تحيى الشعور ؛ ونكهرب الذكى كزين العابدين . لاحرمنا الله واياه من ذلك .

سيـــــدى :

ايقظت ما نومه (٣) الدهر الغاشم . وأحييت ما كاد يندثر من تراثكم العظيم ؛ فلله درك من آس . بل من أب يعرف كيف يكهرب أفـلاذ كبده . حتى لاتنطفىء تلكم الروح التى تسرى فى الجسد ؛ فاذا هى منتعشة حية يقظة آئبة الى الطريق اللاحب ؛ بعد أن جمحت بها أفراس الصبا ورواحله فطغت وسيطرت عليها المادة . فاخرجتها من سيرتها . فنسيت أو كـادت ما كان يهزها . لتلتحـق بالملأ الأعلى ؛ ولكن الله يرحمهـا بكم وبعطفكم ؛ فلبراعكم الذى تبثون اليه فى خلوتكم ما كنتم تضمرون لأولادكم . وما تكنه صدوركم من عطف وحنان من شكرنا الجميل . اننا لنعد ما كان يسرى الينا من بنات افكاركم ؛ من الكنوز التى يجب علينا ان نحتفظ عليها . لتكون لنا دستورا ومرجعا يوقظنا من سباتنا ؛ كلما احسسنا بذلك الشعور تاخذه سنة الغفلة . وأيضا فللتاريخ منه القدح المعلى ؛ والحظ الأوفى ؛ فاليكم ثانيا يرجع الفضل فـى تاكيدكم لنا عـلى المحافظة على ذلك ونحن على العهد . ان العهد كان مسؤولا .

طالما حاولت أن ابث لكم ما فى سويداء قلبى من صداقة متينة . وحب خالص الاخاء المتزايد الذى لاتزيده الايام الا رسوخا . والعواصف الا ثباتا وكيف لا . ونحن من ابنائكم البررة . فهل تخالوننا نتخبط فى عقوقكم .

---

١) يشير الى الحرب الحاضرة التى سقط فيها عدونا الألد
٢) ابن داود الفاسى
٣) يقصد ما كتبته عن تاريخ (سوس) مع ما أكتبه من الرسائل الى الاخوان

جاهلين ان : لنفثات الاقلام ما لايجهل قدره أديب . وانها تجعل ما كان بين القلوب قوى الاركان . ثابت الاساس ؛ وتعبر عما في الضمائر . وما تكنه حول من لها حاولت وحاولت ؛ ولكن أنسى ذلك ؛ والدهر ذو غلظة حينا وذو لين :

هو الدهر يأبى ان أنال مراميا ويبغي اعتسافا ان يشد وثاقيا

الى آخرهـــا .

هذا مطلع قطعة خاطبت بها جلدة ما بين العين والانف (سالما) في العطلة الصيفية الماضية . وقد غادرني معافى ؛ ثم اعتراني من بعد مرض لم أجد معه من يمد الي يد المساعدة ؛ وأنا في بيته بالمدرسة ؛ الى أن أتاني ابن داود . ففرجت الكربة . أثبتها في هذه الرسالة اليك ؛ بعد أن عصرت فكرتي الآن لشيء جديد ؛ فلم تطعني ؛ لانه سيطر عليها ما كانت به مشغولة مما يتعلق بالدكان التجارى ؛ محا منها أو كاد ما كان من تراثها القديم ؛ لولا أنك نبهتنا وايقظتنا لاندثر كل شيء .

ان تلميذكم (سالما) ليبعث اليكم تحية قلبية متمنيا لو ساعده الحظ أن يمثل بين ايديكم . وأبو الغالى ومن اليه كذلك ؛ ويسلم الشاعر الثانى الذى رفع راية الشعر اليوم بـ (الحمراء) وهو يتقلب في وظيفته التي اغتبط فيها بعد محن وشدائد عند باشا (الحمراء) وهى وظيفة اعجب بها لما فيها من دراهم وافية . ولما كان يسدى اليه من احسان زائد على وظيفته ؛ وهو وشاعر (الحمراء) مقترنان لايفترقان . وها هو ذا يرجو منكم دعاء .

وأما أنا فبخير وعلى خير لله الحمد . لا أفارق ابن داود ؛ وكل منا مغتبط بصاحبه ؛ وما زال يتذكر كلمتك مخاطبا له : يا فلان استقللت بفلان - تعنيني - ويتعجب من ذلك . وما من يوم الا ويذكر ذلك . فسبحان الله . وسيدى سالم فى السنة الخامسة من القسم الثانوى ؛ وسينتقل فى العطلة المقبلة ان شاء الله الى السادسة ؛ وهو الذى كلل بالنجاح بين التلاميذ الذين اخذوا عنكم . ويسلم عليكم الاديب الردانى الموظف بـ (البيضاء) وسأكتب اليكم فيما بعد ان شاء الله .

١٨ - ١٢ - ١٣٥٩ هـ

٩ - وكتبت اليه أيضا :

بدا انهم وفوا وقد كذب الخـال وانهم المـاء المرقرق لا آل

ايه : فالحمد لله الذى بلغنى المنية بعد سنوات ؛ واجنانى الظفر بعد مصادمات عنيفة بهذا الهجر المشنوء الغير المنتظر ؛ فها أولا نحن اليوم كأن لم يكن انتظار ؛ وكأن لم يكن هجر؛ وقد تلاقينا بالارواح . وتعانقنا بالمراسلة

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة   اذا كان من بعد الفراق تلاق

ظللت النهار كله أتلو رسالتك مرة بعد مرة . حتى تنبهت الىَّ ربة الدار فقالت : أتريد أن تحفظ هذه الرسالة التي تعيدها هكذا منذ الصباح الى هذا المساء . فقلت لها : انني أبرد بها غلة كانت تتلظى منذ ثلاث سنوات ؛ فما أعيد قراءتها الآن وأحس بالبرودة تتمشى في كبدى تمشى النهار فى حواشي الليل بعد انبثاق الفجر ؛ أولست تدرين أنها لابرهيم بن أحمد خير من كان صاحبا وفيا . وخليلا مصافيا ؛ وقرينا معاونا . والفا كانت حياتى مع حياته فى احقاب كالماء والراح بعد شعشعة الكؤوس .

لم أبت الليلة ـ يشهد الله ـ بالفرح الهائل . فقد كنت أتلو الرسالة حينا . وأرسل فكرى حينا ؛ استسيغ اللذة التى أحس بها في أعماق قلبي. فهل ما أجده الآن فوق ما يجده الصديان الضال فى المهامه حين يقع على دليل مونس معه ماء عذب زلال . يكرع فيه بكل ما فى مستطاعه ؛ ولم اغف الآن فى السحر قليلا . ثم انفتلت مع الفجر على عادتي ؛ فعادت الحالة الى هذا العشي. فان لم تكن هذه هى الكهرباء التى تسرى بالكتابة على القراطيس من قلب الى قلب ؛ فلا أدرى ما هى .

وقفت هنيهة الآن أتصور دارا فاسية مزلجة مفروشة بالاثاث الفاسى ؛ وفى جانب منها المذياع يجلس حوله تحت أشعة الكهرباء ابرهيم بن أحمد ومحمد بن داود وجلدة ما بين العينين والانف (سالم) ويقفز بين أيديهم : زين العابدين ؛ فذهب فكرى فى ذلك . حتى كأننى أرى الحقيقة لا الخيال . وكأنى اسمع زين العابدين ينشد :

الحق حق وفيه   أحيا والقى الحماما

الى آخرها .

استولى علىَّ الفكر مليا . ثم انتبهت الى اتمام الرسالة ؛ فكأن الاقدار أرادت أن تقسم لى مما سيكون ان شاء الله لهؤلاء الاخوة فى مثل تلك الدار من الابتهاج حين يتوصلون بهذه الرسالة ؛ فأفاض لى من ذلك سلفا سجالا انتشى بها فى هذه الغرفة البدوية ؛ وابنى عبد الله يلاعب الدواة . ويطل أحيانا على ما أكتب . كأنه يعرف ما أكتب ؛ ويدرك معانيه .

أشكر الله كثيرا على هذا القلب الذى بين جنبى . فانه ألوف عشاق ليس بملال . مما يضرب به المثل فى الوفاء بفضل الله . فانه طوال هذه الغربة لايزال فى يقظتى ومنامى يصور لى كل اخوانى واحدا واحدا . ثم لايزيده تطاول العهد الآن رقة احساس . ولطف شعور . وتوقد التذكر ؛ ومتى حام حوله ما ربما يكفكف عنانه . فانه لايلبث أن ينـدلق الى جـوه ؛

فيسيح هائما ملقيا وراء كل ما يكفكفه . كما وصفت ذلك فى قصيدة . كنت قلتها ازاء نصيحة أسداها لى أحد من الىّ فى هذا المنتأى . يلقى الىّ ان أحمد الله حين لم أكن من أهل المطبق فى (ردانة) أو ممن يهددون بوباء ما بين : ٥٦ ـ ١٣٥٧ هـ فلم ألبث ان زفرت هذه الزفرة . فقلت القصيدة التى مطلعها ـ وقد تقدمت ـ :

يقولون شكرا اذ خرجت من(الحمرا) ولم تك ممن ذاق فى مطبق ضرا

كان ذلك فى تلك الايام الحالكة التى لم تتمخض بعد عن هذا الفجر النير الذى يفىء فى الافق . واما بعد طلوعه . ومتوع أنواره . فانتى عدت من الصوفية الذين عبر الشيخ الوالد رحمه الله عن ذوقهم فى هذا الباب بقوله :

ولى مذهب فى العشق منفردا به فلست ملونا بوجد ولا فقد
قد امتزجت روحى بروح احبتى فلا وصل فى قرب ولافصل فى بعد
فمن شاء فليفصل ومن شاء فليصل فحالى لم تحل عن الود والعهد

(وبعد) فالحمد لله على سلامة أحوالكم . وحفظكم حتى هدأت تلك الزوابع . وقد اختار الله لكم باعتناقكم ما أنتم فيه . فقد قال ابن عمر : ما مقام أحب أن يجدنى فيه الموت كالتجارة . أقضى نحبى على ذلول بين جبلين أضرب فى أرض الله ابتغاء فضله . أو كما قال : واما تأسفك على ترك مزاولة العلم . فان الجمع لك ممكن بحسب الطاقة ؛ بحيث تجالس وتباحث وتراجع وتماشى من يحبب اليهم ذلك ؛ وخصوصا فى عاصمة العلم التى يكاد تاجرها الامى يشارك علماءها الباحثين فى ابحاثهم . فكيف بك وانت أنت . فلا أراك الله الجهل الذى أحس به يحوم حولى ؛ بابتعادى عن أمثال أولئك الباحثين . فاين تلك الاستحضارات . واين تلك العبارات . ولو رجعت اليوم الى أصحابى لتعجبوا من رجوعى فى الحافرة ونسيانى كثيرا مما كنت أتدفق به عليهم من صدر مجلس الدرس . وماذا عسى أن يصنع الوحيد الذى لايجد كل ما يريد من الكتب ومن المذاكرين . أيصير بعد سنوات الآن مثلى ؛ فهذه خمسون شهرا ولت عن اخيك فى هذه الحالة . فكيف تحسبه يكون وهو ذاك المنخرم الذاكرة دائما ؛ فلولا التعهد بينكم قبل النفى لما كان شيئا مذكورا. وحين غاب التعهد غاب كل شىء . ولله الامر من قبل ومن بعد ؛ آمنا بالله وبتصاريف أقداره .

لا ارى فى كل ما ذكرته لى عن حالك الشخصى الآن ما يسرنى . غير انه يجب عليك أن تخرج من العزوبة ؛ بقدر السرعة الممكنة . والمرء فقيه نفسه أو تريد أن تنتظر انقشاع السحب .

بالنواجذ ؛ فطالما رأيته في منامي في أشواق حارة . فمتى أراه كذلك في اليقظة ؛

هكذا أدباء (الرميلة) ـ ١ ـ التناني ـ ٢ ـ البونعماني ـ ٣ ـ عرفة ـ ٤ ـ أبو سالم نزيل (تطوان) ـ ٥ ـ أبو سالم التاجر بـ (فاس) ـ ٦ ـ عبد الحي البزيوى ـ ٧ ـ الرداني ـ ٨ ـ أحمد شوقي ـ ٩ ـ عثمان المطاعي ـ ١٠ ـ محمد بن العربي الاسفي ؛ وغيرهم ممن ساروا على الدرب فوصلوا . كانوا كلهم على قلب واحد . ثم ضربهم الدهر ضرباته . فلم يبق في أفئدتهم الا هوى يلتاع كلما هبت نسمات الحمى ؛ أو لمع بارق الاراك . حتى عبد القادر حسن وفي غاية الوفاء ؛ ولم ينس صاحبه الغريب . ووصلتنا اذ ذاك المبنية على الصفاء ما كانت لتنغل بها القلوب بالنسيان وان تطاول البين ؛ فحياه الله مع اخوانه وبياه .

لندع القدر يفعل بنا ما أراد . ولنعض بالاسنان على الازدياد في الكروع من المعارف ؛ فذلك هو الذى يبقى ؛ وهو الذى يقدمه كل واحد منا غدا لأمته ولأصحابه يوم يتوب الدهر . فيجتمع الشمل ثانيا .

كنت كتبت اليك مرات ؛ آخرها رسالة حوالى الاضحى باقتراح الصنو عبد الله ؛ ذكرت لك فيها أن ترسل لى الاول من (المترعات) ولكن لا ذكر له في الرسالة . ولعلك ما اتصلت بالرسالة ؛ والآن لابد أن يصل الكتاب الى صنوك بـ (حاحة) ولابد . كما لابد أن تنظر رسائل كنت كتبتها الى الاخ القباج . ثم استعرتها منه . فتركتها في الدار . فكانت مما جمعتموه اذذاك . فانها مهياة لمؤلف ينتظرها (نضائد الديباج ؛ في المراسلات بين المختار والقبـــاج)

أخوك رزق في ـ ٩ ـ المحرم ١٣٦٠ هـ بولد ثان سماه سعيدا ؛ أنبته الله نباتا حسنا . وهو في أنعم متسعة . مملوء الجيب ببركتكم جميعـا . لا استثنى منكم احدا أيا كان . فكلكم ساهم بما في وسعه . فجزيتم خيرا . وما أنا الا خادمكم في العلم امس واليوم والغد أيضا ان شاء الله . وما ذلك على الله بعزيز .

(وبعد) فقد أسديت الى يا ابن العم يدا لاتنسى لك منذ تعارفنا حتى افترقنا . وان أردت أن لاتزال تسديها الى . فلا تنقطع منــك الرسائل . حتى يأمر بجمع الشمل من يده فوق كل يد . فانني لأجد في كلام أحدكم ما لا أجده في الهدايا الجمة الخالية من متع الروح . وأنا من تعرفونهم عشاقا لمتعة الروح أكثر من متع الاشباح .

أصافحك من بعيد . وأصافح ابن داود . وولدي النجيب سالما وكل من يسايركم ويداخلكم . ولا أدري هل تبلغ سلاما عطرا يملأ ما بين السماء والارض للعلامة العزوف سيدي العابد ابن الوزير سيدي عبد الله الفاسي . فانه من لم انسه ولم أنس ما بيني وبينه . فكثيرا ما أراه في منامي . وهناك كثيرون احييهم بقلبي الآن الى أن تتهيأ الفرصة لأرسل تحية تلج الآذان بلا استئذان والسلام .

٨ ـ ٢ ـ ١٣٦٠ هـ

١٠ - وكتبت اليه ايضا :

الاثنين ٢٥ ـ ١ ـ ١٣٦٢ هـ

واعظم ما يكون الشوق يوما اذا دنت الديار من الديار

لاها الله ما نحن بتاركيك يا أبا سالم . وان تناسيتنا بعد مغادرتنا في (الغ) فلم نر بعد لك أثرا من رسالة ؛ كأنما اختتمت الاشواق بذلك الفراق العجيب الذي تشهد له تلك الليلة البيضاء المقمرة ؛ التي جاء فجرها بسفرك عنا .

أكتب اليك من (السويرة) (بالسين؛ لاكان جهل من امثالك ايها العلامة) وانا اكاد اطير بأجنحة الاشواق . الآخذة بالاطواق

ها انذا غدا في (الحمراء) ـ رغم ما ذكرتها به ـ فان للحمراء في السويداء مكانة لاتصلها البيضاء ولا الصفراء . لانها كانت أمس ملتقى الاحباب . ومثابة الافكار . ومدرج أبناء القلب ؛ ثم بعد أنوي ان أزوركم فتهيأ أنت والشيخ سالم . والتاجر الميمون لقضاء أسمار لذيذة معكم في قبة سي ابرهيم ـ لا غيرها ـ وأقبِّل من بعيد كل أبناء التاجر البررة ؛ والبلد بخير الآ مايشهد به كل من هناك بانك سريع النسيان لـ (الغ) وطواجينه ولبنه وكسكسه ؛ وسعيده وصنوه . فليعافك من تناسي اودائك من ابتلاك.

١١ - وكتبت اليه ايضا في ٢٦ ـ ٤ ـ ١٣٦٣ هـ :

الاستاذ الكبير ابن العم

لقد رئمت الخمول . وألفت الركود . حتى القيت من بالك ذكريات اخوانك القاء . والآ فمالك قد فصمت العقدة . ونبذت ظهريا المكاتبة ؛ فهذا عام تام تصرم . وانت ساكن القلم ؛ فكأنما بين الاقلام وأناملك ما كان في مبدأ هذه الحرب الضروس ما بين (سكفريد) وخط (ماجينو)

ايه ؛ فها أنذا في (الغ) ثانيا . فقد نفيت نفسي بنفسي . ورأيت ما افضى اليه اخرا . فصيرت الاخر أولا . وقلت بيدي لابيد عمرو

(وبعد) أفلا تحلم بزيارتنا . أم هدأت فورة اشتياقك . وركدت زعازع نوازع نفسك . فهنيئا لمن يملك بين جنبيه قلبا سرعان ما ينسى أوداءه . ويكون من نصيبه في هذه الحياة أن لايتذكر . ما دامت الذكرى تحوجه الى أعمال قلم أو نقل قدم . واما نحن فلم نملك في هذه الدنيا الا قلوبا تواقة . وأنفسا نزاعة . وعيونا لاتقر حدقها حتى تشاهد أوداءها . أو تحس ركزا منهم . اما من وراء يراع . أو من أحلام معسولة . يستمسك بها الذما .

فكيف الاستاذ سالم ؛ فانني أهنيـه باحراز الحصل من الامتحـان . وبالتتوج باكليل الغار . فقد رزق ما حرمه كثير من اخوانه المنبوذين فـي عراء الجهالات . أو سقاهم القدر كأسا دهاقا من الحمام . وأعزيكم في الاستاذ ابن فارس . فيالها من درة ضائعة . ومعارف رمست فـي أعمـاق الثرى ؛ فكاننا جميعا بتلك الكأس شاربون ؛ وفي ذلك المضجع ممتدون . ختم الله على الجميع بالخير . وكيف التاجر الصدوق اخونا ابن داود وأنجاله الكرام . وكذلك كل من هناك :

(وبعد) فجوابا مسهبا أيها الاخ ؛ واذكر كل شيء . والحامل يرجع بالجواب . وان تيسر طيب كالند فلا بأس . واذكر عجرك وبجرك .

وقد افتتحت لأولاد الاخوة العربية ؛ أتلهى بذلك ؛ ريثما أجول جولة سوسية أخرى . وعبد الله وسعيد يسلمان عليكم .

١٢ - وكتبت اليه أيضا :

هذا فما هذا التقاطع . ألم أكتب اليك بالمراسلة من (البيضاء) أم لعل الرسالة لم تصلك . فكيف أنت وكيف الاستاذ سالم . وكيف التاجر الارضى ابن داود . فقد اشتقنا الى الجميع ؛ وقد جلت جولة الى (أكادير) فـ (ردانة) أخيرا . ثم استقررت بالبلد ؛ وقد ازداد ولد سميناه عبد العزيز ؛ فهكـذا يتكون الأولاد . ولكن اين واجب التعليم . فلعبد الله الآن زهاء ثماني سنوات ولما يتقدم ولو شوطا واحدا ؛ وكيف وكيف وكيف ؛ والاحوال كما ترى : ولما يتيسر لنا الانتقال الى الحاضرة التي قد يوجد فيها شيء ما . وهذا الغلا المفرط ؛ لايتأتى معه مفارقة الأولاد . فكيف ظهر لك . وأما أحوالي فبخير كثيرا . فقد أبت يوم الحادثة (١) - كما تعلم - فلزمت كني . وقد بحث عني سرا بحثا بالغا . ولم يظهر لهم شيئا مما يريدون . ولا مانع يظهر من اسفاري ولا من نقلتي الى (الحمراء) الا الغلا المفرط . أفاترك بلدة يتيسر فيها كل شيء لي خاصة على الاقل . فازج نفسي فـي محل آخر علـى العكس . الا ان

---

١) يوم طلب الاستقلال سنة ١٩٤٤ م

الاخوان يعوزون . فلا جليس كما تعلم . فاجبني بكل شيء، وبما سمعت يوم الحادثة حين وازنت بين الاقدام بين المقدمين . وبين النكوص الى أهل الغرباء . فترجح لي ما فعلت . فاكتب اليّ مع الحامل بكل شيء . وافض اليّ بحالتك المالية وبما في نيتك في المستقبل . وياليتك زرت البلد عن قريب . أو لعل هناك مانعا لا أعرفه من جانبك فقط . فاين وصل سالم . بل أين ذلك المؤلف الذي نسخناه من كتاب الشيخ عبد الحي . فاني لم أجد بين الكتب التي وردت من (فاس) اذ ذاك . وقد كتبت لك عنه . فلم ار لك جوابا . وماذا فعلت من الزواج بالفاسيات . أو لاتزال تغلط في الخضريات . فافعلوا مثلي تلقوا روحا وريحانا وجنة نعيم . ان تيسر لكم مثل ما تيسر لي بالاتكال على الله . فالله يختار لك (١) فسلم مني على كل فاسي محب ممن عرفناهم قديما او حديثا . ولابد أن تخبرني عن حالتك المالية وقدرها . فلعلك تحتاج الى ما تحت يدي فانني لك اليوم كما كنت لي أمس . ودعنا نضرب مثلا شرودا للاخوة الصافية الدائمة ؛ وما أشوقني الى العلم في كل ميادينه . اما بطبع الكتب . واما بمثل ذلك مما هو حركة دائمة تحتاج الى المراجعة . فلا حياة الا بالعلم لامثالنا ؛ فأخوك ما خلق الا للعلم وللاخاء الصافي لا للسياسة التي لاحظ لي فيها الا كراهة المستعمرين . أدامها الله في قلبي الى يوم الدين .

١٧ - ربيع الاول ١٣٦٤ هـ

١٣ - وكتبت اليه أيضا :

(هذا) فلا أدري هل أكتب اليك أيضا . أو الاولى أن أكتب لمن لايجيب الرسائل . فلا يرد التحية بمثلها . فضلا عن أن يرد بأحسن منها ؛ فلا عذر يقبل في هذا الا عند المغفلين الذين يفقدون التمييز ؛ فلولا قلب يعرف من اخلاص قلب آخر بين جنبين هناك . لما حركت سوادا في بياض . ولكن كهرباء القلوب لايضغط عليها . رغم كل اخلال بأدب الاخوة والتعارف والرحم

ايه ؛ دعنا من هذا . فلسنا الآن في صدد العتاب . فلندعه الى اللقاء القريب ان شاء الله . حيث يتعاون اللسان والقرص واللكمات وربما والركلات أيضا . في جنب التاجر الفاسي . الذي بلغنا - ولا ندري مقدار ما لذلك من صحة - انه اقترن بفاسية . يا سلام ! يا سلام ! يا سلام ! فقد تذكرت ما يقال من المثل الشائع عند الفاسيين : ("شَلَّحْ الَّ تبلَّد بحَلْ اكْوال التجلَّد) فان صح الخبر؛ فليسعد الله الاقتران . وليبارك فيه . وليبسر الله الرزق الواسع . والذرية المباركة الطيبة . وليعاون الله

١) اختار الله له في أخت ابن داود أفضل سيدة يغبط عليها .

من سقط فى البيئة التى تهرب منها اليوسى . كما ذكره فى رسالته المعروفة الى مولاى اسمعيل ؛ حين تعرض لما صارت امرأته تتطلبه منه يوم سكن فى (فاس) وصارت تتعود رفاهية الفاسيات . وبودى لو اتسع الوقت ان أكتب اليك أيها الاخ رسالة فى الموضوع تكون آية للآخرين . وعبرة للقارئين

لندع هذه المباسطة التى لاتجدى فى الواقع شيئا . فكيف الاخ وحالته التجارية . وكيف الاخ التاجر ابن داود . وكيف الاخ التاجر بنانى الرجل الصالح ؛ فان من يقف فى أمثال مواقفه لرجل ما مثله رجل . وهل الرجولة الآ فى سعى شأن المستضعفين . وفى الاخذ بايديهم ؛ فهذا عندى أفضل من (فلان) و (فلان) وأقرانهما المثرين .

فكيف (فاس) وحياتها وغلاؤها وفكرتها وضيق دروبها وسعة علمها. وكيف كل من تعرفهم هناك اذذاك . فقد بقيت فى ذاكرتى لبعض من تعرفت بهم فى تلك الايام صورة وضاءة ؛ خصوصا لبعض النشء الذكى الذى يعوزه من يأخذ بيده الى الادب الذى يلهج به . فوا أسفا لأمثاله فى كل حواضر (المغرب)

ايه ؛ فاين ما انتسخناه من فهرس الييبوركى . فانه بقى هناك بلاريب وقد كتبت اليك به مرارا فلم أره . ولعله لا يضيع . مع اننا لاقينا ما لاقينا فى انتساخه كما علمت .

وأما اخبارى الحقيقية فاستمعها . فاننى أقضى أياما معسولة لطيفة بين اليراع والدواة . وبين مناغاة سعيد . وصنوه الصغير عبد العزيز . الذى ازداد عندنا منذ ستة أشهر ؛ والمادة مبسوطة . وأولياء الامر فى المركز لايزالون يمدوننى بالمواد التى يتوقف عليها الناس فى هذه الاوقات الصعبة وذلك من غير طلب منى . كأنهم يرون ان انزوائى هنا أفضل لهم . أم يريدون ان يظهروا لى شكرهم فى عدم المشاركة فيما تعلم . لما أشربوه من اننى واننى مما ادخله فى روعهم ادخالا امثال المرحوم المراكشى . وايا كان . فانا أفهم عن الله . وأعرف أن الله ييسرنى للتى هى أحسن . وانه يريدنى فى الوقت الحاضر لما أنا فيه . والانسان مسيّر لامخير . ونطلب الله أن لايفعل بنا الا خيرا . وان يجعلنا دائما آلة نافعة للامة فى أى جهة أراد . فان تعجب فاعجب لتلك الرؤيا التى رأيتها فى (الحمراء) قبل الواقعة . فكانت هى السبب الحقيقى حتى غادرت المدن . فلما وقع ما وقع وجدنى الحال فى مكان بعيد عنها ولولا ذلك لكان شىء آخر . هذا هو السبب الحقيقى . واما غيره فانما هو ثانوى فقط .

(هذا) وقد زرت (تارودانت) في الشتاء الماضي . فكتبت رحلة رابعة مملوءة بالفوائد السوسية . وأنا ابتهج كثيرا بعمل هذا . فالله يتمه بخير ويجلعه عملا مقبولا (١)

(وبعد) فهذه الحرب قد وضع الشطر الذى يلينا منها اوزاره . ويوتى الىّ أن الذى يمنعنى الآن من مراجعة الحواضر هو هذه المسغبة الحالية . ولكن أحب أن اقدم الطلب بعد رمضان . للتهييء للنقلة . فما رأيك ؛ فزن الامر بعين الحقيقة . وارم عنك بعض الاوهام التى اعرف أنها قد تلم بك أحيانا . فانني هنا غريب ؛ لا أجد لى عملا الا ما انا فيه ؛ ويعوزنى الجليس الممتع . والعالم المفيد . والصاحب المستفيد . والمثيل المذاكر . وكل هؤلاء يوجدون فى الحواضر . وأما العمل الذى سأشتغل به هناك . فلندعه لله يختاره لنا . فانني موقن ان الله يرحم دائما عبده . ولا يسلمه ابدا ما دام مستمسكا به ومتوكلا عليه . فان القاء ما يمكن من دروس عامة أحيى بها علمى والاقبال على المطالعة شغل عندى عظيم . وأخال ذلك يتيسر فى كل وقت . وقد كان الباشا فى (مراكش) حثنى على الرجوع فى السنة الماضية . ثم لما كان ما كان، انتظرت حتى انقشع الغيم الآن. وأحسب أن الوقت قد كرب . أمعن فى كل هذا وأجبنى ؛ فانت أنت فى نظرى دائما مرآة لى صافية . والرائد لايكذب أهلـه .

(وبعد) فكيف الاستاذ سالم . فهل حاز الشهادة النهائية . وبودى أن أراه الآن ؛ كما انني احب له أن يتقدم الى الامام . فيظهر فى قبيلته أو فى (مراكش) وكذلك كل اخوانه هناك ؛ فلعلهم ينجحون جميعا .

فهذا أخوك يزورك يحمل اليك الخبر العام عن البلد . وان كان لايعرف من اخبارى الخاصة الا قليلا جدا . لانني وان سكنت بين ظهرانيهم غريب عنهم . ولا غربة ألبستى فى (بست)

وأودعك الآن . وأنا فى انتظار رجوع الاخ . ولعله ياتينى بجواب مفعم بكل ما يمكن ان تقوله . فقبل عنى ولد ابن داود . وصافح عنى كل من يسأل ؛ والى اللقاء القريب ان شاء الله .

٢٨ شعبان ١٣٦٤ هـ

١٤ - وكتبت اليه أيضا :

(هذا) فقد توصلت برسائلك فى وقت سعيد . ولو عرفت كيف أتأثر برسائلك لما قطعتها . وقد عرفت أنك اعتذرت بشىء لعلك لم تفهمه حق الفهم حين لاتكتب . أتدرى ما هو : انه جمود العاطفة . وهو وصف ملازم

---

١) هذه الرحلات الاربعة مطبوعة باسم (خلال جزولة)

لابناء الحضر خصوصا بعض الفاسيين . وأعيذك بالله أن تعتذر بعد . بل تؤدي الواجب كما ينبغي لمثلك .

وأما مجيئك الى (تمانار) فتيقن أن ذلك ـ والله أعلم ـ أفضل لك اليوم . فما المانع أن تنتقل اليها . ريثما يظهر جديد ؛ وأما التجارة فانك عرفت طرقها . فمتى استقامت الحالة راجعتها . ان لم يكتب لك أن تكون من رجال الافادة والارشاد والتعليم .

ويسوءني ما أصاب الاخ واهله من المرض . شفى الله الجميع . وسلم مني عليهم ولا أدرى ما يمنعك من زيارتنا . وأما نيتي فلا يمكن أن تعرفها تماما الا بالللقاء ان شاء الله . وأما نقلتي باهلي الآن . فذلك لم يجل في خلدي ؛ بل أنوى أن أهيىء للسنة المقبلة ان شاء الله . وفي القصد أن انتهج انتهاجا آخر في افادة الناس . سنتذاكر فيه بحول الله بعد . ولاتدع اجابتي في الحين ؛ ولعلني أسافر من هنا عن قريب ان شاء الله والسلام

٤ شوال ١٣٦٤ هـ

مع سيدي سالم الرحماني النجيب

هذا الشاب من أوائل التلاميذ الذين اتصلوا بي نحو ١٣٤٩ هـ ثم لم يزل ملازمي وهو يترقى في المبادىء . ويتدرج في المدارك . وهو يتمتع باخلاق هينة لينة ؛ لاتجد اليها العجرفة ولا العنجهية من سبيل . ولعمري انه مع مقاساته كل ما يقاسيه تلميذ من تغلب عليه حرارة المزاج . لا أجد الآن ما أقوله عنه من جهتي . ولا استحضر عنه الا كل تجلة وحسن أدب . وأمثاله قليلون من العشرات الذين كانوا يستديرون معه حولي . واما مقياسه في النجابة . فقد كان طبيعيا . ولولا ان ذاكرته تخونه كثيرا ؛ لكان له شأن أعلى من شأنه اليوم. غير ان اكبابه وامعانه واجتهاده الكثير . وملازمته لدروسه هيأت له من التفوق ما له بين أقرانه .

له والد مشغوف بأن يتخرج منه له عالم . يحل الصدور من المجالس . فما يضن عليه بكل ما يتوقف عليه سيره الدراسي . فكان له ذلك أكبر معين على ملازمة دروسه . ولم يصبه ما أصاب كثيرين من النجباء الذين خلفناهم وراءنا من حص الريش . وصفر الراحة . فاخلدوا الى سبل الجهالة مرغمين. أما هو فانه اتصل بـ (القرويين) بعدى . فانخرط في النظام . وها هو ذا اليوم في طليعة النجباء في تلك الكلية .

كان يخطب بين ايدينا في فرص . فكنت أتراءى منه خطيبا لوذعيا . كما كان يخط ببنانه انشاء حسنا . فانتظر منه كاتبا بليغا . وقد توصلت منه اليوم برسالة يبين فيها بعض ما تقلب فيه بعدى . وهى الاثر الوحيد الذى عندى لـه :

الرسالة : الاربعاء ١٧ ـ ٦ ـ ١٣٥٩ هـ

أستاذنا المحترم العلامة الفاضل سيدى محمد المختار السوسى :

تحية منبعثة من اعماق قلب مِلئُوه الاخلاص والمحبة والاجلال والاكبار .

لقد توالت الشهور والاعوام ونحن ننتظر بفارغ الصبر ذلك اليـوم الذى سترجع فيه المياه الى مجاريها . ونحظى نحن بعودة الاستاذ الذى طالما غذانا بمعارفه الجمة . التى لولاها لم نكن شيئا مذكورا . فلقد انتظرنا وما زلنا ننتظر ؛ حتى كاد اليأس يسرى الى قلوبنا . لولا رجاؤنا المتين الذى قد تمسكنا به أشد التمسك . حتى صار يظهر لنا بصيصا من الحقيقة المحضة عن قريب ستنجلى للعيان أيها الاستاذ .

انـه يجمل بى ان أبين لكم أننا لـم نزل على عهدنا القديـم متمسكين بالروابط التى جمعتنا منذ ازمان . فعسى بكل قوانا أن نستولى على التحصيل على المراد . غير مكترثين بما سيقف امامنا من العقبات الجمة التى حطمناها بعزائم فولاذية قد تركتموها لا تعرف الضعف . وكثيرا ما اجتنبت أهله . ويساعـدها على القيام بالـواجب ما تجـده لكـم من ذكر طيب فى العاصمة الادريسية التى اصبحت اليوم تقدس فيكـم الشهامة والنبل والفضيلـة . وتبكى فيكم الرجل العاقـل الذى كانت تعلق عليه آمالهـا الجمة التى قـد اصبحت اليوم فى خبر كان .

أستاذى المحترم :

انى بعد فراقكم بسنة . قد سئمت حياة البطالة والتكاسل . وهتف بى شوق العلـم الى تعاطيه . فشرعت بكل شغف أجلس فى كل الحلقـات . وأجالس كل علماء (الحمراء) غـير أننى لم أجد فيهم رجـلا يطفىء غلتى . فايقنت أن الديار بعدكم بلاقع . وان لا مناص من الرحيل . فشددت الرحل الى (القرويين) حيث وجدت بها بعض الشىء . وهناك استقر بى النوى . وانخرطت فى نظامها . وها أنذا اليوم فى القسم الخامس منه . وقد أحرزت فى هذا العام على الشهادة الاولى من القسم الثانوى . ونرجو من الله تسديد الخطا حتى ندرك النهاية .

اما الاستاذ ابرهيم بن أحمد . فهو بخير . وقد انخرط فى سلك التجار

العصريين . مع شريكه الامين . وهما يسلمان عليكم أطيب السلام . والكل يرجو من الله اطلاق السراح عاجلا .

وأما والدى المحترم فهو يسلم عليكم . ويرجو منكم ان تعينوه بالدعاء الصالح . كما انني أطلب من سيدى الاستاذ أن ينهى سلامى الى ولده (المنفلوطي) - لقب عبد الله - الذى نتمنى له مستقبلا زاهرا . وكذلك محمد بن الحبيب وسائر حاشيتكم . واننا لفى غاية الشوق الى اخباركم . فلا تبخلوا علينا بشرحها وارسالها مع الحامل . فاننا ننتظر . ويسلم عليكم الاخ أبو الغالى وسائر تلامذتكم الذين وفقهم الله الى تتميم أنفسهم . والسلام عليكم ورحمة الله . والى اللقاء العاجل ان شاء الله .

كنت أجبته بجواب لم يتيسر عندى الآن .

ثم كتبت اليه ١٥ - ٥ - ١٣٦٠ هـ :

الاشواق فياضة . والعزيمة نهاضة . ولكن الريش لما تطلق خوافيه وقوادمه للطيران . فهذه سنوات توالت . ولكن هل قدرت أن تزعزع ممن تعرفونه جبلة طبعت عليها نفسه . وخلقت منها همته . ومن ظن أن الحديد سيلين للماضغ فقد ظن رابع المستحيلات :

بنا مثل ما بكم من الشوق والجوى ... ومن زفرات في الضحى لافحات
نراسلكم مع الصبا بتحية ... معطرة الانفاس بالنفحات

نعم ؛ ان القريض الحلو الذى تعرفونه . يدب اليه الخلل . ويتعوره الوهن - كما رايتم فى هذين البيتين - لعدم المساجل والانيس . وهل يطير البازى بغير جناح :

صبرا قليلا ؛ فلعل الدهر يتوب فيضمد الجراح ؛ وما ذلك على الله بعزيز .

ان انس لا أنس صفاءكم وانقطاعكم للمعالى فى أقرب طريق . ألا وهى العلم . فبورك والد فرغكم وزودكم لذلك . وقد أبيتم الا أن تنفحونا ببنات جيوبكم (٢٠٠) كرما منكم ؛ جزيتم خيرا .

أبو سالم الاستاذ ثم التاجر . ما اشوقنا اليه . واما الامين فيا صبا الجواهر تحملى اليه أعطر تحية - والمقصود الحاج محمد بن داود الفاسى -

ثم كتبت اليه أيضا فى : ١٥ - ١١ - ١٣٦١ هـ :

احييك أيها الاديب العبقرى من بعيد . وأسلم عليك سلاما يلحفك بجوانحه حتى لتحس من أنفاسه ما أنا فيه من غبطة ألمس بها السماء . حين

زادنى سيدى ابرهيم السباق من بينكم جميعا الى كل غاية. والمبادر كل يوم ليفوز الى اقلال الراية . وايم الله لو اطللت علينا من خصاص بيت نجتمع فيه منفردين . ونحن فى حديث معسول . واخبار ونوادر وحكايات ؛ نبعثر بها ما دفنه الدهر جهده فى كل هذه السنوات الست . لرايت حياة تتمنى لو كانت لك منها نفحات لاسيما حين نتلوا «رسالة الشباب» (١)

كذلك فاز الاخ ـ وما أدراك ما الاخ ـ بسياحة جميلة فـي جنـوب (سوس) وبأيام حلوة فى (الغ) فاذا فاتك ان تشاركه . فاستمتع من روائح أنفاسه متى تلقاه فان ريا ما تعطر به هنا لاتزال تفوح من أردانه شهورا فشهورا .

لا أقول لك مت بغيظك بل أقول : مت بشوقك . فلقد سرقنا دونك ساعات كانت طغراء أيام حياتنا جمعاً .

ثم لا تنس انني مدين لك بهذه الساعة حين ظفرت منك ايضا بمخاطبة متخيلة . كانني اقابلك فيها وجها لوجه . كما لاتنس انك مدين لى بجواب مسهب ان كنت لاتزال كما أعهدك . وان حلت ـ ولا أخالك ـ فوداعا وداعا .

مع الاستاذ سيدي عثمـان المطاعي

كان هذا السيد من قدماء اصحابنا فى (الرميلة) وكان معينا عندنـا ـ زيادة على حضور الدروس ـ بتعليم كتاب الله أحقابا . ثم وضعتـه عنـد صاحبنا القائد العيادى . ليعلم أولاده . فهناك تركته بعدما وقعت الواقعة . ثم انه غادره ؛ فالتحق بـ (ابن يوسف) حيث كتب الىَّ ما ياتى :

سيدى وشيخى . وولى نعمتى : سيـدى محمد المختار الاديب الكبير والعلامة المتضلع :

اننى أتشرف بتقديم هذه القصيدة الطبيعية التى جادت بها الظروف المناسبة وقد قلتها تحت هذا العنوان :

---

١) كتاب وسط يتضمن حكاية لطيفة أسست على ما نحب ان نرى عليه شباب الامـة علما ونشاطا ودينـا . وبكـل أسف تلفت مسودة الكتاب . فذهب مبكيا عليه .

كيف نعالج ما حل بوحدتنا

عجبا لعصر هكذا خلانه ... معنى الاخا من شأنهم نكرانه
سل نشء شعبك ياصديق الى متى ... هذا الشتات يبيدنا طغيانه
ذقنا الاسى سلفا وقلص ظلنا ... حسن الصداقة اذ بدا فقدانه
أين الثقافة والتمشدق بالاخا ... ضاع الاخا وتهدمت أركانه
ومحا النفاق من الضمائر رسمه ... واها لشعب هكذا اخدانه
من لى بمن يحمى التآزر بيننا ... ويصون صرح كيانه ايمانه
ويذود لا متبجحا عن حوضه ... من لى به تحيا به أوطانه
أعظم بها من نكبة حلت بنا ... فنظام سؤددنا كبت فرسانه
ضاع الذى كان الجدود بناته ... المجد ؛ بل رمز المنى جدرانه
عجبا لأبناء سعوا فى هدم ما ... بنت الجدود وساءهم ايوانه
سرى لمن يبغى الرشاد أبثه ... بصراحة يشفى الغليل بيانه
ولمن يقدس فكرة لا عن قلى ... أو عن رضا قيمتها هذيانه
ويريد بالتقليد وهو مثقف ... خوض الذى لا يستهان طعانه
رمز التضامن والاخاء يحوطه ... شرف وهل فى جيلنا شبانه
فشلت مساعى القوم انهم ضيعوا ... روح الاخاء وقد كفى عنوانه
كل يحادث ألفه فى شرح ما ... أفضى به لكن متى ابانه
بشقائنا حكمت مصالح مدع ... فينا الصلاح وقد طغى شيطانه
توحى له أهواؤه فى شعبه ... طرق الردى فتعينه أضغانه
جل المصاب وشاع فى طبقاتنا ... روح التباغض جلنا عبدانه
هذا فتى عصر تحضر وارتقى ؛ ... فى شعبنا لما ذوت نيرانه
فيه الجدود تحققت آمالهم ... ما سجلوا فى كتبهم تبيانه
ماذا عسى يجدى التخاذل فى الاخا ... لما طوى أمما مضت عنوانه
فاستشعروا ما قد يداهمكم وفى ... ظل التضامن للعدا خسرانه

سيدى انتقد واصلح كما هى عادتك فى التشجيعات لتلاميذك الذين انا فى مقدمتهم .

ويجب على أستاذى أن يأخذ بيدى حتى تستوفى الخوافى والقوادم ؛

الجـــواب :

العصر ذاك وهذه ألوانه ... لا شيبه يرضون لاشبانه
تتابع الاجيال فى طغيانه ... فيذيقهم من صابه طغيانه
من أفلتته سيوفه عرضا فهل ... من مفلت ان أشرعت خرصانه
انى يروق الدهر فى دورانه ... من لا يجيء بسؤله دورانه

موج عل موج يفيض ومن ترى ... ينجو اذا ما غطه فيضانه
أو ما رأيت الجيل هذا فى الردى ... لا حذقه ينجيه لا عرفانه
تتراكم الشهوات فوق حياته ... فتهدمت من ثقلها أركانه
فتراه فى شرخ الشباب كأنه ... شيخ مضى وتثلمت اسنانه
قد دلهته حيرة حتى ترى ؛ ... منه الموله ليس يدرى شانه
لا ساسة يرضون عصرهم ولا ؛ ... من ساد فيه امرتضى عبدانه
(رزفلت) هذا العصر ليس بذى رضا ... عنه ؛ أيرضى بعده عثمانه
(عثمان) ايه فقد خبرت فهل ترى ... كيف الزمان ومن هم خلانه
أرأيت فى الجيل الجديد نحائزا ... تبلى عليه من أجلها أوطانه
غاضت صداقته واما صدقه ... فلقد تهدم وانمحى بنيانه
ساد النفاق على الاخاء ومن تشم ... منه الاخاء فمكره عنوانه
وتغلبت ظلم الضلال على الهدى ... حتى انمحى من نوره لمعانه
فاجل لحاظك هل ترى من تائب ... يلتوى الى ربع الرشاد عنانه
لا صحبة الأ على طمع ولا ... اجلال الأ والكياد دنانه
فمتى ترى من وافيين تراهما ... شيطان وازره الهوى شيطانه
شرب يعاقر بالخلاعة جهرة ... فاكتظ من أهل الخلاعة حانه
والملحدون تكاتفوا فى غيهم ... فمتى بدا غى فهم اخدانه
(عثمان) كيف تريد من نشء له ... هذى الطبائع ان يطيب زمانه
أنى يقوم منه جيل جال فى ... أفكاره من جهله مرانه
لا لا وحقك لن يفىء لرشده ... حتى يفىء لعقله ايمانه
انفض يديك من الزمان وأهله ... او يستقيم على الهدى ميزانه

وقد كتب الى قبل هذه القصيدة هذه الرسالة التى لم احتفظ بجوابها : ونصها :

٩ رجب ١٣٥٨ هـ

شيخ الاسلام . وقرة الاعين . وكشف الظنون عن كل مكنون . من معان وفنون . ومربى الروح والجسد . وبمحبته تنطق مكنونات الفؤاد . وبه عرف الاخلاص والوداد : سيدى محمد المختار . تحية عطرة . ورحمة شاملة .

سيدى :

كيف الاحوال يا منيتى وآمالى . كيف انت وما يكنه الزمان الغشوم من أكدار . كيف أنت وتلك النكبات التى يسام بها دائما الاحرار . والرجال العاملون . والمخلصون فى ترقية أفكارها . وكيف أنت . وأنت من الغرباء المنكوبين فى الله . ولفظ الغرباء هنا ليس على بابه . وانما فرط اليه التعبير لتقصيره عما يستحقه مولاى مما كان جنابه ـ لو كان الدهر يمشى على

استحقاق الرجال ـ أبعد الناس عن أن يمسه . لانه لم يعمل ما يوجب ذلك الا غيرة على دينه ووطنه . وتلك سنة الله فى امتحان المومنين . فاستسمحك يا شيخ العرفان ان قصرت فيما يليق بجنابكم الكريم من الصراحة في التعبير والصراحة هي التي ربيتنا عليها . وعلمتنا غير ما مرة مقاماتها ومعانيها .

أكتب هـذه الكلمة الوجيزة . ليتها تنوب عنى لديك يا أعظم الناس فضلا علىّ . ولو ذابت هذه الكلمة لاستحالت الى دموع حارة . مما تألف الاعين ان تسلسها دائما كلما ذكرنا ذلك العهد الذى مر لنا مجتمعين .

ياطالما أرسلنا عبرات متدفقة مثنى وثلاث ورباع . فرادى او مجتمعين ولو قطرت دمعة منها على الجبال الرواسخ لكانت دكا دكا . أو لو سالت على الاباطح لكان طوفان آخر ينسى طافان نوح . وهيهات أن يدرك مثل اللوعة التى قلقلت الاحشاء . واذابت الاكباد . الا من كان مثلى انا الذى فقدت منك ما فقدت . فلم يبق الا تاوهات وتاسفات وتنهدات . لو قدر يراعى ان يودعها فى هذا القرطاس لاستحال جمرا ملتظيا .

حقا ان ما يصيب العقلاء المفكرين . والعاملين المخلصين . والاحرار المندفعين . لما تدمى له القلوب . وترفض به الكبود . ويكاد يفقد به الرشيد رشده . وان كان كل ذلك انما هى حسنات خالدة . تسطر فى دفتر التاريخ الخالد . فلولا الامتحان لما ميز الذهب الخالص من غيره . وعند الاهوال تعرف الرجـــال .

سيدى : انني الآن فـى حالة غير سارة تكسونى خجلا بينى وبين نفسى . فلا المال ادركت . ولا على العلم حصلت . فانا عاطـل لا شغل لى . والاقبال على تعاطى العلم يحتاج الى اموال يعتمد عليها . والفقير مثلى صعب عليـه ادراكه . ومساكين اليوم يحرمون من كل شىء . من الوظائف ومن العلـــوم .

سيدى : لايخفى عنك أن النظام فى جامع (ابن يوسف) بزغت شمسه . وتفتحت أزهاره . والنفس الى الكروع منـه متطلعـة . والبواعث كثيرة . غير ان الاجنحة فيها قصر . وهكذا تنسد الابواب أمام مثلى رغم انفه وتسود وجوه الحياة بين عينيه . ولقد صدق المعرى اذ قال :

تعب كلها الحياة فمـا أعـ ـجب الا من راغب فى ازدياد

غير ان قول الآخر من شعراء الحماسة :

وما حالة الا سيصرف حالها الى حالة اخرى وسوف تزول

مما تومض به بارقة أمل . وعسى ان يفرج الله عنا بدعائكم الصالح . وان يبعث منا الآمال التى صيرت الايام الجائرة بيضها سودا . والسلام .

على قمة الاربعين

يمد اليك يا رب العالمين عبدك المسكين محمد المختار يده . مد من يتوسل اليك بأسمائك الحسنى . وصفاتك العليا . أن تنظمه . مع كثرة ذنوبه واجترامه لأنواع عظيمة من الآثام . فى سلك المغفور لهم . الممنون عليهم برضاك الأكبر . وان تسبل على ما كان اقترفه فى كل عمره سترا سابغا من مغفرتك . فانت اهل الستر وأهل المغفرة .

انني اوقن أن لا اله الا انت . وان لامتصرف فى الكون سواك . وان كل خير وشر جار على وفق حكمتك التى كتبتها فى الازل فى كتابك المكنون. وانه لارافع ولا خافض . ولا محيي ولا مميت . ولا نافع ولا ضار . ولا معطى ولا مانع ؛ سواك يا رب السماوات العليا المسموكة . والاراضى السفلى المدحية اومن بقدرك ؛ خيره وشره ؛ واومن بأن كل ما فعلته ؛ انما فعلته لحكمة . واستغفرك وأتوب اليك ان كنت اتضجر أحيانا ان مسنى شر ؛ فان العين تبكى . والقلب يحزن . ولا نقول الا ما ترضاه يا رب . ولا نعقد قلوبنا – التى لاتنظر من احوالنا الا اليها – الا على اعتقاد جازم بانك يا رب مسير الاقدار وفق تلك الحكمة التى لايعرف نتيجتها سواك .

انني اومن بعبادك المرسلين . وبانهم جميعا على صراط مستقيم . وان مبداهم كلهم واحد . وان قطب ما يدعون اليه هو توحيدك ؛ وايقان ان لاشريك لك ؛ وتصريف عبوديتهم فى التحرر من العبودية لغيرك . وانتهاج العدل فى كل ما يزاول من المعاملات بين الناس . ليعمر بهم هذا العالم . وليتطهروا من أدران الانسانية . لذلك العالم الذى حياته هى الحيوان لو كان الناس يعلمون .

انني يارب سلخت اليوم فى هذه الحياة اربعين ربيعا . كنت فيها بين مطيع وعاص ؛ وتابع ومتبوع ؛ ومنخفض بحسب مشيئتك ومرفوع . وغالب ومغلوب . وحزين حينا حتى لكأنى أقحم جحرا ضيقا حرجا . ومسرور أحيانا كثيرة بفضلك حتى لكأنى ملك من أرباب التيجان والصوالج . ثم انقضى كل ذلك كان لم يكن . ودخل فى خبر كان . فها أنذا أقف على (قمة الاربعين) فالتفت الى الوراء . لألقى نظرات عامة على كل ذلك . وساجردها من تلك التأثرات . ثم أعلن لحضرتك يا رب ما أدرك بنظرى القصير . وان كانت لاتخفى عنك خافية يا عالم كل شيء ؛ ويا من منه كل شيء .

كنت فى العدم يوم لم أكن شيئا مذكورا ؛ ثم لما اردت أن تتفضل علىّ بأول منة يا رب . اخرجتنى الى هذا الوجود الفسيح ؛ ثم واليت علىّ انعمك تترى من حيث أدرى ومن حيث لا أدرى . فربيتنى يا رب برحمتك التى وسعت كل شيء ؛ وبلطفك الخفى الذى يسرى فى كل شئ . فمازلت بى من عهد المهد ؛ ثم عهد الدبيب . ثم فى الادوار التى تلى ذلك . حتى تقومت صعدتى . وتثقفت فكرتى . وصفت مرءاة تمييزى . واستغنى عن المسح شاربى ؛ ثم حننت علىّ قلوبا ترى بهجتها فى بهجتى . وسرورها فى تألق طلعتى ؛ فحدبوا علىّ يوم أصبحت يتيما بعد استئثارك يا رب بوالدى رحمه الله ؛ فتقلبت فى نعم سابغة . واحترامات ضافية . ثم تتوجت بتلك المنن العظمى التى لاأحصى الشكر على أدناها - ولا ادنى فيها - بتفتح القريحة بالمعارف . فلم تزل يدك الطولى الرفيقة يا رب . تتدرج بى حتى صيرتنى فى صدور المجالس . وعلى ذرى المنابر ؛ تستر القبيح منى ولو ملأ الخافقين . وتبرز لأعين العالم ما تفضلت فنسبته الىّ من حسن الاحدوثة حتى لتبهر الناظرين . وان لم تكن الاّ مثل هباءة . ولكن اعتناءك يا رب جلاه فى معرض خوالب القلوب . فظهر كأنه منقبة عظمى ؛ فكم لـدات كنت استدى (١) معهم فى عهد الطفولة . وكم أتراب رضعت معهم المصة الاولى من المعارف . وكم نجباء سبقونى من الذين أسابقهم فى الافهام . ولكن عنايتك يا رب كانت تلوى اعنتهم دون المدى . حتى اظهرتنى أمام الحلبة كأنى المجلى (٢) عند غاية الميدان . وتلك نعمة منك يا رب احدث بها كما أمرت (٣) . لم أملك قط مالا وفرا ولا أثلت أملاكا دارة . ولا قايضت فى الاسواق . ولا بت بهم يَقِضُ مضجعى من جراء ما يهتم به كل الناس من هموم الدنيا . ولكنى مع ذلك أقر لك يا رب ؛ انك ما اخليت لى اياما كثيرة جيبا . ولاتركت يدى تمتد الى ذى مال يسمح أو يبخل . وتلك نعمة اخرى تمتن بها يا رب منة عظيمة . سترت يا رب عوارى . وخلقت الجميل ونسبته الىّ . ولو كنت فى مسلاخ ورع تقى لربما قيل ان الجزاء من جنس العمل . ولكنى أعلم من نفسى ما لايخفى عنك يا رب . من تلك الزلقات العظيمة التى - ويا للاسف - اجترحها . وتلك الذنوب التى - واحياءاه - اقترفها . ولولا انك أضفيت عليها سترا سابغا فى هذا العالم . يرجى بفضلك ان لايزال أيضا فى ذلك

---

١) الاستداء : اللعب بالجوز . والمقصود هنا اللعب بالحصا .

٢) المجلى بصيغة اسم الفاعل : السابق من الخيل فى الميدان . والسكيت مصغرا : المتأخر .

٣) قال الله تعلى فى كتابه العزيز : (واما بنعمة ربك فحدث)

العالم ؛ لكان المختار المسكين لعنة اللاعنين . وموقع اشارات الغامزين . فبأى لسان أؤدى الشكر على ذلك يا رب . ولساني يقصر عن أداء عشر معشار تلك النعمة . أصبحت عربيا مبينا ؛ بعدما كنت أعجميا فهيها . فكنت ـ مع أنى شلحى قح درج في بيئة لاتمت الى العربية الا بالايمان بالنبي العربى الذى أتى بالقرءان العربي ـ اجول فى مجالات من تسلسلوا من أبناء (تهامة) و (نجد) ومضغوا الشيح والقيصوم . بين جبلى (نعمان) أشعر بشعورهم . وارتاح الى نفحات أشعارهم . والجولان فى ميادين نثرهم . فكان الخليل بن احمد . ومؤرجا السدوسى . والاصمعى . وأبا عبيدة . أمت الى من سيدى حمو الطالب الشاعر (١) الشلحى . وصنوه الشاعر ابن غيل الافاوي الذى لايزال الى الآن حيا (٢)

حببت الى يا رب الخوض فى المعارف . ولم تجعل منى جمود بعض أصحاب المعارف . ولا قناعة المتكاسلين من بعض العلماء . فصرت وان كانت المادة قليلة اقبل وادبر . والحم واسدى ؛ وءاخذ من ذات الشمال الى ذات اليمين . ومن ذات اليمين الى ذات الشمال حتى ليؤتى الى غيرك يا رب أننى حقا من كبار العلماء الفطاحل ؛ ولم يعلم الحقيقة على ما هى عليه من أنني صفر غيرى وغيرك يا رب . فانما هناك نقطة صغيرة مسحتها بيمنك يدك يا رب ؛ فظهرت للناظرين من بعيد ؛ كأنها بحر خضم لا يشق له موج . ولا تطاول الجبال الشوامخ عظمته ؛ هيأتنى أمس يا رب الى أن القى بذور التعليم فى (مراكش) فاعنت اعانة اللطيف الخبير . حتى كانت من تلك الحبة قبة ؛ وحتى تعددت المدارس ؛ وتنافست الهمم . وظهرت فكر ؛ وتفجرت قرائح ؛ الى أن اهتز الحسود وقال : ان هذا أمر امر ؛ وشيء اد . تتفطر منه الحكومة ؛ وتميد به أركان الحماية ؛ فتحركت الاسلاك تملأ الجواء برنينها . وتوالت المخابرات تستحث على أن يكتنه كنه هذا الشان العجيب الذى حدث بـ (الحمراء) ؛ فقامت العيون تحملق على اتساع أجفانها ؛ وشرعت الظنون تكيل التهم جزافا لعلها تتوصل الى مظنونها . فكان ما كان مما يحسبه الجاهل نقمة ؛ وما ذاك فى الحقيقة الا نعمة أخرى يراها ءاخرون فوق كل نعمة . (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) . فلم يكن هناك الا أعمال ضئيلة مشتتة فقدت النظام ؛ وعدمت المواد التى تقوم بها لتسير فى

---

١) هذا شاعر سوسى كان فقيها بالعلوم العربية . ثم فتح له فى الشعر بالشلحة . فقال كثيرا . ونسبوا اليه كثيرا . دفن فى مشهد مولاى ابرهيم فى (كيك) ويعيش فى النصف الاخير من القرن الثانى عشر الى أوائل ما بعده وهو من جهة قبيلة (أوناين) من قرية معروفة . ٢) مذكور فى ١٦ (المعسول)

المنهج القويم . ذلك كل ماكان ؛ باطنه كظاهره ؛ لايسر فيه حسو فى ارتغاء ؛ ولا يتطاول فيه الى قلب الحقائق فتنقلب السماء أرضا والارض سماء . غير انك يا رب أعلنت شأن ذلك العمل على ضئولته وقماءته . لحكمة أنت تعلمها منذ أظهرت منها طرفا . وأبقيت ءاخر الى يوم ما . فقد أتيت بعبدك هذا الى (الغ) فكان ذلك منك سببا عجيبا ؛ فأنطت به صفحات أخرى من الاعمال؛ لم يكن يأملها ولا يحلم بها ؛ حتى غار أناس ءاخرون وتمنوا ان لو كانوا هم المنفيين ؛ ليكتسبوا ما نفسوه على من أصبح منفيا . ثم حدثت بعد ذلك أمور قال فيها قائل اختار الله لفلان . ولولا عناية الله به لكان فى أحد مسارب المياه فى منفى حقيقى ؛ وبيده مسحاة أو فاس (١) . ثم ظهرت اعمال بفضلك يا رب . تجلت فى احياء تاريخ (سوس) وسيقول الناس غدا : لو لم ينف المختار ويفرغ للمطالعة ؛ لما صدر منه كل هذا العمل المنظم الباقى الذى اختص به . وتوفر عليه ؛ وأظهره للعالم ؛ وهو أجدى وأولى وأفضل من ذلك الذى كان مشغولا به فى (الحمراء) وقد نظر الله الى (الحمراء) بعده فخلف لها ذلك العمل غير المنظم بقراءة منظمة فى (ابن يوسف) تتحسن مع الايام . ويرجى لها ـ وهى عمل حكومى رسمى ثابت ـ ما لم يكن يرجى للعمل الفردى الذى كان رهين جهود الافراد ؛ فمتى عثر فرد عثر معه عمله ؛ هذا ما سيقولونه ؛ وليقولوا ما شاءوا . وانما الذى أعلمه منك يا رب . انك تولينى فى كل حين ما يغبطنى عليه الغابطون ؛ وينتبه بسببه نائمون . فيقولون يا ليت لنا مثل عمل (فلان) وما العمل فى ذلك كله الا لك وحدك يا رب لو كانوا يعلمون . اننى لا أقدر يا رب أن أحصى من أنعمك شيئا . ولو حصرت احصائى فى ناحية واحدة ؛ ولا أطلب منك يا رب ـ وأتوسل اليك بتلك النعم التى بدأتنى بها بفضلك ولطفك ـ الا أن تتم علىّ نعمتك . وان تسترني دنيا وأخرى بسترك الجميل . وان تمتعنى بالحواس ما دمت في هذه الحياة . وان تجعل عملى فى رضاك دائما ؛ ولا تحوجنى الى غيرك فلا يليق بى فيما بقى من عمرى الا ما كان معهودا منك فيما مضى . والكريم اذا بدأ أتم .

كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

اننى أتوسل اليك بجاهك يا ذا الجلال والاكرام . ان تفسح لى فى العمر . حتى ارى فى هذا العالم ما كنت الى رؤيته مشتاقا ؛ وهو ان ارى وطنى

---

١) تلميح الى ما فيه أصحابنا الاساتذة المراكشيون المنفيون الى (ردانة) حيث اعتقلوا واستخدموا فى الاشغال الشاقة .

هذا حرا مستقلا . مَهيب الجانب . موفور الكرامة بين الاوطان والشعوب . وان تفك عنى هذه العقدة لاستمتع من جديد باخوانى الذين أجد ازاءهم متعة الايناس والابهاج . ومن لايأنس ولا يبهج فليس له فى الحياة متعة ؛ كما انني أمد يدى مد المستضعف المسكين ؛ الى كرمك الجم . ان تؤدى عنى كل تبعة . وان توفقنى للعمل الصالح ؛ وان تجعل البركة فى كل ما تزاوله يدى وان تجعل لى هيبة فى أعين الذين يريدون بى الصَّغار ؛ وقد عرفتهم جميعا. وما أنت يا رب من يحتاج ان أذكر له كل شئ . واننى أحب كل شئ ؛ ولا ينقص ذلك من ملكك شيئا . فمن على عبدك يا رب بكل ما يجعله سعيدا فى هذه الحياة وفى تلك (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) ومن طلب الكريم لايخيب طلبه .

اللهم اتم علىّ نعمة الصحة . واسبغ علىّ نعمك الشاملة الى ان تقضى بفك الخاتم وفصل الروح عن الشبح ؛ فتختم فضلا منك بالحسنى . ثم تمتعنى هناك بالحسنى وزيادة . انك يا رب سميع مجيب . ولطيف بعبادك أجمعين .

ان لهذا العمر الذى تقضَّى حديثا غير مكذوب . وهى العقبة التى منها يطل الانبياء والمرسلون . وتظهر من الانسان القوة ؛ وتمام العقل . وحدة الذكا ؛ وتنسحب اردية الوقار . وتعقد عقدة التوبة ؛ وهى على الاجمال مفترق الطرق لمن تخطاها . فاما رشاد ترفرف أعلامه ؛ وتزداد محجاته وضوحا . واما ضلال عميق كثيف مغبر الارجاء . يكون على صاحبه طوال حياته دياجير تلبسه أثوابا لن يخلعها حتى يخلع عنه غاسلوه قميصه ليسربلوه بالاكفان .

أود من أعماق قلبى ؛ لو كان أمرى فى يدى ؛ ان يشهد منى صفر هذا عام ١٣٥٨ هـ ؛ ولادة أخرى . أخرج بها عن كل ما لايليق بالرجولة والاسلام والمروءة . الى ما هو الأفضل والاليق من مكارم الاخلاق . وارتدا بستر المروءة الممتد . وتلفع برجولة تامة . تنفع صاحبها . وتنفع أمته من كل جهة وورود نطفة صافية من مناهل التوبة النصوح . فأخلع بذلك ما كنت أعرفه من اسمال الاخلاق التى ما كنت قط ارتضيها ؛ ومن رعونات نفس طائشة لم أكن قط بها مبتهجا . ومن جولان فى ميادين شائكة بالاثام ؛ ما كنت قط أحب أن تطأها رجلى . أود لو يكون كل ذلك . فاتملص من كل ما ذكرت . تملص الافعى من مسلاخه ؛ فيشهد (صفر) هذا العام مختارا اخر لايقل عما شاهده صفر ١٣١٨ هـ. ولاريب أن أرواح الذين ابتهجوا ذلك اليوم من والدى

معا واقاربى ـ أسبل الله عليهم رضاه ـ ستبتهج أيضا فى عالمها الذى هى فيه الآن ؛ اللهم انى أتوب اليك من كل ما صنعته عمدا أو خطئا ؛ وأطلب منك كما أقدرتنى على النطق بذلك ؛ ووفقتنى لتسجيله فى هذا القرطاس ؛ ان تتقبله ؛ وان تامر ملائكتك الكتاب الاكرمين أن يخلدوه فى الكتاب المسطور ؛ ثم تناولنيــه فى يوم الجزاء فى يمينى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا) ؛ المهم ازل هذه القساوة التى أعلمها فى قلبى . واستبدلها بتلك الرقة التى تضعها فى قلوب عبادك المخلصين ؛ فكل قلب لم تسعده بالخشوع ؛ فلن يرى أبد الآبدين سعادة ؛ وكل انسان لم توفقه ؛ فلن يكون دائما الا من الضالين ؛ واعوذ بك يا رب ان أكون منهم ؛ اللهم انك مننت علىّ بمعرفة الايمان من غير أن أطلبها منك . وأملت وجهتى الى وجهات المومنين الذين يرون الانقياد اليك هو عماد حياتهم وقوام سعادتهم ؛ فأتوسل اليك بما مننت به يوم ذاك . أن تمن علىّ اليوم أيضا بقبول دعوتى ؛ ونظمى فى حزب اليمين ؛ فما أطلب ذلك كلـه الا بفضلك . ولا عمل لدى أتوسل به الا فضلك وكرمك ومنتك ؛ والا مـا أنعمت بـه علىّ من النعم التى لاتحصى . وأفضل مـا يدعى به الكريم ثم يستفزه للكرم ؛ ان تذكر له نعمه الماضية . فاذا به يتبعها بنعم أخرى ؛ وأنت يا رب أكرم الكرماء ؛ اللهم يا من منّ علينا قبل أن نسأله ؛ من علينا الآن بعد أن سألناك . وتوسلنا اليك بفضلك العميم ؛ وبأنعم لم نزل فى ظلها الوريف منذ خلقتنا الى اليوم . وأنت القائل : (أدعونى أستجب لكم) فها نحن أولاء ندعوك بكل رجائنا فاستجب لنا . فقد قمنا بما أمرتنا به ؛ فتفضل علينا بما وعدت به ؛ فانك سيد الواعدين الذين لايخلفون الميعاد ؛ وأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

اللهم كما أطلت ألسنتنا بالدعاء ؛ وقصرت وجهتنا على قبلتك . ووفقتنا حتى عرفنا أننا لك عبيد مربوبون . أفضل علينا باستجابة الدعاء ؛ فان العبيد ليس لهم الا سيدهم . ولا يعرفون فى حاجاتهم سواه ؛ فان ردهم فمن الذى يدعون بعده ؟ اللهم اننا نمد اليك أيدينا فلا تردها بالخيبة ؛ ونرفع اليك ابصارنا فلا تردها حسيرة ؛ وجمعنا كل آمالنا فى فضلك ؛ فحاشاك ياصاحب الفضل العميم الذى يستمتع به حتى من كفروا آلاءك وعبدوا سواك ان تخيب من يقف بين يديك الآن مستسلما ؛ مقرا بكل ذنب ؛ ومعترفا أنه لايتقلب الا فى آلائك ؛ ومعلنا أنك ربه الذى أنشأه ؛ وملك قياده ؛ يصرفه كيف يشا . ثم خضع لك ؛ ووقف الآن أمامك صاغرا ؛ مستحييا مما كانت نفسه جنته ؛ فمن الذى يرحمنى ان لم ترحمنى يا رب . ومن الذى آمله بعدك يا خير المامولين :

يا رب ان عظمت ذنوبى كثرة　　فلقد علمت بأن عفوك اعظم
مالى اليك وسيلة الا الرجا　　وجميل عفوك ثم انى مسلم
ان كان لايرجوك الا محسن　　فمن الذى يرجو العصى المجرم

اللهم غفرانا من أن تكون ألسنتنا رطبة بدعائك . وقلوبنا فى غفلاتها سادرة (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد أن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ؛ ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه ان الله لايخلف الميعاد) (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين ءامنوا ؛ ربنا انك رؤوف رحيم) ربنا فقهنا فى دينك ؛ واجعلنا عارفين بك (انما يخشى الله من عباده العلماء) ربنا علمنا اسلامنا ؛ وثبت أقدامنا فيه . حتى نلقاك مومنين مسلمين (ومن اسلم فاولئك تحروا رشدا) ربنا اجعلنا كرماء سمحاً من عبادك (الذين يمشون على الارض هونا ؛ واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ولا تجعلنا ممن يشحون (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) (ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)

ثم اننا سنلقى نظرة على كل ما مضى من أدوار الحياة ؛ فقد أصبح ذلك كله عبرة ؛ وأولى ما يعتبر به من كانت أعماله كلها فى صحيفته . ومثل أدوارها فى حياته الغابرة ؛ ولنمر بذلك باختصار .

دور الولادة

كنت بكر والدتى ؛ فقد تزوجت عام ١٣١٧ هـ ؛ فولدت لها فى صفر سنة ١٣١٨ هـ ؛ وقد كنت حينا أحسب أن ولادتى كانت فى عام ١٣١٩ هـ ؛ وصدرت بذلك فى ترجمتى فى (الادب العربى بالمغرب الأقصى) للأخ القباج ولكن حين حللت فى (الغ) عرفت غلطتى ؛ وكان الوالد قيد كل ولادتنا نحن أولاده ؛ ولكن ضاع ذلك فى كتاب . ولم نقع عليه الى الآن ؛ وقد أخبرتنى عجوز فى دارنا اننى ولدت فى صفر السنة التى تلى سنة تزوج أمى ؛ وأخبرنى سيدى أحمد بن عبد الله المجاطى شيخ والدتى فى القرءان ؛ اننى ولدت قبل ولد له بثلاثة أيام . ووعد أن يوافينى بتاريخ ذلك ؛ ثم ذكر أن ذلك التاريخ تلف أيضا بين الكتب ؛ وهذا كل ما عندى فى ذلك . وقد حضر الجد الاستاذ محمد بن العربى الادوزى عقيقتى والجدة قرينته ؛ وكانت

صالحة . (وترجمة والدتى ووالدى وجدى محمد بن العربى موجودة فى (المعسول) وعقد زواج والدتى فى كتاب (من أفواه الرجال) .

اسمى محمد المختار

اقترح الجد أن أسمى محمدا ؛ فقال له الوالد : ان عندنا ولدا قبله اسمه محمد . فقال الجد : اذن نزيد وصفا يمتاز به هذا عن ذاك . فزيد المختار فاسمى الكامل (محمد المختار) (١) لامحمد بن المختار كما يحب أن يكتبنى به بعض الرسميين الذين يظنون اننى من عداد هؤلاء الذين يركبون اسماءهم مع أسماء والديهم فيحذفون (ابن) يحسبوننى فى مسلاخهم ولم يعلموا اننى من المحافظين على العربية وعلى تراكيبها ؛ وحذف (ابن) هنا ليس أسلوبا عربيا . ثم اننى أول من سمى المختار ـ فيما أعلم ـ من قبيلتنا ؛ ثم ذاع فيها بعدى .

دور التميز

أول ما استحضره مما يتعلق بالتمييز لأشياء ؛ أننى وقفت يوما فى مكان لا أزال استحضره بدارنا ؛ فقلت ليت شعرى بأى شئ ينظر الانسان ؛ أبالفم أم العين ؟ فسددت عينى وفتحت الفم ؛ فلم أر شيئا ؛ ثم عكست ؛ فغمرتنى البهجة حيث اكتشفت ان الرؤية تكون بالعينين لا بالفم ؛ وهل يرى القارئ هذا التوقف مثل توقف ديكارت المشهور يوم أسس فلسفته ؟ وفى عام ١٣٢٣ هـ ؛ ،ذكر أن الجد كان عندنا فى الدار قبل وفاته بشهور؛ وكنت اذذاك كما أحاول الكتابة فى لوحى . فخرمشت (٢) فى قرطاس شيئا . فعدوت حتى جلست فى حجر الجد ؛ فقلت له انظر الى خطى يا جدى ؛ فانه أحسن من خطك . فحنا على ما فى القرطاس ؛ ثم ربت على ظهرى ؛ وقال انه لجميل ؛ ففرحت بهذا الثناء ؛ وقمت أعدو لأغسل القرطاس كى أعيد فيه الكتابة . قياسا على اللوح الذى كنت أغسله كل يوم لتعاد فيه الكتابة ؛ فجرى القرطاس مع الماء فتعجبت ؛ فكأنى اكتشفت من جديد ان القرطاس ليس كاللوح . وانه يذوب تحت الماء ؛ ثم لما عقلت ورأيت خط الجد الجيد خجلت كثيرا مما فعلت .

---

١) أما لقبى المدنى فهو رضى الله . هكذا سجلناه فى (البيضاء) سنة ١٣٧٤ هـ وتوقيعى الرسمى (رضى الله محمد المختار السوسى)

٢) خرمش الكتاب: أفسده . ومن هنا أخذ (اخرّيبش) حيث يكتب الصبيان

هذه ذكريات عن أول تمييزي ؛ وقد كنت من ذلك الوقت الى الآن منخرم الذاكرة لا أستحضر مما مر بي الآ قليلا ؛ ولقد صدق الاستاذ محمد ابن عثمان المراكشي الذي كان يقول : لو كانت لك ذاكرة ؛ لكنت عالما كبيرا فلقد صدق ؛ فكأين من عشرات من الكتب طالعتها ثم لم يبق منها الا قليل ؛ وكذلك اخي احمد رحمه الله كان يقول لي مثل ذلك ؛ ويتعجب حين انسى ما كنت معه فيه حين الصغر . ثم يزعم الناس انني حصلت على العلوم وانخرام الذاكرة عندي سار بذكرها الركبان . وعرفها مني كل الاخوان حتى انني لأنسى أسماء الناس ووجوههم . فتقع لي بذلك مشاكل .

ذكر لي الاخ أحمد أنني كنت أتعلم أولا على والدتي حتى سورة (عم يتساءلون) والعجيب أنني لاأستحضر من ذلك شيئا . وقد كانت والدتي أستاذة داخل الدار ؛ تعلم البنات والبنين . قبل أن يخرجوا الى الاساتذة خارج الدار ؛ وقد كانوا من أصحاب الوالد ؛ وكان يختار للاستاذية بينهم من يختار . والذين أخذت عنهم القرءان هم سيدي عبد الله الايفغلالي الاكماري من رجال كتاب (منية المتطلعين) يعلمنا في الزاوية الالغية أعوام ١٣٢٣ = ١٣٢٦ هـ وعنه ختمت الختمة الاولى . واذكر يوم الختمة ؛ واستحضر ان والدي أخرج الى ساحة الزاوية - المركع - في اسفار اليوم الثاني جفنة كبيرة من العود ملاها بلقم البسيس ؛ على عدد الفقراء المتجردين . وهم ينيفون على الثمانين . فجلس على درج المركع . والجفنة أمامه . فصار الفقراء كلما خرج واحد منهم - وهم يذهبون الى الحصاد - يتناول لقمة . ومنهم واحد تناول لقمتين فلحظه الوالد فخاصمه ؛ وقال له : ان اللقم على عدد الفقراء . واذكر أنني يوم ختمت الختمة الاولى كنت أقرأ الجميع ؛ واستظهره ؛ فكنت أقول : بعد ذلك : سرعان ما حفظته وسرعان ما ذهب عني اتقان حفظه . وقد عقلت أنني ختنت لما وصلت حزب (قل أو لو جئتكم) فكنت اهذي بقراءته في نومي تلك الليلة التي تلي يوم الختان . وفي صباح يوم لعله في المحرم عام ١٣٢٧ هـ ؛ كان الوالد يتهيأ للخروج للسياحة لارشاد العباد على عادته فذهب الى مخزن التمر ليتناول منه شيئا ؛ وكان ذلك قبل صلاة الصبح . فتبعته أبكي وأقول له : انني لاأريد البقاء في هذا البلد ؛ وقد ذكر لي الفقراء أنه شديد البرودة . بخلاف غيره . فقال : اذن تريد أن أذهب بك الى حيث تقرأ ؛ فقلت : نعم مقترحا أشد الاقتراح ذلك ؛ فأمر في الحين بجمع ثيابنا أنا والحبيب وأحمد . فبعث بنا الى سيدي عيسى الاكماري في قرية (العركوب) من (ايغير ملولن) وكان هذا السيد قد راح عنده تلك الليلة ؛ وكان قد جاءه على أنه تاب من سالف ذنوبه . وانه أراد أن يتخذه شيخا مربيا يهديه فيما

بينه وبين ربه . فألحقنا به الوالد . وذكرياتى عن هذه الحقبة ضئيلة ؛ ولم أستفد ما عندى عنها الآ من الاخ أحمد صاحب الذاكرة الغريبة . وكل ما استحضر عنهـا هو اننا كنا نحترش الضباب ؛ ونولع بثقب حب (أركان) فتخذه سبحا نتقلدها ؛ كما نرى الفقراء يفعلون ؛ وان سيدى محمد بن مسعود كان مرة أرسل الينا قدرا مملوءة عسلا وسمنا ؛ ففرحنا بها كثيرا ؛ وان الوالد بات ليلـة فى مسجد (أكرض) ـ قريـة هناك ـ فذهبنا للسلام عليه بين العشاءين ؛ فكدت أتردى فى نطفية هناك فى المسجد لولا أن تداركنى انسان واننا قد عيدنا فى دارنا عيد المولد ؛ وكبنا اليها بهائم بعض الناس فلاقينا فى الطريق فى بسيط (دراوُوغ) الفقير على بن بلا من أبناء عمومتنا رحمه الله ؛ اتانا ببغلة سيدى على بن عبد الله الفقيه ؛ ثم رجعنا الى متعلمنا بعد العيد ؛ ثم بعد رجوع الوالد من السياحة رجع بنا الى الـدار ؛ فاتى ايضا سيدى عبد الله الاكماوى الذى لايزال فى الزاوية ولم يذهب عنها لأنه كان يعلم اخوة لنا صغارا لايمكن لصغرهم مغادرة البلد ؛ وفى شعبان من السنة نفسها أرفقنى الوالد مع الاخ أحمد الذى كان غادرنى قبل فى (ايغير ْملْولْن) قبل أن ءاتى منـه ؛ فأرسله الوالد الى الاستاذ سيدى ابرهيم بن الحـاج الرسموكى من رجال ذلك الكتاب أيضا ؛ وكان مشارطا فى قرية (ايفر ْيان) من (ايت باكُو) بقبيلة (هشتوكة) فالتحقت به الآن ؛ وكان رحمه الله مجدا صعب المراس فى جميع أموره ؛ وقد ذهبنا فى عواشر الى (كسيمة) وكان رئيسها سيدى محمد بن عبد الرحمن من أصحاب الوالد المتفانين فى محبته وكذلك الحاج الحسن الكيلولى خليفة أخيه القائد مبارك الحاحى على (أكادير) فكانا يتسابقان فى اظهار المحبة للفقراء وللشيخ الوالد ؛ بكل شئ ؛ وقد حضر الحاج الحسن فى موكبه موسم (الغ) عام ١٣٢٧ هـ ؛ مع سيدى المدنى وسيدى عمر أخوى الرئيس الكسيمى المذكور (١) والرئاسة اذا ناصرت انسانا فقد ناصره كل شئ ؛ فرأيت هناك تعظيما استمال نفسى ؛ فلعبت كما شئت ؛ وارسلت نفسى على سجيتها ؛ فلما رجعت الى المكتب تذكرت لعبى ؛ففررت ظهر يـوم من (ايفريان) محاذيا لساحـل البحر الى مصب الوادى فى قرية (تارايست) من (كسيمة) فطلعت مع الوادى ؛ الى أن وجدت عبدا يجيز ابلا عند مغرب الشمس ؛ فأجازنى فكذبته حين سألنى من أنا ؛ فقلت له : انى من (أكادير) ذهبت لأصب اللبن من وطب أمى فارقته فهربت منها ولاشك أنه أدرك كذبى ؛ لأننى لو هربت من (أكادير) لكنت على الضفة الاخرى من الوادى ؛ وايا كان فقد تذكرت أننى كنت نائما فى غرفة أستاذ

---

١) وهؤلاء كلهم فى (المعسول)

المسجد من قرية (تارايست) وكان من أصحاب الوالد ؛ فقد عرفني هو والفقراء هناك لما ذهب بي العبد الى المسجد كلقطة ؛ ثم ذهبوا بي الى قرية (الدشيرة) حيث الرئيس سيدى محمد بن عبد الرحمن ؛ فسرت على غلوائي لعبا ؛ وكنت في قمة الوقاحة ؛ لان أولئك يرون لابن شيخهم مقاما عظيما ؛ فالقوا حبله على غاربه . وويل لابناء المعتقدين من أمثال هؤلاء ان لم يجدوا من يردهم . ثم جاء الاستاذ سيدى ابرهيم بن الحاج فذهب بي بعدما احتال عليّ سيدى محمد ابن الفقيه سيدى على السباعي . حتى مكنني للاستاذ الذى رجع بي الى المكتب . فالقى عليّ قيدا كما كان كذلك أخي احمد لانه هرب ايضا . وحين أراد المعلم أن يزور بلده (رسموكة) جمعنا معا في قيد واحد احدى رجلي كل واحد منا في أحد طرفيه . فبقينا كذلك ؛ وقد بقيت في القيد أربعين يوما حتى جاء الوالد فمر بنا هناك عام ١٣٢٨ هـ مذهبه الى (مراكش) ولما رجع ذهب بنا الى البلد . وكان ذلك في أول رمضان . فوجدنا هناك السيد أحمد السكتاني . وهو من الفقراء المتجردين المجموعين في ذلك الكتاب فصرنا نقرأ عنده . ثم سقط الوالد مريضا . وأتذكر اننا دخلنا عليه يوم وفاته . فقال كأنه يهذى : أدخلوا داركم . أو لازموا داركم . لا أستحضر . فأصبحنا بعده يتامى . وأكبرنا وهو محمد كما ناهز الحلم . وكنا تسعة ذكور وست بنات . ولكن أصحاب الوالد جزاهم الله قد أدوا حقا عظيما في تربيتنا كما ستراه .

دور تعلم العلوم

دخلت سنة ١٣٢٩ هـ . ثم مرت على وفاة الوالد شهور . وكنت اذ ذاك قد ختمت سبع ختمات . ولعلني لم أتقن حفظ القرآن اتقانا . فبدا للأخ الاكبر والمشيرين عليه أن الحق بقراءة العربية . فافتتحنا قليلا في الزاوية عند الاستاذ سيدى أحمد البولوقتي التيزنيتي . ثم ذهب بنا أنا وأخي احمد في وسط ١٣٢٩ هـ الى مدرسة (ايغشان) في شهر منها لا أتذكره . ففتحنا عند أستاذنا سيدى عبد الله الالغي . فاعتنى بنا . وكنا نحو ثمانية تلاميذ متقاربي السن ومبتدئين . فرد الينا همته . فقرأنا الاجرومية مرتين ــ على ما أظن ــ ولامية المجرادى في أحكام الجمل . ولامية ابن مالك في التصريف . ومنظومة الزواوى . والمبنيات للبراغي . وشيئا من رسالة ابن أبي زيد

القيرواني في الفقه . وألفية ابن مالك في النحو الى (خَيَّرْ أبحْ قسَّم) من حروف العطف . ولامية العجم للطغرائي وذلك في سنة ١٣٣٠ هـ وبعض ١٣٣١ هـ . الى ما بعد رمضان منها على ما أظن . وقد كان ابن العم عبد الله ابن ابرهيم يَلَزِّنى . ويجشمنى الجولان في الاعراب والتلاوة . واذكر أنه أمر سيدى محمد (١) من (تيمولاى) التى بازاء (أداى) ان أتلو عليه القرآن فوجدنى فيه أعرج التلاوة . فلذلك عرفت أننى لم أتقن حفظه وإلاَّ لما تضعضع حفظه بهذه السرعة . وقد كنا ونحن هناك في الصغر على قفز ومرح ولعب كرة . ما لم يزأر علينا أستاذنا سيدى عبد الله بن محمد جزاه الله عنا خيرا واذكر انني كنت يوما ورم الساق من جراء لعب الكرة . لاننا نضربها بالارجل لا بالصوالج . كما هي عادة المتمدنين الغربيين . فذهبت متحاملا الى امرأة من (أيت يبورك) أسرة مجيدة في قرية (أنامر) فشرطت ساقي وكوتها . وأذكر أن العم كان ألم براسي فقال الاستاذ للتلاميذ يوما : أدعوا الله أن يبرأ فلان من عره . فدعوا فذهب الله به . وكان ابن العم معينا للاستاذ . فهو الذى درس لنا بعض اللامية . فشدد علىَّ حتى عرفتها . واذكر أن الطلبة كانوا يوما في حفلة يشربون الاتاى . فظل يمتحننا في منظومة (الزواوى) ونحن ندرسها . فكان سيدى محمد بن أحمد الديانى الايغشانى أنجب منى. فبكيت كثيرا . والحقيقة انني لا اكون دائما في الرعيل الاول في كل مدرسة لاني سريع النسيان . وربما كنت فاتر الهمة . ثم جئت من هناك بخروج أستاذنا . ومعى مبادىء حسنة . وقد بدأت فكرتى تتفتح . وصرت أسمع أن فلانا نجيب . والعجيب ان المدح يقدمنى دائما الى المصابرة والمرابطة . ولم أكن قط راضيا ان أكون سكَّيْتا وان كنت أقصر حتى لم أكن قط مجليا

حللت (بونعمان) بأمر أخي سيدى محمد . وقد كان سبقنى اليه اخى أحمد . وذلك بعد رمضان ١٣٣١ هـ . فصرت ءاخذ وأنا أدل بما كنت أوكأت عليه من قبل . من لغويات ونحويات وأدبيات . فأذكر اننا نأخذ هناك الالفية والمقامات والرسالة . وفي الليل كان الاستاذ سيدى أحمد بن مسعود يأمرنى بالمبيت في بيت سفل في مدخل (احشوش) - وهو اسم مسكن الاستاذ هناك - فاطالع شرحا صغيرا على لامية العجم . وكان مطعمى عند الاستاذ . فكم من

١) هذا الاستاذ هاجر بعد هذا الوقت الى (زمور) فشارط عند القائد صالح ثم تزوج بنته . فولد معها السيد الممتاز الوزير الحسن الزمورى من كبار السياسيين في حزب الاتحاد . وقد توفي والده في (زمور)

باد'از (١) أكلنا . وكم خبز وزيت ازدردنا . ولم يكن لي آولا بيت خاص . وكان الاخ احمد في بيت ملاه خيرا . ولكن لا أرى شيئا . وكان ديدننا حذف الحصى بيننا ولعب الكرة . ولا نلتفت في الحقيقة الى التعلم الا لماما . ومن ذكرياتي عن ذلك العهد . انني كنت ركبت ناقة من هناك الى (الغ) معها سقبها . فطلعنا في وادي (الاكماريين) وكانت المرة الواحدة التي ركبت فيها الجمال . ومنها اننا كنا مرة بـ (المعدر) وقد انقطع الطريق الى (بونعمان) للحرب القائمة بين التيزنيتيين وبين غيرهم . وكان المعدريون يتولون كبر محاربتهم . فكانت لهم فرسان كثيرون . وقد كنت مرة في الكدية التي تطل على (المعدر) صوب (تيزنيت) فصرخ صارخ . وفي لمحة عين تقاطرت الخيل بَدادِ . ثم اندفعت الفيالق . وقد بتنا اذذاك مرة في (ايدغ) فوصلت وانا في اعياء عظيم . ففي الصباح قيل لي انك تعشيت أمس . فتاكل وأنت مغمض العينين غير واع . فكانت غريبة عندي . ثم غادرت (بونعمان) بعد نحو سنة الى مدرسة (تانكرت) عند الشاعر الايفراني باشارة من شيخنا سيدي سعيد التناني . فارتكست في أخلاق وفي وقاحة وفي أمور . وقد بقيت هناك الى أواخر ١٣٣٦ هـ . وقد تقدمت ما شاء الله في الفنون . وان لم أستفد كثيرا الا في الادب . فهو الذي شدوت منه ببركة الاستاذ مولاي عبد الرحمن البوزاكارني . وقد أحسن الي في ذلك كما أحسن الي في حملي على الصلاة . ثم تاثرت بذلك حتى طاف بي طائف انابة . فكنت بسبحة تجعل الطلبة يضحكون مني . ولكن لم يكن الا شهر او مثله حتى اندلقت من ذلك . فبقيت للصلاة في الجملة . وقد كانت الدراسة حسنة ولكنني لم أكن مجتهدا كقريني سيدي الحسن الكوسالي السملالي . وقد اتسعت هناك بما اتى به من عند الوالدة التي كانت أكبر امنيتها أن تصدق في فراسة الوالد وقد كان قال لها ولغيرها مرارا ان فلانا سيكون عالما . فكانت مع ضيق ذات يدها تمدني بكل ما في استطاعتها . كما كان سيدي سعيد التناني أيضا يشجعني ويمدني . وكذلك الفقراء . خصوصا من كان منهم في (ايفران) وقد بقيت ضائعا اذ خلوت من مراقب يراقب سير تعلمي . ولكن ذلك نفعني من ناحية أخرى اذ كبرت في حرية كثيرة . وأنفة زائدة . ولعل ذلك ماعوضني الله . ونعم العوض هو . لان احساس الانسان بوجوده . وبكونه حيا كائنا

---

١) بَاد'از' : الكسكس من الذرة . غير أنه يبالغ في الاعتناء بتهييئه مع كثير من الخضر . وبعد أن يهيأ في الجفنة التي يوكل منها . وتكون خزفية . يعاد وضعها على نار فاترة ليزداد نضجا . فيكون من ألذ ما يوكل .

ذا ارادة فاعلة . أفضل من أن ينشأ ذنبا لغيره . امعة لايستنبط من نفسه . ولان يقع ويتعثر مرات ثم يقوم مستقيما . أولى له من أن ينشأ رخو الارادة لين القناة . لاينفع ولا يضر . نعم ؛ تفتحت فكرتي هناك . فصدرت عنى مقطعات ورسائل أولية . كانت ارهاصا لما أتى بعد والحمد لله . وكان الاستاذ سيدى محمد بن الطاهر معنيا بنا لو كانت لنا همة . ولكن مع ذلك لم تعم الخيبة . كنا هناك في أفعال غريبة . ومسابقة الى الجراة والوقاحة . كما هو شأن كل مدارس (سوس) اذ ذاك . فانها ما اخلاها الا" اخلاق اهلها الفاسدة الا" من أخذ الله بيده . فان كانت نزهة الطلبة . كنا في الرعيل الاول من القفازين المرحين . حتى اثمرت تلك الافعال ثمرا غريبا . فقتل طالب من بيننا فكرهت أن أبقى هناك فخرجت . أما الذى أخذته هناك . فهو الالفية مرتين كما احسب . وبعض مختصر خليل . والفرائض والحساب . وكان يدرس لنا هذين الاستاذ سيدى محمد بن مبارك التاغجيجتى الملقب (المنوش) والمقامات والاستعارات وبانت سعاد وكثير من القصائد الادبية التى تدرس كالبردة والهمزية والشقراطيسية وبعض التحفة . وسردنا البخارى كله كما احسب في الرمضانات . وكان أكثر ذلك عن استاذنا سيدى محمد بن الطاهر وبعضه القليل عن والده . وقد نفعنى الله بكل ذلك . وان لم اكن من المجدين ثم كان بين اخوانى الذين فى الدار تنازع فانعزل كل واحد مع والدته واخواته واخوانه الاشقاء . فرأى شيخنا سيدى سعيد التنانى أن يقطع شنئان التنازع فامر بالقسم . فقسم ذلك ـ لا على الفرائض ـ اثلاثا . وقد سومح في كل ذلك بالمصابرة وغض الطرف . ولكم حمدت السلامة أولا . وقطع الشغب ثانيا . ثم جعلونى أنا رئيس اشقائي . وأنا اذذاك بالغ . فاستنكفت ان أدخل ذلك الميدان . ولم أرض لنفسى أن أرجع القهقرى بعدما ظهرت بأنواع عرفان فعمدت الى كبش وقوالب سكر . فزرت شيخنا الايفراني . فودعني ودعا لى . ثم كنت نويت أن التحق بالاستاذ التاجارمونتى فى المدرسة الايغشانيـة . فذهبت اليها متفقدا أولا . على فرس حمراء . فبت هناك . فرجعت . ثم سيق لى فقير وسوس لى أن التحق بالمدرسة (الساعدية) بقبيلـة (ال أبى السباع) عند الاستاذ مولاى عبد القادر بن العربى . فقال : ان هناك فقراء تستغنى بهم عن التزود من الدار . فركبت جذعا من الخيل فسافرت معه . فكان ذلك أول رحلتى الكبرى التى استمرت نحو عشرين سنة . تحولت فيها من حال الى حال . تتبعنا السير من (الغ) ولم يكن معى الا" (فتوح الشام) من الكتب للواقدى . وقد أولعت بالقصص . ولم يتأت لى فى الوقت سواه . مع انى طالعت من الكتب الشيء الكثير . وكانت رحلة امتلأ فيها الكيس .

وتلقحت فيها الدعوى . وظهرت منى نوايا أبناء الشيوخ . فلولا اننى التقيت مع شيخى سيدى محمد بن عبد الله الزيكى . وأرانى الحق حقا . والباطل باطلا . وأخذ بيدى وعرفنى كثيرا مما كنت أجهله . لساءت حالتى من كل ناحية . وقد كان اذ ذاك مشارطا فى (أيت بعمران) من (ايداوكرض) وقد كان معى هناك وأنا أتتبع أصحاب والدى مبتهجا بما ياتينى منهم . وقد تطورت بسرعة من أحوال الطلبة الى أحوال الفقراء . بل الى ابناء الزوايا مع الفقراء . وسرعان ما عرفت كيف اذاكرهم وانا أقتفى ما يحكى لى عن الوالد وكان ما الاقيه من الاكبار يسكرنى . ولو كانت منى مادة البخل . أو فكرة جمع المال . لكان ذلك فرصة سانحة لتربية مالية كبيرة . والدنيا اذ ذاك لاتزال مزدهرة . والغنى لازال متفرقا فى غالب الناس . ولكنى من صغرى اولعت بأن أهدى مما فى يدى . وأرى فى ذلك نشاطا وفرحا . حتى كانى أنا الذى اخذ . واذكر اننى كان عندى قبل ان أسافر هذه السفرة ريالات فصرت أفرقها فى الدار. امكن لكل واحد او واحدة ربع ريال. وتلك شنشنتى اذ ذاك لا أعرف سواها . وطبع ارتكز فى تكبرا . وكثيرا ما أنشد ما قاله ابن الحسين :

لولا المشقة ساد الناس كلهم — الجود يفقر والاقدام قتال

حين افتقر . ثم أعزم على أن أبدل حالتى اذا أثريت . ولكن لايجىء المال حتى ياتى الخلق دون التخلق . وكثيرا ما أهتم ان انظم الدخل والخرج حين يمكن لى ذلك . فلا أقدر أن أملك يدى ان رأيت موضع مواساة . والحقيقة انها نزوة فقط خيالية كسحابة صيف .

ثم زرت (السويرة) وخضت فى الفقراء الى أن وصلت (مراكش) التى اشتريت فيها كتبا كثيرة . غالبها أدبية . ثم نزلت فى (الساعدات) أثناء عام ١٣٣٧ هـ . فوجدت الاستاذ سيدى العربى مشرفا على الموت . ثم قضى نحبه وشيكا . واحسب ان ذلك اليوم هو يوم نزولى او ثانيه . رحمه الله . فتلقانى سيدى عبد القادر ملاقاة سنية . ورتب لى مئونة . فقمت أنا بنفسى فظهرت بين الطلبة بمظهر المترفع . وأنا لا اخالط ولا أتعارف مع احد منهم والمدرسة عامرة فيها نحو مائة طالب . وكنت ألازم الصف دائما . والدروس ساكتا مطرقا ـ كعادتى دائما فى الدروس ـ وقد عزمت على ذلك لئلا اقع ثانيا فى الذى خرجت منه فى مدارس (سوس) وقد عزمت على ان اتملص عما كان خلقى فى تلك المدارس . فعصمنى الله حتى تأصلت فى جذور اخرى وقد اشتغلت اذذاك بقضاء صلوات فائتة . مع مطالعات شتى . وقد سيق لى شلحى من بنى عمنا ـ ابرهيم بن عدى ـ يستحضر مترجم مؤلف الشيخ

توجه كل من كان معي في رفقتي . وجلست شهرا قضيته عند القاضي سيدي محمد أوعامئو نقضي الايام مباسطة ومطالعة . ثم ابلغني كاتب القائد أنه يامرني بالرجوع الى البلد في يومي . فرجعت ومررت بسيدي ابرهيم بن صالح التازاروالتي في مدرسة (تاغلولو) فمرت لي معه ليلة طيبة . لم أر منه مثلها . ثم وصلت البلد . ورأتني الوالدة . فقرت عينها . فلم أجد هناك ما يلائمني . فلم يطب لي المقام . فخرجت مع انسان راجلين وانا في مرقعة الفقراء . وقد غلبتني نزعتهم اذ ذاك ومازجتني . فتكيفت بها . وقد أدركت أنه لاحياة لي في (الغ) بأي وجه . فسرت على (بعقيلة) فـ (رسموكة) فـ (هشتوكة) فـ (كسيمة) وقد وجدت والله في حالتي من الاطمئنان ما لا اكيفه . فوصلنا (أورير) فصاحبنا سيدي محمد بن همو من أصحاب الوالد هناك . فطلعنا فوق جبل (ايكي وفرني) فحصرنا المطر عند أناس ليلتين . ثم كان صحو فتوجهنا الى (أيت امر) فوجدنا الوادي سائلا . فاجتزناه . ولكن كاد السيل يلتهم المختار لو أن تمكن المذكور في يديه فانتشله . ثم دخلنا دار القائد سعيد التيكزيرني . فصادفنا هناك سيدي سعيدا التناني . فاخرج القائد كسوة تامة . فأمرني سيدي سعيد بلبسها . بعدما امتنعت . وقد وجدت في مرقعتي رقة . ولا ريب أن لحظ النفس نصيبا كثيرا في تلك الرقة ثم حضني سيدي سعيد على التعلم والاكباب عليه . وأذكر أنني قلت له ـ وقد استولت علي فكرة الفقراء ـ : أوليس انه يكفي الانسان ما عنده ان اشتغل بتصفية الباطن . فقال : لاها الله . ان ما عند الصوفية لايتسع الا بقدر اتساع العلوم الظاهرة . فان بقدر كبر الرحى تكبر لهوتها (١) وذلك أول ما سمعت هذا المثل . ثم لوح لي بل صرح بأن مستقبلي ان أردته انما هو بالعلم . وقال لي أيضا انك لاتقدر على ما يشترطه الصوفية ولم تخلق لذلك . يقول لي ذلك وأنا أجد رسوخ ما يقوله في نفسي . كأنما يضعه فيها بيده . وذلك هو التأثير بالهمة الذي يسميه بعض الصوفية التصريف . وقد صدقت في فراسته رحمه الله . فقد أرتني الايام أن استعدادي لم يكن الا للعلوم . لا للتصوف الذي تلهو به نفسي اذ ذاك . وان كنت مغرما به عقيدة . ثم عمدت الى (مراكش) منقطعا الى التعليم والمطالعة . وان كنت لا أجتهد الا في المطالعة كثيرا . فكنت كلما توقفت على نفقة أجول على الفقراء فارجع . وكان دخولي لـ (مراكش) فيما أحسب أول عام ١٣٣٨ هـ . وفي رمضان منه بلغنا انتقال سيدي سعيد التناني الى بلده . فارتحلت اليه زائرا فصار يحثني على القراءة وعلى العلوم التربية والادبية كثيرا . فلازمت القراءة بالاكباب وبقيت في الزوائي عن المجامع . نحو ثلاث سنوات أو أكثر .

---

(١) اللهوة كقهوة : ما تحمله الطاحنة بحفنتها فترميه في ثقبة الرحى .

ولم أكن أخالط الا قليلا من الطلبة . وكنت اذ ذاك ساكنا في مدرسة (ابن يوسف) ولكنني منعزل عن كل أحد . الا عن ترب لي وهو سيدي محمد التيملي الاديب . عرفته في (تانكرت) بـ (ايفران) وكنت آخذ اذ ذاك بـ (مراكش) عن محمد بن الحسن القاضي . أخذت عنه بعض التلخيص والسلم والاستعارات . وكان يعيرني كتب المطالعة . وحضرت عند الاستاذ ابن عمر السرغيني قليلا في ءاخر الالفية . وعند سيدي بوشعيب البهلولي أوائل المختصر . وعند مولاي الحسن السرغيني أواسطه . وعند الاستاذ عمر الجراري في المختصر والتحفة . وعند الاستاذ أحمد الاخصاصي بيبيس في الاستعارات وعند مولاي أحمد العلمي في الاصول . وعند سيدي اليزيد الرداني في العروض وأخذي على كل حال في ذلك الدور ليس بمتسع . لأني استفرغ جهدي في الادب كثيرا . فاذ ذاك صدر عني ما يمكن أن يحمل سمة الادب نثرا وشعرا ولو كنت اجتهد في ذلك الدور لأمكن لي أن أكون في العلم كما أريد . ولكن ذهبت سنوات ١٣٣٨ هـ ـ ١٣٤١ هـ كلها على تلك الوتيرة . ولم أربح الا الادب والمطالعات . وهناك صرت أسمع عن الحركة العلمية العصرية قليلا . ولكن اشتغالي بأدبي وتصوفي لم يدعني انصت لذلك كثيرا . فقد مرت بي أيضا زوبعة صوفية حاسبت فيها حينا نفسي كثيرا محاسبة شديدة . ولكنها لم تكن راسخة أتم الرسوخ ـ والحق يقال ـ وان كان ذلك الانزواء الذي أثار مني تلك الزوبعة المعصرة من محاسبة النفس يخيم علي . حتى انني كلما استرجعت بصري لتلك النفحة . وتمثلت حلاوتها . أتمنى لو أمضيت في ذلك عمري . فكان ذلك هو الوقت الثاني الذي جاش فيه علي ذلك جيشانا كاد يستولي على رسني . وقد تقدم ما كان انتابني في مدرسة (تانكرت) ولكن تلك الاولى ساذجة . وهذه قوية دامت أكثر من سنتين . ثم تراجعت الى غفلتي . وكنت في (مراكش) لا أخالط الا الفقراء أصحاب سيدي محمد ابن العربي المضغري وغيرهم . وتجدني كل عشية جمعة في زاوية (سيدي بو العبادة) وفي عام ١٣٣٩ هـ . خرجت صباحا أودع عبد العزيز الفاسي . ومولاي الهادي الجبلي المراكشي ـ وقد كنت معهما ومع أستاذنا القاضي ابن الحسن في رفقة دائمة ـ وكانا يقصدان (فاسا) . فاذا بهما عند السيارات أركباني . ولم أصطحب معي لا كسوة ولا درهما . فعرجنا على (الجديدة) فـ (البيضاء) فـ (فاس) ثم الى (أمجوض) في « بني زروال » حيث يقام موسم مولاي العربي الدرقاوي . فرأيت اذ ذاك عالما ءاخر . وزرت مولاي عبد الرحمن الدرقاوي . ثم أكدني كثيرا على العلم . ثم رجعنا ادراجنا . ثم أديت بعد ذلك واجبي من نفقات السفر . بعت فيه كتبي . لانني ما كنت أحسبني مؤديا . اذ ما سافرت الا ملزما . ولكن حين سئلت عن ذلك أديت في الحين

فكان ذلك درسا لي للمستقبل . وما أكثر أمثال هذه الدروس التي استأصلت فيها من نفسي الاشراف الى بنات جيوب غيري كابن زاوية . وفي هذه السنة جاء من رباني صغيرا الى (مراكش) فرأيت لما غلب علي من التصوف ان أعلن له الصفا من جهتي . فلاقيته في (السويرة) ومعه طائفة كبرى من الفقراء ثم جاء الى (مراكش) فكنا معا هناك في (الحوز) وكان يتجنب ايالة القائد عبد الملك المتوكي . لما مر بينهما من التنازع على (ايداوزيكي) ايام الهيبة . واذذاك تعرف بالكتاني ملاقاة بعدما كانت المكاتبة بينهما . ثم في سنة ١٣٤٢ هـ . طلع علينا السعد بطلوع الشيخ أبي شعيب الدكالي . فكان ذلك في حياتي اجافة لباب . وفتحا لباب ءاخر . وهذا الدور ذكرته بالتفصيل في تراجم أشياخنا الحضريين في (مؤلف مستقل) فانقشعت الغشاوة . وتنبهت للتفريط العظيم الذي مر بي في العلوم المختلفة . فكان ذلك من أعظم الاسباب التي حفزتني الى التتبع . فاقبلت اقبالا كليا . واذ ذاك ابتدأت المذاكرة في المتون الابتدائية . وكثيرا ما انقطع الى مشهدي (سيدي البغدادي) و (سيدي مسعود في الموقف) جل النهار . ثم ارتحلت الى « فاس » مفتتح ١٣٤٣ هـ . وفي ءاخر تلك السنة توفي سيدي سعيد التناني بعدما زرته من « فاس » وهو مريض . فظهر حينئذ ما تفرسه مني من أنني لم أخلق لغير العلم . فان الدعاية العصرية تمكنت مني بسرعة . فطار غيرها شعاعا . ولولا ما كنت عرفته قبل ذلك . وما الفته من الصلاة . ومن الاعتقاد الحسن في أهل الخير لكنت ككثيرين من غيري . ولكن المنة لله . فالحمد لله على السلامة

كنت قلت قصيدة واوية قدمتها الى أبي الاسعاد . ونزلت عليه . وقد أرسل معي السيد عبد الكريم بن سودة من (بني ملال) وهو هناك مستخدم قبل القضاء . رسالة تعريف اليه . ولكن لم أجد منه كل ما يوافقني . فانقطعت عنه . وهو الذي وقف معي حتى سكنت في المدرسة (العنانية) جزاه الله خيرا .

ذلك ؛ وأنا نادم أشد الندم حيث حرمتني تلك النزوة فوائده التي لايشاركه فيها أحد . ويكفي من حرماني أنني لم أر خزانته الى الآن (١) مع لهجي بمثل ذلك . وطالما ترددت الى (فاس) بعد ذلك فاتنكب زيارته عمدا لانه في جهة . وكل أصحابي هناك في جهة . فكنت أراعي أصحابي . وأذكر أنني كنت في (دار دبيبغ) مرة مع عزيز لدي . فمررنا ازاء سيارة صغيرة مغلقة الباب . مررنا ازاءها حتى ليلمس ذيلنا ذيلها . وهي واقفة في افريز الطريق . ونحن غريقان في حديث . وبعد خطوات وجدنا عبده . فقلت لذلك الاخ : لا أخال السيارة الواقفة هناك الآ لفلان . فقال : لا .

---

١) رأيتها بعد هذا الوقت . فرحمه الله من ذي همة علمية فذة .

فقلت : بل هي هي . فأنا راجع لأراه . فجاذبني فغلبته . فاذا به في السيارة ففتحها فقال : ها أنتذا قد رجعت بعدما عرجت ولم تسلم حتى السلام الشرعي . فقلت له : لم أرك ـ وأنا كذلك لم أره ـ ثم بعد أن رأيت العبد عرفت أنك هنا فرجعت . فقال : كنت أحسبك مثل هؤلاء الذين يعاودونني فقلت له ما اقتضاه الوقت اذ ذاك . وقد كان وقع له انه كان في صبح قبر العلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني . فتنكبه كثيرون بالمصافحة . بعدما صافحوا كل من في جانبيه من الحاضرين . فأثر فيه ذلك غاية التأثير . وهو مرهوب الجناب . ولذلك سلمت عليه الآن مداراة . لأنني وانا غريب هناك قريب لسهام كل من يرميني بها . ولكي أقطع هذا الحديث بيني وبينه سألته عن الذي ألف في الاطراف : أطراف الحديث . فذكر أناسا . ثم قال : ان جزءا من كتاب الاطراف للمزي في الخزانة في (القرويين) هذا ما قاله اذذاك ثم ذكر في (فهرس الفهارس) أنه في مكتبته هو . ثم ودعته فوجدت رفيقي المذكور غضبان . ولولا أن ما بيني وبينه مما لاينحل بمثل ذلك لكانت هذه ءاخر ما بيننا .

في (فاس) استبدلت فكرا بفكر . فتكون لي مبدأ عصري على ءاخر طراز . قد ارتكز على الدين والعلم والسنة القويمة . فجشت بقصائد حية . وهناك عرفت تطوانيين فاضلين هما السيد الحاج عبد السلام بنونة . وأخوه الحاج محمد . ورباطيين فاضلين هما الشيخ الاستاذ المكي الناصري . والاستاذ الحاج أحمد بالافريج . وكانا يردان علي في بيتي . وقد يبيتان معي فيه . كما عرفت هناك الاديب أبابكر بناني . بل هو أول من عرفت في (الرباط) وقد وردت اليها يوما . والاديب محمد بن العباس القباج . والحاج محمد الناصري الشاعر . وكانت الافكار تتبادل . فكانت هذه المدن الثلاث : (فاس) و (الرباط) و (تطوان) مركز التفكير في فجر (المغرب) الجديد . ومن هناك تمخضت الفكرة الوطنية المتركزة على الدين والاخلاق السامية، وكنت أصاحب كل المفكرين اذ ذاك . وكانوا نخبة في العفة والعلم والدين . ينظرون الى بعيد . وكانت (فاس) اذذاك لاتزال متاخرة عن (الرباط) و (تطوان) خصوصا جامعة « القرويين » التي كانت لاتزال تغط غطيطها قبل دروس موقظ الهمم استاذنا المفكر سيدي محمد بن العربي العلوي . فقد كان مجلسه ندوة الفكرة الدينية الجديدة . وان كان هو انما يحوم جهرا ضد الرد على الصوفية ولكن تحت ظل ذلك تكون غيره من الفكر الوطني العام . فاذذاك سكرت بتلك الفكرة . وأنا كما تفتحت لي الدنيا بجرائدها وجغرافيتها وكتبها الحديثة . والحركات المصرية والتركية والسورية والعراقية والهندية والافغانية ولايرانية

والتونسية . وحركة العلماء فى (الجزائر) . هذه كلها ترن فى الآذان رنين الاجراس التى توقظ النائمين . وحكومة (المغرب) اذذاك لاتزال غافلة عن ذلك . ولما تنتبه الى منع ذلك وخنقه في مهده . فسدونا في الامال ؛ وتصورنا البعيد قريبا . وبهذا أيضا كنت مشغولا غالب أعوام ١٣٤٣ هـ / ١٣٤٥ هـ ؛ فضلا عما أخذته هناك . وان أضعت وقتا ءاخر نفيسا فى أخذ العلوم الآ قليلا حتى زلزلنا اغلاق المدرسة الناصرية التى كانت منتدانا ومسرح افكارنا . وقد أسسنا هناك جمعيتين : الاولى جمعية الحماسة . كنت أنا مع الاخ مولاى الصديق العلوى . أول من دعا اليها . لنتلوَ فيها بيننا لتستقيم السنتنا العربية . فأشرت الى السيرة النبوية : فاذا بكتاب (نور اليقين) ورد وشيكا. فصرنا نتلو فيه بيننا جهرا . ونحفظ من شعر ديوان الحماسة . وقد اتخذنى الاعضاء رئيسا لاننى أول من دعا الى ذلك . وكل من تاخر او لم يحفظ فعليه غرامة . والثانية جمعية سياسية سرية أسسناها فى ١٢ رجب ١٣٤٤ هـ ورئيسها الأخ علال اصغرنا . وأعضاؤها : الفقيه الغازى . وأبو المزايا الكتانى وعبد الهادى مكوار . ومولاى الصديق . وسيدى المدينى . والجابرى . والفرسيوى . والمختار . وقد كان لهذه الجمعية فروع . أو هى بنفسها فرع لجمعية أخرى أصلية ــ كما حكى لى بعد ــ هكذا كنا فى المدرسة (الناصرية) ونحن فيها أساتذة متطوعون . ثم اخرج مديرها الاستاذ محمد الغازى منفيا عن (فاس) فبقيت منكمشا فى المدرسة (العنانية) وقد راجعت ثانيا مدارسة العلوم بجد. ولكن (فاسا) ضاقت بنا وبما نحن عليه فيها . فكنا نسمع عن (الرباط) اتساعا فى الدراسة فلحقت بـ (الرباط) مفتتح سنة ١٣٤٧ هـ . فكانت سنة مباركة . لم يمض علىَّ نظيرها فى كل السنوات التى قضيتها فى الدراسة . فقد كنت أخذت فى (فاس) عن الرسموكي والحجوجي ومحمد بن الطيب البكراوى والاستاذ العباس بنانى ومولاى احمد بن المامون البلغيثى ،وابن العربى العلوى . وابن جعفر الكتانى . وعبد السلام الفاسى فىالحساب والحبيب المالكى فى الجغرافية . والشيخ ابن الحبيب . وقد بينا كل ذلك فى محل ءاخر فى غير هذه العجالة . واما فى (الرباط) فعن شيخنا سيدى المدنى ابن الحسنى المحدث . وعن العلامة المصلح أبى شعيب الدكالى . وعن العلامة المفكر سيدى السائح فى الحديث والاصول والاصطلاح . والتفسير والفقه . فقد أخذنا (بلوغ المرام) كله . و (ألفية) العراقى كلها . والزقاقية والتلخيص عن سيدى المدنى . ومن التفسير والتحفة عن أبى شعيب الدكالى . وبعض (العمدة) عن السيد السائح . مع اقبالى على مدارسات شتى ومطالعات . فسرت فى الفقه الذى كنت أضعته . والاصول والحديث ومثل ذلك أشواطا

فكنت أعانى التدريس كلما قمت من مجلس هؤلاء الاشياخ . فدرست قوانين ابن جزى . وأحكام ابن العربى . والمغنى وغيرها . وباختتام تلك السنة انقضى ما تيسر أن ءاخذه في دور تعلمى الذى امتد نحو تسع عشرة سنة . ولكن غالبها او جلها ذهب ضياعا . بين صبا ومرح . وبين أفكار مختلفة . وما ذاك الا" نتيجة لشىء واحد هى اننى نشأت يتيما مفرّطا فى . لم يكن هناك من يهتم بارشادى . الا" اذا جاء عفوا كما كان من سيدى سعيد التنانى رحمه الله وسيدى محمد بن عبد الله الزيكى . وكذلك لا اعانة مالية الا" من عند الفقراء حين كنت فى (مراكش) ثم من عند الكريم السيد العابد السوسى فى (فاس) . ولـو كانت الدراسة جيدة تحت نظر قيوم على الامر . لكفى فيها نحو عشر سنوات .

نظرة عـامة على ما حصلته

اما العربية فان لى فيها يدا لا باس بها . وغالب ذلك بالمرونة . فالنحو قد أخذت بعضه فى المبادىء . ثم درست بعضه بعد ذلك فى متقلبات . حتى أمكن لى أن أكون فيه من الشادين . ثم لم أتمكن فيه بعض تمكن الا" بعد ٤٧ حين أدرس كثيرا لتلاميذى ؛ وأما اللغة فبالمراجعة ؛ وقد كنت أخذت بعضها فى (سوس) فى المدرسة (الايغشانية) والمدرسة (التانكرتية) وقد انتفعت بذلك كثيرا . ثم تزايد حين توفرت على ذلك بـ (الحمراء) ثـم وجدت مـن دروس شيخنا المفكر سيدى محمد بن العربى العلوى بـ (فاس) مادة كبرى وقد درسنا عليه الكامل والمعلقات وغيرها كديوان الحماسة . وأما الادب فمن (سوس) أيضا . وقد نفعتنى فيه هناك البيئة (الالغية) وكانلمدرسة (تانكرت) وادبائها ينبوع لى فى ذلك متفجر على أن لمولاى عبد الرحمن البوزاكارنى فى ذلك ما ليس لغيره فى تثقيفى . وصقل فكرتى . ثم ظل ذلك ينمو حتى لاقيت شيخنا ابن العربى بـ (فاس) فلقح ذلك بالادب العصرى . ثم لم يزل ذلك يستمد من مطالعات المجلات والكتب الجديدة . حتى كان ما كان. مما نشكر الله عليه . وكان لسيدى سعيد التنانى أكبر أثر. بحفزه لى وأنا بـ (مراكش) وكان يقول رحمه الله لبعض من يبلغنى مايقول : ان لم يحصل فلان على الادب وقرض الشعر . فانه لايكون عالما عند الالغيين . وان حصل ما حصل مـن الفنون . فكان ذلك مما شحذنى للامعان . وكنت أراسل أدباء (الغ) فى كل مناسبة برسائل وقصائد . ولم افتر حتى شهدوا لى بالتقدم . وقال الاستاذ على بن عبد الله للاستاذ الطيب الاكمارى لما توصل بقصيدة منى : هاك اقرأ قصيدة ابن شيخك لتفرح . وهكذا كنت أحب من أحمد بن سعيد ـ يعنى

الاديب الاكماري ـ ان يصبر حتى يكون مثله . ولكنه استعجل . والحمد لله وأما التاريخ فانما أدركته كله مطالعة. وهو غير منظم. وأما الحساب والفرائض وكل أنواع الفقه ؛ فانني في ذلك ضئيل الفهم . قصير الباع . حتى بعد مدارستي وتدريسي . وأما الحديث فله مني قبس ضئيل وكذلك التفسير . ولا أزال أتمنى ان استتم ما بدأته من تحصيل التاريخ بالتفرغ له . ولكن لا أزال تحت الاماني الى الآن . وعندي من الجغرافية معرفة عامة بسيطة ؛ أخذتها عن الحبيب المالكي الجزائري . ثم لقنتها لتلاميذي . ولكنها على كل حال ضئيلة ؛ ان قيست بمن درسوها بنظام . ولي يد في السيرة النبوية ؛ غير ان تلاميذي أحسن فيها مني . مع أنني أنا الذي درستها لهم ما شاء الله ورب مبلغ أوعى من سامع . وأما النثر المرسل فاستاذي فيه ابن العباس القباج سنة ١٣٤٧ هـ . يوم كنت أرافقه في (الرباط) فاذذاك تملصت من السجع . وأما الاصول فقد أخذت منه بعض دروس قليلة عن البلغيثي . ثم درسته كثيرا ؛ وقد تدربت في مجلس السيد السائح على تطبيقه على المسائل عند الاستنباط . ولي في ذلك حين كنت أدرس الحديث مسلك قد يستحسن وأما البيان فقد أخذته عن محمد بن الحسن القاضي المراكشي وغيره . وقد طبعت عليه مع استحضار قليل لقواعده . وقد كنت عزمت على تعلم الفرنسية ولكني لم اوفق مع أنه كان لي في (فاس) فراغ . ثم لما تفرغت أيام النفي لم أجد من يعلمني وقد كنت عزمت على اللحوق بـ (مصر) اخر عام ١٣٤٧ هـ غير أني أخاف أن ينضب ما عندي وليس ورائي من يمدني . فابقى هناك محتاجا . وان أعظم ما أتقيه ان أحتاج الى الناس . هذه نظرة اجمالية على معلوماتي القليلة . ذكرت ذلك عبرة لي ولغيري . واني لا أزال أعدني ـ لو وجدت متعلما ـ تلميذا فهما لقنا . ولكن حال الجريض دون القريض .

دور الاستاذية

ذلك ما بين ١٣٤٨ هـ . الى مختتم ١٣٥٥ هـ . ففي هذه الحقبة كانت (مراكش) مجر العوالي ومجرى السوابق . وقد اعتدت قبل هذا الحين أن أدرس كثيرا منذ عام ١٣٤٢ هـ . فأول ما درسته لامية الافعال في سيدي البغدادي في (الموقف) ـ احدى حارات (مراكش) ـ ثم الاجرومية . ثم متون النحو . والمقامات الحريرية . وفي (فاس) المختصر مع الاخ ابرهيم . والاربعين النووية . و (الدروس النحوية) وغير ذلك . وفي (الرباط) المقامات أيضا والقوانين الفقهية لابن جزي ؛ ومنظومة الاصول لابن عاصم . والمغنى . ثم لما انتصبت في (الحمراء) درست كثيرا . ويعلم الله ان الاساس المقصود هو

تعلمي أولا قبل غيري . لما أعلمه من نقصي ؛ ولذلك نقص كثيرون من الذين يأخذون عني . لانه ينبغي للاستاذ الذى انتصب في علم أن يكون متمكنا فيه ثم لايعطي منه لتلميذه الا بمقدار . وأما مثلي فانه يدرس لنفسه . ويتتبع كل شيء ؛ ولا أزال استعيد ذلك أول كل درس . حتى يحصل الملل . وما يحملني على ذلك الا انخرام ذاكرتي . وقد ينفع ذلك غيري وقد يضره . ولم اكن اتخطى ذلك . والقي الدرس كما ينبغي الا فيما أنا فيه ذو ملكة كالعربية . والا ما كنت أترك فيه كثرة الاعادة . لعدم تمكنها كالدروس العامة في المساجد التي لاتختص بتلاميذي الاخصاء . فأمشي فيها على المتعاهد .

وقد كان مما درسته في هذه السنوات الثمان الاجرومية . ولامية المجرادي في الجمل . ومنظومة الزواوي في ذلك ايضا . ولامية الافعال . والالفية ؛ وجمع الجوامع للسيوطي . والزقاقية . والعاصمية . وغالب المختصر ورسالة ابن أبي زيد القيرواني . والمرشد المعين . وبعض القوانين الفقهية لابن جزي . وبعض البخاري . والسيرة النبوية . ومنظومة ابن عاصم في الاصول ؛ وأحكام الاحكام للآمدي. وجمع الجوامع. والدروس النحوية والبيانية والاربعين النبوية . والانوار السنية لابن جزي . وبعض الشفاء ؛ والمقامات والحماسة . والمعلقات . والسلم . والاستعارات لابن كيران . والموطأ ؛ وعمدة لاالاحكام باملاءات ابن دقيق العيد . وبلوغ المرام في أحاديث الاحكام . ودروس التاريخ العام. وتاريخ المغرب الخاص مجملا وتفصيلا بحسب الطبقات والجغرافية . درست كل ذلك مع الطلبة مرة أو مرتين او مرارا بنفسي . ثم لما نشأ عندي تلاميذ نجباء أسندت القيام ببعض ذلك لمن هو أهل له منهم وكنت آخذ تلاميذي بالانشاء النثري والشعري كل بحسب استعداده الفطري وميله الجبلي . فكان منهم كتاب وشعراء . ولم أكن مع ثقل العبء العظيم الذى اتحمله مقصرا بحسب الطاقة . فانصح بكل ما أراه ينفع ولو بالضغط :

اذا لم يكن الا الاسنة مركب فلا رأى للمضطر الا ركوبها

وقد نصادف أحيانا . وقد نخطىء اخرى . وقد جريت في مسألة التأديب بذلك على مذهب المدارس الابتدائية الانجليزية . والمجالس الجنائية التي ارتكزت على أن بعض النفوس ربما لايفيد فيها الا ذلك . وكنت كثيرا ما أعزم أن لا أرجع الى ذلك . ولكن كان عندنا من درجوا في تربيتهم على هذه الطريقة . فلا يسيرون بسواها . والحاصل اننا في ذلك لسنا أحرارا . فنميل مع رأى الفلاسفة . لان البيئة وطباعنا تجرنا . وانما نقول اننا لانقصد قط التنفير . ولا نريد الا الخير (ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ؛ وما

توفيقي الا بالله ؛ عليه توكلت واليه أنيب) على أنني اجتهد كثيرا ان اراب ما افسده ذلك . واتمنى لو نشأت بين من لايعرفون الضغط بادىء بدء . فلا يحتاجون اليه بعد . ثم انني لا أبرىء نفسي . ففي أخلاقي حزونة غير محمودة . ولكن محبتي لتلاميذي وحنوي عليهم . وحدبي وشفقتي المتدين عليهم . تحملهم على أن يعرفوني كما انا . والحمد لله . وانما الاعمال بالنيات. وانما فصلت كل ذلك مبينا ومعلنا للحقيقة .

ذلك ما أعمله في ذلك الدور بالاجمال . ومعه تحت ظله أعمال كثيرة مستوفاة فيما كتبناه قبل اليوم . ولا معنى للتكرار . وانما مقصودنا الآن القاء نظرة عامة لا التتبع التفصيلي . الا فيما لم نكتبه مفصلا بعد . فنأتي منه بالمهم .

شاءت الاقدار أن تاتي ضحوة ٢٨ ـ ١٢ ـ ١٣٥٥ هـ ؛ بذلك النفي الذي كان لي كمفترق الطرق . فانتقلت بسببه الى منصة التاليف . فمضت لي الآن سنتان طافحتان ببنات قلمي من كل ناحية . وكأن الله أراد أن تكتب حياتي بقلمي وان يدرك مني القلم ساعة تبهره بعد ما كان في (مراكش) قلما لا يخط ولو جوابا لرسالة في شهور عدة .

كذلك مضت الاربعون سنة . وكانت السنتان الاخيرتان منها لـ(سوس) فأحيت منه ما كان ميتا . وبعثت منه ما كان مرموسا . وها نحن أولاء الآن فوق هذه القمة وقد حجب عنا المستقبل . نلقي نظرة على الماضي . لعل فيها شحذا للقريحة للمستقبل ان كان لايزال في العمر امتداد . فقد رأيت من الواجب علي أن ابادر باصلاح ما فسد مما مضى . لألقى الحياة الاخرى كما يلقاها الابرار . ان شاء الله . فأتوب مما اقترفت ؛ ثم أعزم على أن لا أرجع ومن أعلم مني بما اقترفته ؟ واسترجع ان شاء الله من كتاب ربي ما فتر حفظه الخوض في غيره . واجعل له وقتا لاينخرم . فان هذا النفي ان استرجعته فيه جنة لا نفي ؛ ومدرسة داخلية لاقفر خال . وفقنا الله لذلك . وأصلح من أخلاقي ما أتشكى منه . فأتفصى من تلك الحزونة . واجتث جذورها من نفسي حتى أكون من قيس ومن ابن قيس (١) فانما الانسان بالاخلاق . واتملص من التكلم في الناس كما ألفته بين الطلبة منذ الصغر . فبيست الخلة تلك . وتبا له من خلق . وارد من التبعات وأكفكف من الشهوات . ما أمكن لي . فذلك أنمى للصحة ؛ وانشط للقلب . وأنفع للنفس . وأكثر اطلاقا للطبع . الى دين الاسلام المبني على محاسبة النفس على النقير والقطمير ؛ ذلك ما يجب

---

(١) قيس بن عاصم المنقري . والاحنف بن قيس . كانا مشهورين بالحلم .

عليّ بيني وبين نفسي . فان لم أقدر الا أن أمثل دور أخي الشاعر همام بن غالب الذي قيد نفسه حتى أصلح من حاله . ثم أخذ برتاج الكعبة فعاهد الله أن لايكذب وان لايقذف محصنة . ثم واظب على الخمس . حتى قال للحسن البصرى وقد قال له : ما أعددت لهذا القبر ؟ - واشار الى قبر - خمس نجائب لا يلحقن - يعني خمس صلوات - فان لم أكن كالحسن البصرى . فلأكن على الاقل كالفرزدق .

فيارب متابا ورحمى وتوفيقا وسعادة الدارين .

منفاى بـ (الغ) صفر ١٣٥٨ هـ .

(ذيــــل)

ماذا عسى أن أقول ثانيا . بعد هذه الصفحة . فأنا الآن (على قمة خمس وستين) فقد مرت خمس وعشرون سنة عن وقت كتابة ما تقدم . وقد كان يجب أن استتم كتابة حياتى هكذا لو وجدت فراغا . ولكن اكتفى الآن بالاشارة الى بعض نقط . والباقى يلتقطه من مسودات ما كتبته من مؤلفاتى من يتطلع اليه .

١ - بقيت فى (الغ) تسع سنوات . ففى ١٣٤٥ هـ رجعت أخيرا الى (الحمراء) حيث راجعت التعليم فى مسجد (باب دكالة) لطلبة جدد . لازمونى ولازمتهم الى سنة ١٣٧٠ هـ وقت الازمة . وقد مثلت فى بناء مدرسة (ابن دغوغ) شبيه ما كنت مثلته فى الجمعية الخيرية . وقد كنت رئيس الجمعية التى وقفت على بنائها . فتجدد بذلك عداء جديد مع الحكومة ...

٢ - حججت سنة ١٣٦٥ هـ فى الوفد الرسمى بتعيين محمد الخامس رحمه الله .

٣ - حللت (البيضاء) وقت الازمة بأولادى . حيث بقيت الى أن اعتقلت مع المعتقلين الى (الصحراء) حيث بقيت سنة ونصفا. ولى فى ذلك (مؤلف)

٤ - سرحت أول المعتقلين. ثم تراخت الازمة . الى أن جاء الاستقلال برجوع محمد الخامس من المنفى .

٥ - عينت - بلا طلب منى - فى الوزارة الاولى وزير الاوقاف حيث بقيت أحد عشر شهرا . ثم عينت وزير التاج . وأنا لا أزال بهذه الصفة الى الآن . وقد فوضت أمرى الى الله .

٦ - كنت زرت تونس كعضو فى جمعية الحرمين الشريفين ١٣٦٧ هـ

٧ - كما كنت رئيس وفد مغربى فى المؤتمر الاسلامى مختتم ١٣٨١ هـ ثم اعتمرت وزرت (القدس) و (دمشق) .

ألحقت هذا مفتتح ١٣٨٣ هـ وأنا فى (الرباط) انتظر ماينتظره الموحدون

خـــاتمـــة

تم هذا الجزء الثانى ولله الحمد من « الالفيات » ؛ فقد أودعت فيه مـا امكن لى ان أودعه فيه . مما كنت ألاقيه من عنت الزمان . وضغطة الايـام . فهو تتمة لصنوه المتقدم . فسيمثلان معا أفكار غريب نفته حكومة ظالمـة معتدية . وما ذنبه الذى اجترحه ؛ الا اكبابه على نشر العلم العربى وما اليه والا نفضه اليد من التقرب اليها والتطوق بوظائفها . فرأت أن تسىء اليه جهدها . فكان ما كان مما جعله الله لطفا ورحمة . ولكن اكثر الناس لايعلمون

هـذه اربع سنوات مضت . قد لاقيت فيها ما لاقيت . ولكن هل فلّت من حدى ؟ او هل غيرت من عقيدتى ؟ او هل لينت من قناتى ؟ اننى أزعـم اننى اليوم أصلب مما كنت وأقدر على مقاومة كل ما أراه ضارا بدينى وشعبى منى أمس .

استغفر الله ؛ بل لا حول لى ولا قوة ؛ انما القوة كلها والحول لله وحده الا أننى أحسست بما كسانى به من فضله من درع سرد . وقلدنى به من مخذم مرهف . ونكبنى به من قوس مرنان . وقمن بمن كان يحس بعون الله أن يحدث بنعمة الله عن ذات نفسه ؛ لاقاصدا تكبرا . ولا معتمدا تطاولا الى فخر . افمن يخلق من طين لازب يفخر ؟

(وبعد) فقد كان ما كان مما نحن فيه مسيرون لا مخيرون . والمستقبل بيد الله وحده . فالمطلوب منه أن يحسن الينا فيما مضى . فقد كنا نعمل أعمالا ما كنا نقدرها قدرها . ثم انكشف الغيب عن أنها من الاعمال الجسام . والمأمول أن تتصل هذه السلسلة ما دمنا فى الحياة . فنؤدى مستطاعنا نحو ديننـا وأمتنا المضطهدَين . فما أسعد من عاش لربه ولشعبه . وما أحظى من لفظ نفسه فـى الذى يرضى بـه دينه وامتـه . ومن مات دون ماله فهو شهيد : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء ؛ عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله)

ختم الله علينا بالايمان . وجعلنا فى الطائفة الناجية دنيا وأخرى .

٢٩ ـ ١٢ ـ ١٣٥٩ هـ

نجز الجزء الثانى مـن (الالفيـات)

ويليه ان شاء الله الجزء الثالث

فهارس الجزء الثاني من الالفيات

الفهرس الاول في محتوياته . نثرا وشعرا وأخبارا :

مكلوم . يعلن أن ما يكنه دائما وبما كان أفيض من تلك الاشواق . وأصفى اخلاصا مما في تلك القلوب المرفرفة . فقلت أهكذا قضى على هذا الجسد المسكين أن يطحن ما بين أشواق من الخارج اليه . وبين أشواق من داخله ؟ وهل يبقى كثيرا ما يلح عليه مثل هذا من الجانبين ؟

حقا تساقطت دموعي أيضا تأثرا حين أجلت عيوني فيما في يدى . كما تساقطت دموعك ايضا أيها الأخ تأثرا . فهل يستطيع الأثير أن يحمل بلل ما يجرى من شئوني الى احدى غرفتيك . فيبلل به خديك . ويمزج ما بين جارى جفنيَّ وجارى جفنيك فلا تكاد تفتح مذياعك الذى ذكرت انه في احدى غرفتيك حتى تحس بما نحس به . فتبادر الى فوطك اقبالا بالمسح على عارضيك الكريمين ...

تذكر ان خيالك يجول دائما حولى . وانه مصور لبق يمثلنى كما انا بين يديك يقظة ومناما . فيملك عليك لبك ويستحوذ منك على المشاعر . فقلت أهذا هو السبب الحقيقى حين يقع لى نظير ذلك طوال هذه السنوات فقد صدق اذن من يقول :

(ومن القلوب على القلوب دلائل)

وصفت مسكنك الارضى المؤثث على الهيأة الحديثة . مع سذاجة اضطر لها الوقت العصيب . فذكرت الهاتف والمذياع وآلة الانارة . ومجرى الماء وما الى ذلك من المنافع . فقلت : حياة طيبة ساذجة . تليق بعزب غريب . محب للانزواء . لكنك حين ذكرت أن الغزالة ــ منبع هذا الوجود ــ قلما تزوره الا لماما في بعض الفصول . اختلجت فى جوانحى شفقة حارة عليك . حين تيسر لك على سذاجته كما تقول . ولم تيسر لك مناغاة الغزالة فى كل أطوار السنة . وذلك ما لابد منه . ولا يستغنى عنه حيّ . سواء كان يعيش وفق تقاليدنا . أو وفق النظام الحديث . ثم لما عرفت أن التقتير ضارب نطاقه حول حياتك . أدركت السبب الحقيقى من مهاجرتك لأمكنة تأتى لتلك الغزالة التى لا يهجرها مثلك الا اضطرارا . وللضرورة أحكامها المسمطة التى لاتساوم برد كيفما بلغت قساوتها .

ذلك ؛ واننى لأتعجب كيف تساوينى فى هذه الحالة ــ مباعدة الغزالة الا لماما ــ فانى من زمان انعزلت عن الشقيق فى مسكن خاص يفوق عدد غرفه البدوية الساذجة غرف مسكنك عدا بكثير . وقد ضم كذلك كل المنافع البدوية . الا اننا حرمنا من مشرقة الشمس فى الشتاء . ومن مضجع موافق فى ليالى المصيف . التى لايواتى فيها ما تحت السقوف وقعيدة البيت كثيرا ما أشفق عليها من ذلك لو قدرت على شيء . حتى عزمت على بناء سور سطحى يتهيأ فيه ذلك فى الصيف الماضى . لكننى تأخرت خوف

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٨	١٧	كل الحال	كل حال
٤٠	٢٠	الا تتنال	الا أن تنال
٤١	٢	من غير اسال	من غير أن اسال
٤٨	٧	عشرين فرنكا	عشرين ألف فرنك
٥٠	٢	ما زالين	ما زايلن
٥٢	٥	فاننى	فانه
٥٣	٧	العاذلون	العاذلون
٥٤	٢٨	الفقرا	القفرا
٦٤	٤	فيسرْ	فأسرْ
٦٥	١٢	يستوفى	يستوى
٦٦	١٣	جبراتها	جبروتها
٧١	٨ (فى الحاشية)	تقيلل	تقليل
٧٩	١١	عن الاحكام	على الاحكام
٨٠	٣٦	يفتح	بفتح
٨٥	١٠	الصناداق	الصناديق
٨٧	٧	سهلة	سهله
٩٠	٢٧	الهم	اللهم
١٠٥	٢٢	علو	عذرا
١١٦	٢٨	غير	غيرى
١١٧	١٠	لا ارى	اوَى
١١٧	٢٤	من لم يزود	من لم تزود
١١٩	١	متسع	يتسع
١١٩	١٥	اللذات	اللفات
١٢٧	٧	ومو كان	ومن كان
١٤١	٣١	من اقراحات	من اقتراحات
١٤٢	٣	تتكتسب	تكتسب
١٤٤	٩	تستتم	تستتم
١٥٤	٦	مما لا يفعله	ما لا يفعله

صفحة	سطر	خطــا	صــواب
١٥٥	٢٩	القرية	القربــة
١٦٢	٢٧	الجبين	الجبيـــين
١٦٧	٧	يباو بنى	يباوينى
١٧٧	٣١	لاينبغى	ينبغى
١٨١	٥	مهتم	متهم
١٨٧	١٥	قريت	قربت
١٩٦	٢	نوازغ	نوازع
١٩٧	٦	لم أجد	لــم أجده

طبع بمطبعـة النجاح = الدار البيضاء

عـام ١٣٨٣ هـ = الموافق ١٩٦٣ م